تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مجلة
فصلية علمية
دينية سياسية
تعنى بشؤون حوزتي
النجف الأشرف
وقم المقدسة

الحوزة

مجلة علمية فصلية

تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العدد الخامس والعشرون/ السنة السادسة / ١٤٤٠هـ

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

هيئة التحرير

حيدر النجار

إبراهيم الأسدي

التصميم والإشراف الفني

أحمد الهاشمي

info@markazalhuda.net

www.markazalhuda.net

دعوة للكتّاب

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الحوزة وفق المعايير التالية:

- ❖ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- ❖ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- ❖ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- ❖ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- ❖ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- ❖ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الإمام الخامنئي (دام ظلّه) :
لحكام الدول الإسلامية خلال لقائه بضيوف مؤتمر الوحدة الإسلامية

«انضووا تحت ولاية اللّه، فولاية أمريكا لن تنفعكم»

في أعلام الحوزة

❖ **الثابت والمتغير عند الإمام الخميني والعلامة الطبطبائي والشهيد الصدر**
الشيخ أحمد مبلغي / ترجمة : حسن علي مطر ١١

❖ **فتوى الجهاد الكفائي للإمام السيستاني**
أ. عمار ياسر العامري ٢٥

من آفاق الحوزة

❖ **أسلمة العلوم وتصادم القيم**
حوار مع د . الشيخ أحمد الأحمدي / ترجمة: حسن علي مطر ٦٩

❖ **وحدة المؤسستين الدينية والجامعية**
السيد عباس نبوي / ترجمة: محمد عبد الرزاق ٨٢

التقريب والوحدة الإسلامية

❖ المناهج والآليات النظرية والميدانية لحركة التقريب
الشيخ محمد مهدي الآصفي ٩٤

❖ منهجية الحوار في الإسلام
أ . جعفر عبد الرزّاق ١٣٧

دراسات حوزوية وفكرية

❖ القواعد الفقهية المفهوم والمميزات والتطور التاريخي
الشيخ مرتضى الترابي ١٥٧

❖ تطور الدرس الأصولي / السيد الشهيد محمد باقر الصدر أنموذجا
أ . د . صاحب نصّار ١٧٥

❖ حقيقة الإيمان في ضوء آيات القرآن
أ . كبرى مجيدي ١٩٧

بحوث حول أهل البيت

❖ إثبات ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه وغيبته
آية الله السيد منير الخباز ٢١٩

❖ ملامح عصر الإمام الهادي عليه السلام
محمد عبد المنعم الشامي ٢٣٤

من أعلام الشيعة

❖ السيد ابن زهرة الحلبي حياته وفكره وآثاره
هيئة التحرير ٢٢٤

الإمام الخامنئي دام ظله:

لحكّام الدّول الإسلامية خلال لقائه بضيوف مؤتمر الوحدة الإسلامية

انضووا تحت ولاية اللّه، فولاية أمريكا لن تنفعكم

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أبارك لكم جميعاً أيها الحضور المحترمون، ولضيوف مؤتمر الوحدة الإسلامية الأعزاء،

والسفراء الحاضرين في هذه الجلسة ذكرى الميلاد المبارك لنبي الرحمة سيدنا خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ وذكرى ولادة الإمام العظيم سيدنا جعفر بن محمد الصادق السعيدة. كما أبارك لكل الشعب الإيراني ولكل مسلمي العالم بل لكل الأحرار في العالم ـ من مسلمين وغير مسلمين ـ ولادة الرسول الأكرم الشمس الوضاءة التي أشرقت في زمن الجهل والخداع الجاهلي وأنارت العالم، وعلى حدّ تعبير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَالدُّنيا كاسِفَةُ النّورِ ظاهِرَةُ الغُرور»[1]. وهذه هي حقيقة القضية، فقد كان العالم غارقاً في ظلمة الجهل والخداع في ذلك الزمن الذي أهدى وأعطى فيه ربّ العالمين هذا النور للبشرية. جسد الرسول المبارك ليس بيننا اليوم ولكن ﴿ **أرسَلَهُ بِالهُدىٰ وَدينِ الحَقّ** ﴾[2] دينه وهدايته مرافقةٌ لنا وموجودةٌ بيننا. إذا اتبعنا هذا النور وإذا كنا مشمولين بهذا التعبير القرآني ﴿ **وَاتَّبَعُوا النّورَ الَّذي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ فستكون النتيجة ﴿ **أولئك هُمُ المُفلِحون** ﴾[3] اتباع هذه الهداية الإلهية وهذا النور الذي جاء به ـ وهذا النور هو القرآن [الكريم] والقرآن كتاب هداية ونور ـ واتباع هذه الهدية الإلهية التي مُنحت للبشرية عن طريق الرسول الأكرم، سيؤدي إلى منح البشرية الفلاح والخلاص.

البشرية تصبو إلى الفلاح. مشكلة البشرية منذ انطلاقتها وإلى اليوم تتمثل في انعدام العدالة وانعدام الرحمة وانعدام الهداية. الضلالات المتنوعة التي تعاني منها البشرية جعلت الحياة عسيرة عليها. وهي [البشرية] اليوم بحاجة لينبوع النور ذاك، ومحتاجة كذلك للاستجابة لدعوة النبي الأكرم وهي دعوة الحق والصدق والرحمة. إذا بلغت البشرية هذه المرحلة من النضج الفكري بأنْ تستجيب لدعوة نبي الإسلام المُكَّرم فسوف تزول مشكلاتها. واليوم أيضاً إنَّ وجود القوى والظلم الناجم عن تهورها في ممارسة الأعمال الإجرامية أدى إلى أن يكون العالم مثل ذلك اليوم «كاسِفَةُ النّور» و«ظاهِرَةُ الغُرور». اليوم أيضاً تعاني البشرية للأسف. وهذه المعاناة لا تختصُّ بالعالم الإسلامي الذي ابتعد عن الإسلام، إنما البشرية كلها تعاني، وتلك البلدان التي تتمتع في الظاهر بالتقدم الحضاري والبهارج الدنيوية تعاني هي الأخرى بشدة، وهذه المعاناة ناتجةٌ عن الجهل والخداع وعن انعدام العدالة، والإسلام يُجيب عن كل ذلك ويضمن الفلاح والسعادة للشعوب، وعلينا نحن المسلمين أن نتعلم هذا الدرس ونتقنه.

طبعاً يجب أن لا ننسى أنه بتوفيق الله وفضله يوجد في العالم اليوم تيار مقاومةٍ مقابل الظلم والعسف، وهو تيارٌ يعتمد على اسم الله والإسلام. ومنطقتنا نموذج لذلك. في منطقتنا اليوم تسود روح الصحوة الإسلامية على الكثير من الشعوب والبلدان. حين تلاحظون أنَّ الأقوياء المستكبرين في العالم وعلى رأسهم أمريكا المجرمة ـ الشيطان الأكبر ـ حساسون تجاه هذه المنطقة فالسبب هو أنَّ هذه المنطقة تشهد بوضوح روح النزوع نحو الإسلام والإقبال على الإسلام والصحوة الإسلامية. إنهم يعارضون صحوة الشعوب الإسلامية وهم يخافون صحوة الشعوب المسلمة. لقد تلقى الاستكبار صفعةً في كلِّ مكان استطاع الإسلام النفوذ فيه إلى قلوب الناس وأرواحهم، ونحن نؤمن بجِد أنَّ الاستكبار سوف يتلقى صفعة من الصحوة الإسلامية في هذه المنطقة مرة أخرى.

وهذا هو ما نقوله لإخوتنا المسلمين وللشعوب المسلمة وللمثقفين في العالم الإسلامي ولعلماء الدين المحترمين في البلدان الإسلامية، قوّوا هذه الحركة الإسلامية ما استطعتم، فسبيل إنقاذ هذه المنطقة هو تقوية الصحوة الإسلامية وتعزيز حركة المقاومة الإسلامية. هذا واجبٌ يقع على عاتق كلِّ أبناء الشعوب المسلمة، وخصوصاً علماء الدين، وخصوصاً المثقفين، والكُتَّاب والشعراء والعلماء والفنانين والنُخب السياسية، إنّه واجب هؤلاء [جميعاً] وهم المخاطبون بخطاب دعوة الرسول الأكرم والهداية الإسلامية. هذه الأرضية متوفرة وظاهرة في العالم الإسلامي اليوم، وخصوصاً في منطقة غرب آسيا هذه [حيث] تتوفر أرضية الصحوة الإسلامية. والكلّ يجب أن يمدّوا يد العون لتثمر هذه الصحوة الإسلامية.

ونصيحتنا لحكّام البلدان الإسلامية هي أن يعودوا إلى ولاية الإسلام وينضووا تحت ولاية الله، فولاية أمريكا وولاية الطاغوت لن تنفعهم شيئاً. وللأسف فإنَّ بعض البلدان الإسلامية في منطقتنا راحوا ينشطون تحت راية ولاية الطاغوت بدل ولاية الله، وأخذوا يتبعون أمريكا بدل اتباع الإسلام ونور القرآن. وأمريكا من منطلق طبعها الاستكباري تُهينهم، وقد سمعتم وسمع الجميع أنَّ رئيس أمريكا الثرثار شبّه الحُكام السعوديين بالبقرة الحلوب، وهذا تحقير، وهذه إهانة؛ إنَّه إهانةٌ لشعب تلك المنطقة ولشعب ذلك البلد. إذا كان آل سعود لا يسوؤهم التعرض للإهانة فليذهبوا للجحيم، [فدعو ذلك] لا يسؤوهم، وليتعرضوا للإهانة، لكنَّ هذه إهانةٌ

لشعوب المنطقة وإهانةٌ للشعوب المسلمة. لماذا يجب أن يواكب اليوم الحُكامُ الإسلاميون أمريكا في حركتين إجراميتين جرحتا الشعور العام في منطقتنا للأسف؛ إحداها الحركة الإجرامية التي تستهدف الفلسطينيين وتستهدف قضية فلسطين المهمة، والثانية الحركة الإجرامية التي تستهدف اليمن؟ وليكونوا على ثقة أنَّ النصر في كلا القضيتين سيكون بالتأكيد حليف الشعب الفلسطيني والشعب اليمني، وسوف تكون الهزيمة من نصيب أمريكا وأتباع أمريكا.

من الواضح أنَّ أمريكا اليوم أضعف في هذه المنطقة مما كانت عليه قبل عشرة أعوام وعشرين عاماً. ومن الواضح أنَّ الكيان الصهيوني الخبيث أضعف اليوم من الماضي. قبل سنوات من الآن انهزم الكيان الصهيوني مقابل حزب الله في لبنان. استطاع هذا الكيانُ المقاومة لثلاثة وثلاثين يوماً ثم انهزم. وبعد عامين استطاع المقاومةَ مقابل الفلسطينيين مدة ٢٢ يوماً ثم انكسر. وبعد سنوات استطاع المقاومةَ مقابل أهالي غزة المظلومين ثمانية أيام ثم انهزم. وفي الأسبوع الماضي استطاعَ المقاومةَ ليومين وانهزم. هذا يدلُّ على ضعف الكيان الصهيوني، إنه ضعفٌ متفاقمٌ ومطرّدٌ يعاني منه الكيان الصهيوني.

الشعوب صاحبة التفكير والهوية والتحفز والمعتمدة والمتوكلة على الله تصمد والله تعالى يُعينها. ﴿ **وَلَو قاتَلَكمُ الَّذينَ كفَروا لَوَلَّوُا الأدبارَ ثُمَّ لا يجِدونَ وَلِيًّا وَلا نَصيرًا * سُنَّةَ اللهِ الَّتي قَد خَلَت مِن قَبلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبديلاً** ﴾[٤]. هذه سُنة الله، إذا صمد المسلمون وقاوموا فسوف ينتصرون على كل مُعدات القوى الطاغوتية والمستكبرة. الشعب اليمني اليوم يعاني أشدّ العذاب الذي تفرضه عليه الحكومة السعودية وأتباعها وأمريكا [التي تساندها]، إنهم [الشعب اليمني] يصبرون ويتحملون ولكن اعلموا أنَّ الشعب اليمني وأنصار الله سوف ينتصرون بالتأكيد، فهم لا يُهزمون، والشعب الفلسطيني لا يُهزم، والسبيل الوحيد هو المقاومة، وصمود الشعوب المسلمة هو الذي فرض التخبّط اليوم على أمريكا وحلفائها فراحوا يلجأون للكلام الفارغ والأعمال المغلوطة، وهذا الصمود سوف يؤتي ثماره.

أيها الإخوة الأعزاء، أيتها الأخوات العزيزات، الشعب الإيراني يقاوم منذ أربعين سنة. لقد كنا في اليوم الأول كالغرسة الضعيفة الرقيقة معرَّضون للضربات والأضرار، واستطعنا ببركة

الاسم المبارك للرسول ﷺ وببركة هداية الإمام الخميني الجليل أن نصمد، وبالطبع قدَّمنا الشهداء وتحملنا الصعاب لكننا صمدنا وقاومنا. والشعب الإيراني وإيران اليوم شجرةٌ عملاقة، ومن الحماقة أن تهدد أمريكا والكيان الصهيوني الشعبَ الإيرانيَ اليوم، لقد كانت الهزيمة لحد الآن حليفة تهديداتهم وتحركاتهم وخبثهم، وسوف يُهزمون بعد الآن أيضاً، وسوف تكتب الهزيمة للحظر أيضاً، وسوف تهزم سياساتهم أيضاً ببركة المقاومة.

والمقاومة بدورها غير ممكنة إلّا في ظل الإيمان بالله والتوكّؤ على الله والاعتماد على الوعد الإلهي، فلقد وعد الله تعالى وعداً مؤكداً: ﴿ **وَلَينصُرَنَّ اللهُ مَن ينصُرُه** ﴾[٥]. لقد وعد الله بالنصر وعداً مؤكداً، وهذا الوعد سوف يتحقق. إذا أصلحنا أنفسنا ونظرنا للوعد الإلهي بحسن ظن وليس بسوء ظن فسوف ننتصر. سوء الظن بالله من فعل الكفار: ﴿ **الظّانّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ عَلَيهِم دائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيهِم وَلَعَنَهُم** ﴾[٦]. من الواضح أنَّ الذين يسيئون الظنَّ بالوعد الإلهي لن يربحوا شيئاً من [هذا] الوعد الإلهي. وقد أثبت الشعب الإيراني حسن ظنه بالوعد الإلهي، فهو يقاوم. وقد تعرضنا لهجوم عسكري، وتعرضنا للحظر، وتعرضنا لتغلغل الجواسيس، وقدَّمنا الشهداء، لكن الشعب الإيراني قاوم كالجبل واستطاع أن يقوّي ويثبت نفسه. وهذه الشجرة الطيبة اليوم؛ شجرة الجمهورية الإسلامية والشعب الإيراني الطيبة، شجرة طيبة « أصلُها ثابِتٌ وَفَرعُها فِي السَّماء »[٧]. لقد تقدمنا يوماً بعد يوم بفضل من الله، وازدادت قوّتنا يوماً بعد يوم، وهذا ما سيكون بعد الآن أيضاً، وهذه هي وصفة حركة المسلمين وتقدم المسلمين في العالم الإسلامي. رحمة الله على إمامنا الخميني الجليل الذي فتح هذا الطريق أمامنا، ورحمة الله على شهدائنا الأبرار فهم الذين قدَّموا أرواحهم في هذا السبيل وحققوا النجاحات للشعب الإيراني، وهذا ما سيكون في المستقبل أيضاً إن شاء الله. إذا عمل الإخوة المسلمون بالوحدة ووحدة الكلمة ووحدة القلوب في كل المنطقة الإسلامية فسوف ينتصرون بفضل من الله على كل هذه المؤامرات إن شاء الله.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش: _____

(١) نهج البلاغة ، الخطبة رقم ٨٩ .
(٢) الكافي ، ج ٣ ، ص ٤٢٣ .
(٣) سورة الأعراف ، شطر من الآية ١٥٧ .
(٤) سورة الفتح ، الآيتان ٢٢ و٢٣ .
(٥) سورة الحج ، شطر من الآية ٤٠ .
(٦) سورة الفتح ، الآية ٦ .
(٧) سورة إبراهيم ، شطر من الآية ٢٤ .

الشيخ أحمد المبلغى
أستاذ الدراسات العليا / حوزة قم المقدّسة
ترجمة: حسن علي مطر الهاشمي

الثابت والمتغـــير
عند الإمام الخميني والعلامة الطباطبائي والشهيد الصدر قدس سرهم
ـ معالم أولية ـ

نشير في مقدمة البحث إلى نقاط ثلاث هي:

أولاً: أهمية البحث:

يحظى بحث الثابت والمتغير في الإسلام بأهمية كبيرة، ففي ظله نستطيع أن نجلّي قدرة الإسلام على إدارة المجتمعات المعقدة، ونثبت بطلان الشبهة، التي ترى عدم قدرة الأحكام الإسلامية على حل مشكلات الإنسانية، أو قلتها مع تزايد احتياجات البشرية وكثرة صعوباتها وأزماتها، فهذا الفكر الخاطئ يرى عدم إمكانية الأحكام الإسلامي الثابتة على تلبية تلك الاحتياجات المتفاقمة، ورفع الصعوبات المتزايدة وإدارة المجتمعات المعقدة.

ثانياً: البعد العلمي

لم يكن بحث الثابت والمتغير في الإسلام بحثاً بسيطاً، يمكن إنجازه بتقديم أفكار آنية وموضوعات براقة، فالبحث في هذا المجال يحتاج من جهة إلى خبرة طويلة بالمجتمعات الإنسانية المعقدة، ومن جهة أخرى يتطلب فهم الإسلام وأهدافه وعمق تعاليمه، إضافة إلى إطلاع كاف على منهج وأسس الاجتهاد، وهذه المعارف شرط للدخول إلى حل المسألة، وحل هذه المسألة يحتاج إلى تنظير، أي ينبغي على من اكتسب المعرفة حتى أصبحت طوع يده أن يقدّم، بشكل جدى وعلى مستوى عال من الحساسية والدقة مع مراعاة جميع الجوانب، نظرية تتوافر على خصلتين، هما:

أ) أن يصور الإسلام وقدراته تصويراً صحيحاً وواضحاً.

ب) أن يكون قادراً على وضع أساس وإطار أفضل للتخطيط والسياسة والتوجهات الإسلامية.

إن ما قلناه دليل على كمال أي نظرية في هذا الخصوص، لكنّ هناك ملاكين إذا تجردت النظرية عن أحدهما أصبحت باطلة من الأساس، وهما:

أولاً: يجب أن لا تخلط النظرية بين مساحات الثابت والمتغير، ولا تخطأ في تحيد مصاديق كل واحد منها.

ثانياً: ينبغي أن لا تبتلي النظرية بتقليد الآراء، فأغلب من يرد هذا البحث ليس له إطلاع على علم الأصول والاجتهاد مما يجعل نظريته فاقدة كلا الملاكين، فلا يضع من ليس له الأهلية قدمه في هذا الوادي السحيق، كما ينبغي على من ينظّر من العلماء أن يراعي الدقة في عمله.

ثالثاً: لكل من الإمام الخميني والعلامة الطباطبائي والشهيد الصدر نظرية في هذا الحقل وهذه الدراسة ستجري، من خلال تقديم خلاصة عن كل واحد منهما، مقارنة بين النظريات الثلاثة، ومن خلالها بين النظريات الثلاثة، ومن خلالها ستتضح كل نظرية أكثر وسنقف على أبعاد جديدة للثابت والمتغير في الإسلام، وسينفتح لنا طريق لرد الشبهات الباطلة.

أما أهم تلك الشبهات فهي:

أ) الأحكام الإسلامية تحول دون التقدم والتنمية.

ب) افتقار الإسلام إلى الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ج) لم يتدخل الإسلام في الأمور الدنيوية بشكل جدي، لأن رسالته الأساسية الاهتمام بالآخرة وما يتعلق بها من أمور.

نظرية العلامة الطباطبائي

يقول العلامة: « قسّم الإسلام أحكامه إلى قسمين متمايزين ومنفصلين بعضهما عن بعض، الأحكام الثابتة والأحكام المتغيرة »[١].

الأحكام الثابتة

هي الأحكام والقوانين التي وضعت على وفق مقتضى حاجات الطبيعة الواحدة والثابتة للإنسان[٢]، فقد سمّى الإسلام تلك الأحكام التي أقامها على أساس طبيعة الإنسان وخصوصياته بالدين والشريعة الأحكام الثابتة ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾[٣].

الأحكام المتغيرة

هي الأحكام المؤقتة (أو تلك التي لُحظ فيها شيء ما)، وتختلف وفق أنماط الحياة المختلفة، فهذا القسم يتماشى مع التقدم التدريجي للمدنية والحضارة وتغيّر المظاهر الاجتماعية ومجيء الأساليب الحديثة وانضمار الأساليب القديمة، وتختلف بحسب مصالح الزمان والمكان المختلفة. وهذه الأحكام باعتبارها من آثار الولاية العامة، منوطة بنبي الإسلام محمد ﷺ والقائمين مقامه والمنصوبين من قبله، وتشخّص وتنفّذ في دائرة الثوابت الدينية[٤]، وطبقاً لمصالح الزمان والمكان ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[٥].

وهناك قسم من هذه الأحكام يعبّر عنه باختيارات الوالي وقد وضع هذا الأصل في الإسلام ليلبّي حاجات الناس المتغيرة في كل عصر وزمان، وفي كل منطقة ومكان، من دون أن تتعرض أحكام الإسلام الثابتة إلى النسخ والبطلان، كما أنها تغطي حاجات المجتمعات الإنسانية. وبناء على الولاية العامة لولي أمر المسلمين في دائرة حكومته، وكونه موجه أفكار المجتمع الإسلامي ومورد قبول الجميع، يمكنه التصرف في محيطه العام، كما يتصرف أي شخص داخل محيطه الخاص[٦].

نظرية الإمام الخميني

أكد الأمام أصلين هما:

أ) تبدّل موضوع الحكم إلى موضوع آخر في ظل العلاقات الحاكمة على أحد الأنظمة. يقول بهذا الخصوص:

« بلحاظ العلاقات الحاكمة في السياسة والاجتماع والاقتصاد في أحد الأنظمة لعل حكماً جديداً يطرأ على مسألة ما، كان حكمها السابق يختلف، بمعنى إن الإحاطة الدقيقة بالعلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية جعلت ذلك الموضوع نفسه بالظاهر موضوعاً جديداً فيستتبعه حكم جديد »[٧].

فتكمن أهمية وحداثة نظرية الإمام في أنها ترى ـ من جهة ـ أن العصر الحاضر عصر سيادة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعقدة، ومن جهة أخرى يطرح هذا الفكر بلحاظ التأثيرات المختلفة للعلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المعقدة، ومن جهة أخرى يطرح هذا الفكر بلحاظ التأثيرات المختلفة للعلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فإنها تؤثر في تغيير موضوعات الأحكام الشرعية بشكل بسيط وواضح، وستتضح الأبعاد الجديدة لهذه النظرية ودورها وأهميتها من خلال تحليل وجهات نظرها.

إن أهم بعد جديد في نظرية الإمام هو أن تبدل الموضوع ـ في ضوئها ـ يمكن أن يتم بشكل خفي وبدون أي ضجيج. أي عندما نرى ظاهر الموضوع ساكناً فإن هناك تحولاً يجري خلف هذا السكون الظاهري فقبل هذه النظرية كان الفقهاء يقبلون ذلك حينما يتحول الموضوع إلى موضوع آخر، وتبرر علامات تدل عليه، كما في استحال الخمر إلى خل أو الميت إلى ملح. أما الإمام، فإن معرفته بحقيقة الوقائع المتأثرة بالعلاقات الاقتصادية والسياسية من جهة، وتعريفه موضوع الحكم الشرعي ومناطه وفلسفته من جهة أخرى، لم يحصر تبدل الموضوع بظهور ما يدل عليه، كما طرح إضافة إلى ذلك فكرة التبدّل الداخلي.

ففي الحقيقة أن ما أحدثه الإمام من تحول في النظرة الأصولية بالنسبة إلى تغيّر الموضوع، حينما طرح فكرة التحول الداخلي للموضوع، هو بقدر ما أحدثه الملا صدرا في النظرة الفلسفية لموضوع الحركة حينما طرح الحركة الجوهرية، أي أن تعيين

مصداق الحركة قبل الملا صدرا كان منوطاً بالتحولات الظاهرية في الكم والكيف، وكذلك كان تعيين مصاديق تبدل الموضوع قبل الإمام ناظراً إلى التغيرات الظاهرية.

وعندما شبّهنا نظرية الإمام بنظرية الحركة الجوهرية لا ندّعي أن جميع الموضوعات، في نظر الإمام، تتبدل بشكل قهري في ظل العلاقات الاقتصادية والسياسية، فهذه دعوى لا أساس لها، لأن بعض الموضوعات، مثل الموضوعات العبادية وكثير من الموضوعات الأخلاقية ثابتة على مدى الزمان، فالمقصود من هذا التشبيه، هو أن التحولات الظاهرية كانت هي الملاك قبل نظرية الإمام.

ولسنا بصدد إثبات صحة نظرية الإمام، لأن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل، بل نحن نريد هنا أجراء مقارنة بين هذه النظرية ونظريات العلامة، والشهيد الصدر.

ب) الولاية المطلقة للفقيه:

يقول الإمام هنا:

إن الحكومة المتفرعة عن ولاية رسول الله ﷺ المطلقة، هي أحد الأحكام الأولية للإسلام، ومقدّمة على جميع الأحكام الفرعية... فالحكومة قادرة على منع الحج، الذي هو من الفرائض الإلهية المهمة، مؤقتاً، إذا كان في ذلك صلاح البلد الإسلامي[٨].

نظرية الشهيد الصدر

خلاصة هذه النظرية هي:

أ) ترك الإسلام، في نظامه التشريعي، منطقة خالية من أي حكم إلزامي (وجوب أو حرمة)[٩]، تسمى منطقة الفراغ.

ب) لا تدل منطقة الفراغ على نقص في الصور التشريعية، أو إهمال من الشريعة لبعض الوقائع والأحداث[١٠]، بل تعبّر عن استيعاب الصورة، وقدرة الشريعة على مواكبة العصور المختلفة[١١].

ج) وضع الإسلام منطقة الفراغ (الخالية من الحكم) تحت تصرف ولي الأمر ليملأها على أساس مصالح ومقتضيات الزمان، وفي ضوء أهداف ومقاصد الشريعة[١٢].

المقارنة بين النظريات

تتطلب معرفة موارد الاشتراك والافتراق،

ونقاط امتياز وقوة كل واحدة من النظريات، المقارنة بينها، وسنجري هذه المقارنة في ثلاثة محاور:

أولاً: مرونة التشريع الإسلامي:

لاشك أن النظام الصالح للتطبيق في جميع الظروف نظام مرن، بشكل يتمكن من تقديم حلول للازمات والتحولات والاحتياجات المتجددة مع المحافظة على هويته، ووجوده، وأهدافه وأصوله. وبهذا يتضح، ليس المراد من المرونة هنا خضوع النظام للواقع، لأن هذه المرونة تساوق العدم، ولا تمنح الاستمرارية للحياة ودورها البنّاء.

ومن هنا فأن جميع النظريات التي أثبتت خلود الإسلام وقدرته على التطبيق في مختلف الظروف تعتبر مرونة نظام التشريع أحد متبنياتها المسلّمة. ومن هذا المنطلق قالوا بوجود أحكام ثابتة ومتغيرة، أو تبدّل الموضوع في ظل الزمان والمكان، أو دور ولي الأمر في وجود التحولات.

ثانياً: طبيعة المرونة في التشريع

إن إبداء الرأي حول هذا الموضوع يعدّ من أكثر الموضوعات علمية وحساسية في بحث الثابت والمتغير في الإسلام، فالنظريات هنا مختلفة، لكنها سلّمت بدور ولي الأمر، الذي بنوا عليه نظرياتهم. وسنبين من خلال تحليل هذه النظريات (إضافة إلى نظرية أخرى سنذكرها أثناء البحث) عدة نقاط حول تجديد الآلية في هذا الخصوص:

الرأي الأول: ترك التشريع من قبل الشارع وعدم تدخله في دائرة الأمور الدنيوية بعد أن جعلها في عهدة العلم والتجربة.

وهذا الرأي متأثر بالحلول الغربية التي فصلت بين الدين والسياسة والاقتصاد، فمن يتبنى هذا الفكر يعتمد في طرحه المباني الغربية.

الرأي الثاني: ترك التشريع في منطقة خاصة مع جعل الولاية فيها.

وهذا الرأي يستفاد من نظريتي الشهيد الصدر والعلامة الطباطبائي، اللتين ذكرنا خلاصة عنهما، إلا أن كلام الشهيد الصدر أوضح دلالة في هذا المجال.

أما أهم نقاط الاختلاف بينهما فهو أن منطقة الفراغ عند الشهيد الصدر هي منطقة

المباحات في الإسلام، أما هذه المنطقة في رأي العلامة الطباطبائي فهي حاجات الإنسان غير الفطرية.

مقارنة بين الرأي الأول والثاني

أدناه نقاط الاختلاف بين الرأي الأول (المتأثر بالفكر الغربي)، والرأي الثاني (رأيي العلامة والشهيد الصدر):

١ ـ إن المساحة التي أباح الشارع حكمها، في ضوء الرأي الأول، بمقدار ما يواجه الناس ـ أو أعظمهم ـ من توسع، بينما في ضوء الرأي الثاني لم يبح سوى حكم منطقة المباحات أو الحاجات غير الفطرية، وقد صرح الشهيد الصدر أن الحكم المباح كان حكماً إلزامياً، وإنْ الحكم المباح كان حكماً إلزامياً، وإنْ اعتبر الشارع حكم هذه المنطقة غير إلزامي، ولهذا أسمى هذه المنطقة منطقة المباحات[١٣].

٢ ـ يعلل الرأي الأول ترك التشريع بنقص في رسالة الإسلام، بينما على الرأي الثاني إن هناك تركاً وتداركاً، إذا ترك الشارع حكماً في منطقة ما يتداركه بشكل ما من جهة أخرى، وبهذه الصورة يُتمم التشريع بحكم آخر، وهي الأحكام الحكومية، وهذا الترك والتدارك جعله الشارع من أجل مرونة هيكل التشريع الإسلامي، ومن هنا، فإن هذا الرأي يرى كمال الرسالة الإسلامية.

٣ ـ بما أن الحكومة أمر دنيوي فهي خارجة ـ حسب الرأي الأول ـ عن دائرة تشريع الشارع، وتناط مهمة تعيين كيفية الحكم وبنيته إلى العلم والتجربة. أما على الرأي الثاني فإن الحكومة داخلة في منطقة التشريع، وخارجة عن منطقة الفراغ، أي أن الحكومة ليست في دائرة المباحات ولا في دائرة الحاجات غير الفطرية، ومن هنا فالشارع يتدخل بجد لتحديد نوع وبنية وظروف الحكومة.

ووجهة النظر هذه توضح فلسفة تشكيل الحكومة، وتبين أن الفراغ الناشئ من ترك الحكم، سيملأ بواسطتها بشكل يتناسب مع نظام التشريع.

الرأي الثالث: جعل الولاية في ترك أحد الأحكام مؤقتاً مع تداركه على أساس المصلحة الإسلامية.

وهذا الرأي يستفاد من القسم الثاني من نظرية الإمام، وعلى أساسه لم نفترض وجود مساحة لم يشرّع فيها الشارع المقدس

حكماً، وهذه تعتبر نقطة قوة لنظرية الإمام، لأن افتراض ذلك لا ينسجم وما ورد في الروايات.

فالمستفاد من الروايات « ما من واقعة إلا ولله فيها حكم ».

وما طرح في ضوء نظرية الإمام هو أن يمنع ولي الأمر الحكم لا أن يتخلّى الشارع عن تشريع الحكم.

ومن الممكن أن تواجه مسألة منع ولي الأمر الحكم إشكالاً آخر، وهو منافاته لبعض منافاته لبعض الروايات، مثل « حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة ».

وجوب هذا الإشكال يتضح من خلال بيان ثلاثة نقاط:

أولاً: أن نفترض أن المستفاد من روايات ولاية الفقيه ثبوت الحق للولي الفقيه في منع أحد الأحكام على أساس المصلحة الإسلامية.

ثانياً: المفروض أن ولاية الفقيه مقدمة على الأحكام الفرعية (مثل الحج)، ومن الواضح أن التقدم هنا يعني أن موضوع هذا الحكم عند إعمال الولاية ينتفي بصورة مؤقتة.

ثالثاً: من الواضح أن الحكم يتبع الموضوع، فإذا انتفى الموضوع انتفى الحكم لكن ـ كما هو المعروف ـ لا يسقط اعتباره عند انتفائه، لأن عدم إتيانه يغاير عدم اعتباره، فلو عاد الموضوع فعلياً مرة أخرى يصبح الحكم صالحاً للتنفيذ (أي فعلياً).

وعلى أساس ما تقدم يصبح الفقيه قادراً على منع أحد الأحكام الفرعية كما ذلت الأدلة على ذلك.

(وينبغي التنبيه، إلى أننا لا نحتاج هنا إلى ذكر الأدلة والبحث في دلالتها، لأن الموضوع يدور حول كيفية تصور الإمام لمرونة التشريع، وأنه تصور كامل).

ثم إن منع الأحكام لا يتنافى وأبدية الأحكام الإلهية، لأن إلغاء الموضوع يصبح من باب السالبة بانتفاء الموضوع، لا من باب عدم اعتباره، وما جاء في الحديث « حلال محمد حلال... » المذكور آنفاً له دلالة على استمرار الاعتبار.

الرأي الرابع: تكثّر الموضوعات

يستفاد هذا الرأي من القسم الأول من نظرية الإمام، أي تغيّر الموضوع في ظل

الظروف الزمانية والمكانية، لأن النتيجة التي نخلص إليها عندما نفترض تغيّر موضوع في ظل الظروف الزمانية والمكانية، عدم محدودية الموضوعات في نظر الشارع، بل أن موضوعات مستقلة ستحصل تبعاً لاختلاف الظروف، ولكل موضوع حكم يعبّر عن الواقع الشرعي ولحد الآن لا توجد نظرية بهذه المتانة، وذلك:

أ) لا يرد عليها أيّ إشكال، ولا يلزم منها الاعتقاد بوجود مساحة لم يشرّع فيها الشارع المقدس حكماً حتى يقال في الروايات «ما من واقعة إلا ولله فيها حكم»، بل يلزم أن نقبل أن الشارع في مقام التشريع كان فعالاً جداً، وقد شرّع أحكاماً بقدر الموضوعات المتكثرّة في ظل الظروف المختلفة، كما لا يلزم من هذه النظرية الاعتقاد بترك الشارع لقسم من الأحكام ولا تخدش رواية «حلال محمد...»، لأنه ـ كما تقدم ـ انتفاء الحكم بسبب انتفاء الموضوع، وهذا لا يعني أنه غير معتبر، فكثير من الأحكام لا تطبّق لعدم تحقق موضوعها، وبعبارة أخرى، أن نظرية الإمام ناظرة، إلى تحولات الموضوع وليس الحكم.

ب) لما واجهت نظريتا العلامة الطباطبائي والشهيد الصدر والإشكال الأول، عجزت عن حل جميع الإشكالات، فمثلاً: في حالات التطور الحقيقي في دائرة غير المباحات، كيف يمكن لنظرية الشهيد الصدر أن تحل ذلك (علماً أنها تعتمد على تدخل ولي الأمر في دائرة المباحات).

ثالثاً: كيف تبلور النظرية: ـــــــــ

لاستيعاب الموضوع ينبغي ملاحظة:

١ـ السؤال الذي يواجهه المنظّر ويسعى من خلال الإجابة عنه صياغة نظريته.

فمعرفة السؤال الذي يواجهه المنظّر يكشف عن مدى خبرته بهذه الدنيا وبتحولات وتعقيدات المجتمعات الإنسانية، فكلما كان التلقي أصح وأعمق كان التنظير أقوى.

٢ـ المنهج الذي يعتمده المنظّر لحل مشاكل الثابت والمتغير في الإسلام.

فصحة وعمق وتناسب المنهج المعتمد في بحث أو تنظير ما، يؤثر في النتائج التي يفضي إليها البحث.

أما السؤال الأول:

فقد طرح العلامة، في بحثه حول الثابت

والمتغير في الإسلام، الأسئلة التالية:

أ) هل يلبي الإسلام حاجات العصر؟

طرح العلامة هذا السؤال في إحدى مقالاته حول هذا البحث[١٤]، حيث كان يفترض فيه تجدد الحاجات في كل عصر.

ب) إذا كان الإسلام قد وضع سلسلة من العقائد والأخلاق والأحكام الثابتة التي لا تقبل التغيير، وقد كلّف المجتمعات الإنسانية بها، فكيف يمكن تطبيقها على حاجات العصر الإنسانية المختلفة؟[١٥].

وهذا السؤال قد اعتمد كذلك على عنصر حاجات العصور المختلفة.

ج) هل يريد الإسلام أن تبقى المجتمعات الإنسانية على حالة ثابتة، على مر الزمان، ويغلق جميع منافذ التقدم نحو المدنية، ويختم على نشاطات الإنسانية المتزايدة؟

وكيف نكسب المعركة مع الطبيعة المتحركة والنظام الطبيعي الذي يحكم عالم البشرية؟[١٦]

ففي هذا السؤال اعتمد العلامة على عنصر الطبيعة المتحركة، الذي هو منشأ التقدم نحو المدنية والنشاط اليومي المتزايد.

وفي هذا السؤال بالذات كان ينظر بجد وبشكل أساسي إلى الزمان وتطوراته. غير أن مبناه في البحث اعتمد ـ كما هو واضح من خلال بحثوه ونظرياته حول الثابت والمتغير في الإسلام ـ على عنصر حاجات العصور الذي تطرق له في السؤال الأول، لأنه اعتبر خلال تقسيمه الحاجات غير الفطرية حاجات متغيرة. وضرورة القانون ناشئة عن هذا الاحتياج، والخلاصة، فإن القوانين تقسّم كذلك إلى ثابتة ومتغيرة[١٧].

أما السؤال المطروح من قبل الشهيد الصدر فهو:

كيف يجعل الإسلام أصوله ومبادئه في التشريع (النظام السياسي أو الاقتصادي) ملائمة لجميع العصور؟ في حال أن البشرية تسعى لإيجاد حلول جديدة للتغلب على ما يواجهها من مشكلات[١٨]

الشهيد الصدر طرح هنا عدة أمور:

أولاً: تواجه البشرية في كل عصر مشكلات جديدة.

ثانياً: هذه المشكلات تحتاج إلى حلول جديدة.

ثالثاً: كيف ينظم الإسلام نظامه الاقتصادي (أو السياسي) ليتغلب على

مشاكل العصر بواسطة الحلول الإسلامية ؟

لقد طرح الشهيد الصدر في معرف رده على هذا السؤال عنصرين أساسيين هما :

أ) بيّن الإسلام بجميع أبعاده وأهدافه ومقاصده .

ب) أعطى لولي الأمر حق التدخل والتصرف ، لكي يضع الحلول اللازمة لكل عصر من خلال التعرف على تلك الأهداف والمقاصد .

وأما ما يستفاد من آراء الإمام فهي الأمور التالية :

١ــ يرى العالم عالم نظم وعلاقات اقتصادية وسياسية . . .

٢ــ إن هذه العلاقات علاقات معقدة وحاسمة .

وفي الحقيقة أن الإمام طرح هذا السؤال : كيف يدير الإسلام العلاقات الاقتصادية والسياسية المعقدة في العصر الحاضر ؟

مقارنة بين الأسئلة

عندما نلاحظ النقاط أدناه نجد أن السؤال الذي يطرحه الإمام خلال عملية التنظير بخصوص الثابت والمتغير أكثر تناسباً وتجربة ودقة .

١ـ عندما أطل الإمام على عالم اليوم نظر إلى علل الأشياء لا إلى معلولاتها .

فعندما نقول بضرورة تجديد الحاجات ـ كما عند العلامة الطباطبائي ـ أو تحديد المشكلات الجديدة ـ كما عند الشهيد الصدر ــ فعلّة كلا الظاهرتين وجود العلاقات الاقتصادية والسياسية المعقدة . وواضح إذا لم تكتشف علة التحولات لا يمكن حل مشكلة الثابت والمتغير .

كما يمكن أن نستفيد مما قاله العلامة والشهيد الصدر في بحث العلاقات الاقتصادية والسياسية ، وذلك أن تقسم نتائج العلاقات في ضوء الحاجات والمشاكل الجديدة ، التي كذرها العلامة والشهيد الصدر ، لمعرفتها وإيجاد المصاديق لها ، وهذه خطوة كبرى للتعرف على تلك الروابط بشكل أكبر . وقد أشار الإمام إلى ضرورة إجراء بحث حول العلاقات الاقتصادية والسياسية بدقة[١٩] .

وتجدر الإشارة إلى أن التعمق في بحث

الثابت والمتغير يحتاج إلى هذه الخطوة، ولاسيما أن ما قاله هذان العلمان يتضمن بحوثاً أخرى. فمثلاً، طرح العلامة بعد بحث الحاجات موضوعاً جاء فيه:

يجب أن نقول بوجود اختلاف بين الحاجات الواقعية والحاجات غير الواقعية، ثم أضاف: ليس مراد الأكثرية تشخيص الحاجات الواقعية، كما أن ميولهم لا تطابق الواقع دائماً[٢٠].

ومن الواضح أن هذه البحوث مركزية ومهمة جداً وتمتد إلى بحوث أخرى كالديمقراطية، والاتجاهات التي ترجح الحاجات غير الضرورة.

وعلى أي حال، لو اعتبرنا لنظرية الإمام ملاكاً، فينبغي أن نرى في ضوء هذه النظرية هل أن الحاجات التي تفرزها العلاقات الحاكمة على العالم حاجات واقعية أم لا؟

وكذلك صحيح ما طرحه السيد الشهيد، وهو: أن توضع الحلول الإسلامية في ضوء الأهداف والأبعاد الإسلامية، لكن ينبغي الالتفات إلى أن مراد الإمام من الأهداف والأبعاد شيء آخر، وهو أن تلك الأهداف تصبح مناطات شرعية، لكن الموضوع يفقد مناطه في ظل الظروف الزمانية والمكانية ويحصل له مناط آخر، وفي النتيجة يصبح موضوعاً آخر.

٢ـ إن رأي الإمام يتطابق مع الرؤى التي صارت ظواهر في العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. لأن الكثير من هذه الظواهر يمكن معرفتها من خلال دورها في العلاقات الاجتماعية وبعض التنبؤات التي قامت في هذه العلوم على هذا الأساس تنبؤات أوجدت ارتباطاً بين عالم الاقتصاد والسياسة.

منهج البحث

لقد اعتمد العلامة الطباطبائي في بحثه الثابت والمتغير المنهج الفلسفي، حيث اعتبر ملاك تحديد الثابت طبيعي الإنسان فيقول: الأحكام الثابتة في الأحكام التي لوحظ في وضعها واقع الإنسان الطبيعي.

أما الملاك في تحديد موارد التغير فهو ما يلحق بطبيعة الإنسان، يقول: عندما نلاحظ حياة الإنسان الطبيعية نجد بناءه الخاص ثابتاً بنسق واحد، وأما ملحقاته الزمانية والمكانية فمرتبطة بما تواجهه من حالات التغيّر والتكامل، وبعد أن تتصارع مع أسباب

التحـولات والظـروف الزمانيـة والمكانيـة المختلفة يتغير شكلها بالتدريج، وتتلاءم مع محيطهـا الجديـد، وهـذا فـي الأوضـاع يستوجب تغير الأحكام.

الأصولي في بحثه لأنه تكلم عن المباحات، ومن هنا فإن نظريته من بعض الجهات قد تشابكت فيها الأبحاث أكثر من نظرية العلامة.

أمـا السـيد الشـهيد فقـد اعتمـد المـنهج

ت	النظرية	طريقة الحل	مساحة الثابت	مساحة المتغير	منهج البحث
١	نظرية العلامة الطباطبائي	إن يترك الشارع التشريع في منطقة وتداركها بإعطاء ولي الأمر حق التدخل	حاجات الإنسان الفطرية	الحاجات غير الفطرية	شبه فلسفي
٢	نظرية الشهيد الصدر	ــ	دائرة غير المباحات	دائرة المباحات	أصولي
٣	النظرية المتأثرة بالفكر الغربي	ترك التشريع في منطقة مع عدم التدارك	أمور الآخرة	الأمور الدنيوية للإنسان والقسم الأعظم منها	كلامي (الكلام الجديد المتأثر بالفكر الغربي)
٤	نظرية الإمام الخميني	١ـ تكثُّر الموضوعات ٢ـ الولاية المطلقة للفقيه	جميع الأحكام	الموضوعات	أصولي

ويمكـن أن نقـول أن مـنهج الإمـام كـان أصـولياً مئـة بالمئـة. أي اعتمـد فـي نظريتـه على فكر له عمقه فـي أصـول مدرسـة أهـل البيت، وهو مسألة الموضوع الحكم[٢١].

ومن هنا فإن بحث الثابت والمتغير فـي الإسلام بحث اجتهادي، والمنهج الأصـولي في بحث يضفي عليه متانة أكبر.

الهوامش

(١) الطباطبائي، العلامة محمد حسين، ملامح من الإسلام (فرازهايي از إسلام)، جمع السيد مهدي ايت الهي، طهران، جهان آرا، ص٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٥) النساء: ٥٩.

(٦) ملامح من الإسلام، مصدر سابق، ص٧٦ـ٧٧.

(٧) الخميني، الإمام روح الله، صحيفة النور، قم، مؤسسة نشر وتنظيم تراث الإمام الخميني، ج٢١، ص٩٨.

(٨) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٠.

(٩) الصدر، الشهيد محمد باقر، اقتصادنا، بيروت، دار التعارف، ط١٩٨٠، ص٧٢١.

(١٠) المصدر نفسه، ص٧٢٥.

(١١) المصدر نفسه، ص٧٢٢.

(١٢) المصدر نفسه، ص٧٢٦.

(١٣) المصدر نفسه، ص٧٢٦.

(١٤) ملامح من الإسلام، مصدر سابق، ص٤٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص٥٦.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) المصدر نفسه، ص٦٣.

(١٨) اقتصادنا، مصدر سابق، ص٧٢٢ و٧٢٣.

(١٩) صحيفة النور، مصدر سابق، ج٢١، ص٩٨.

(٢٠) ملامح من الإسلام، مصدر سابق، ص٦٣.

(٢١) مقال تحت عنوان « نظرية الإمام الخميني حول دور الزمان والمكان في الاجتهاد »، المنشور في ج٢ من مجموعة مقالات مؤتمر المباني الفقهية للإمام الخميني.

عمار ياسر العامري
باحث في الفكر الاسلامي

فتوى الجهاد الكفائي للإمام السيستاني دام ظله
قراءة في الأبعاد السياسية والاجتماعية

المقدمة

تعتبر زعامة المؤسسة الدينية الشيعية (المرجعية الدينية العليا في النجف الاشرف) الأقوى قراراً بين الزعامات الدينية في العالم الإسلامي والديانات الأخرى، وأصوبها رأياً، وأكثرها استقلالاً، طيلة مئات السنين الماضية، منذ أن وطئ النجف الاشرف الشيخ الطوسي عام ٤٤٨ ه/ ١٠٢٧ م بعد الإحداث الطائفية في بغداد.

وخلال تلك السنين الطوال؛ بقيت زعامة مؤسسة الدينية بعيدة عن التجاذبات السياسية والتأثيرات الخارجية، لسببين مهمين معاً هما: الأول؛ إن اختيار الزعيم أو المرجع الأعلى للحوزة العلمية لا يكون بقرار حكومي أو اختياري من عامة الناس، إنما مسؤولية الاختيار مناطا بتوجيه الإمام الحجة ابن الحسن المنتظر عليه السلام كون من يتم اختياره يمثل نائب الإمام المعصوم عليه السلام في زمن الغيبة الكبرى، كما ورد في توقيعه الشريف: (وأما الحوادث الواقعة

فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله)، وهذا دليل جازم على إن لا تصدر فتوى بمثابة (قرار مصيري) ألا بتأييده كونه صاحب الأمر والزمان عجل الله فرجه.

أما السبب الأخر الذي يمنحها الاستقلالية، هو الاعتماد في مواردها المالية على (مبالغ الخمس) حصة الإمام المعصوم عليه السلام في أموال المسلمين، لذا فإنها ليس بحاجة لمساعدة من حكومة أو جماعة ما، يمكن أن تقدم لها ذلك لتصبح أسيرة لها.

وعلى إي حال فأن المرجعية الدينية العليا؛ تعتبر زعامة الأمة الإسلامية عامة، والطائفة الشيعية خاصة، وتتمتع باتخاذ القرار المؤثر روحياً وعقائدياً في نفوس المسلمين، وبالخصوص أتباع أهل البيت عليهم السلام في الأمور الدينية والدنيوية.

وبعدما شهدت منطقة الشرق الأوسط والعراق تحديداً ظروفاً استثنائية بعد الحرب العالمية الأولى ألقت بظلالها على الواقع الاجتماعي والسياسي، ولم يكن حلاً سوى الرجوع للمرجعية الدينية، كونها صاحبة القرار الفصل وفصل الخطاب في ذلك، لاسيما بعد التدخلات الأجنبية نتيجة الغزو العسكري تارة، والفكري تارة أخرى، لذا نجد إن مراجع الدين العظام يتصدون لذلك بكل قوة وحزم.

حتى تقلد سماحة المرجع الديني الأعلى الأمام السيد علي الحسيني السيستاني زعامة الحوزة العلمية في النجف الاشرف عام ١٩٩٣ م/١٤١٣ هـ، حيث مرت مرجعيته بمراحل مهمة متعددة، الأولى؛ مسؤوليته بالمحافظة على الحوزة العلمية بالنجف الاشرف من سطوة الدكتاتور الظالم بعد وفاة السيد أَبي القاسم الخوئي، والمهمة الثانية؛ مواكبة التغييرات السياسية التي حدثت بعد عام ٢٠٠٣ إذ إن رؤيته وحكمته تمثل عين الصواب لموقع القيادة، والذي كان خير من يمثلها باتخاذ الموقف المناسب لمعالجة التحديات الخطيرة اتجاه أبناء الشعب العراقي، وكان التحدي الأول: دعوته للعراقيين كافة للمشاركة بالاستفتاء على الدستور الدائم عام ٢٠٠٥ بعدم رفض سماحته الملاءات الأمريكية بكتابة دستور بالنيابة عن العراقيين، ولاختيار النظام السياسي الملائم لطبيعة التنوع الاجتماعي والمذهبي والقومي في البلاد، والتحدي

الثاني: يكمن في إخماده لنار الطائفية بعد تعرض مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام عام ٢٠٠٦ للتفجير من قبل الزمر التكفيرية، ودعوته أتباع أهل البيت عليهم السلام للتحلي بالصبر وضبط النفس، لتفويت الفرصة على أعداء الوطن والمذهب.

أما المهمة الثالثة؛ وتمثل رأس الحكمة وقوة الإرادة، عندما تعرض العراق لاجتياح العصابات الإرهابية لمدينة الموصل في ١٠ حزيران ٢٠١٤، بادر سماحته إلى إصدار فتواه (بالجهاد الكفائي) والتي لم تصدر مثيلتها في العالم الإسلامي منذ مائة عام، ورغم التشابه بنوع الفتوى، ألا أن الظروف والتداعيات تختلف كلياً بينهما، ما جعل البصائر تشير إلى إن هناك بُعد غيبي وتدخل فيضي من قبل الإمام المهدي المنتظر"عج" في إصدارها، لان فيها إراقة لدماء المسلمين، وحفظ لموطن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وصيانة للمقدسات، وهذا ما جعلها في أعلى درجات القداسة، لهذا فأن للفتوى المباركة إبعاد سياسية واجتماعية متعددة لا يمكن إجمالها في نقاش محدد أو اختصارها في موضوع معين.

أولاً: معنى الجهاد لغوياً

الجهاد؛ مأخوذ من الجهد - بالفتح - بمعنى التعب والمشقة أو من الجهد - بالضم - بمعنى الطاقة.[1]

معنى الجهاد اصطلاحاً

الجهاد؛ المراد هو القتال لإعلاء كلمة الإسلام وإقامة شعائر الإيمان، أذا بغت أي طائفة على طائفة من المسلمين، فإنه يجب على سائر المسلمين أن يقوموا بالإصلاح بينهما، فإن ظلت الباغية على بغيها قاتلوها حتى تفئ إلى أمر الله[2]، قال الله تعالى: **﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾**[3].

معنى الجهاد الكفائي

الجهاد الكفائي؛ بمعنى إن من يتصدى للعدو، وكانت فيه الكفاية بحيث يتحقق الغرض، وهو حفظ البلاد وشعبه ومقدساته يسقط عن الباقين، وتوضيح ذلك بمثال؛ أنه إذا تصدى عشرة آلاف وتحقق الغرض منهم سقط عن الباقين، فإن لم يتحقق وجب على

البقية وهكذا[٤].

ومن هنا فإن على المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح والمقاتلة دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم، عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية لتحقيق هذا الغرض المقدس.

الأسباب الموجبة لإصدار الفتاوى

أن المرجعية الدينية العليا، تتأنى كثيراً وتتردد طويلاً قبل إصدار أي فتوى خاصة إذا كانت في باب الجهاد، لأن وراءها سيكون قتل للأنفس وسفك للدماء وتدمير للممتلكات، وكلها من ضروريات الحياة التي لا يمكن التفريط من خلالها بأحوال المجتمع، ولكن التحديات والظروف قد تضطرها إلى إعلان الجهاد كحل أخير لمواجهة العدو المتربص بأرض المسلمين ومقدساتهم.

لذا فأن فتوى السيد كاظم اليزدي[٥] ضد الاحتلال البريطاني، كانت فتوى بالجهاد الكفائي (الدفاعي) لمواجهة القوات البريطانية الغازية، التي بدأت احتلالها العراق عام ١٩١٤ عندما نزلت قواتها في مدينة الفاو جنوبي العراق، وقد استخدم السيد اليزدي في فتواه؛ عبارات (وجوب الدفاع) و(يجب عليكم الدفاع) وذلك للتميز بين (الجهاد الهجومي أو الابتدائي) وهو الجهاد الذي انطلقت من خلاله الفتوحات الإسلامية ودعوة المشركين للإسلام، وله شروطه وظروفه خاصة، وبين (الجهاد الدفاعي) وهو ضرورة التصدي لمواجهة العدو والاحتلال[٦].

وهناك نوعان من الجهاد الدفاعي هما: (الجهاد الكفائي) أي يجب تصدي عدد من المسلمين بما يكفي لصد أي العدوان عليهم، وإذا لم يكف العدد المتصدي يجب تطوع عدد آخر حتى يتم صد ذلك العدوان، والثاني؛ هو (الجهاد العيني) وهو (فرض عين) على الجميع بلا استثناء، وأن يتركوا أعمالهم ومصالحهم ويلتحقوا بالقوات المتطوعة، وهذا النوع لم يجر أي مرجع ديني إعلانه لحد الآن، فحتى الإمام الخميني لم يعلن الجهاد العيني، إنما اسماه (بالدفاع المقدس) وهو الجهاد الكفائي بعد احتلال المدن الإيرانية إبان الحرب التي فرضها صدام عليهم.

فتاوى أثرت في التاريخ المعاصر

شهد التاريخ المعاصر إصدار العديد من الفتاوى، التي تركت آثاراً واضحة في الحياة المسلمين، والتي كان لها بُعد جهادي أو سياسي، وقد أثرت في ميادين الصراع بين قوى الخير وقوى الظلام.

منها؛ فتوى السيد كاظم اليزدي، بعد نزول الجيوش الانكليزية الغازية جهة البصرة، للسيطرة على ثروات وخيرات ومقدرات البلاد، وبعد أن أدرك العراقيون الخطر المحدق، وتنبؤهم بما سيحيق بهم من الكوارث والويلات، ابرق وجهاء البصرة إلى المراجع وعلماء الدين، يطلبون فيها منهم أن ينهضوا بالأمر ويعلنوا الجهاد المقدس، فتليت هذه البرقيات بالمساجد والأسواق والعتبات المقدسة، فعطلت الإعمال وأغلقت الأسواق، وتجمعت الناس في أماكن أعمالهم وميادين تجمعهم، بانتظار رأي مراجع الدين بهذا الخصوص، فصعد السيد اليزدي "وكان مرجع التقليد آنذاك" المنبر في الصحن الحيدري، في ٢٧ محرم الحرام ١٣٣٣هـ/كانون الأول ١٩١٤ م، وخطب بالناس وحثهم فيها على الدفاع عن البلاد الإسلامية، وأجب على الغني العاجز بدناً، تجهيز من ماله الفقير القوي، وكان لكلامه صدى واسع في أوساط المسلمين جميعاً، الذين يعيشون في الدولة العثمانية أو في خارجها، المشاركة بالجهاد المقدس الذي استطاع أن يكسب تأييد العراقيين من مختلف الشرائح الاجتماعية العشائرية والمدنية[٧].

وقد رأى علماء النجف وكربلاء وبغداد والكاظمية، أن تعضيد الدولة العثمانية لابد منه، فأيدوا فتوى الجهاد في الدفاع عن المسلمين، ولاسيما عندما استغاث أهل البصرة بعلماء المذهب، فأبرقوا لهم من مختلف الأطراف يطلبون النفير العام، وقد وقفت بعض القوى الدينية والسياسية والاجتماعية، العربية والكُردية وغيرها، إلى جانب الفتوى المقدسة والتعاون مع الدولة العثمانية المسلمة، ودعم قواتها في العراق ضد القوات البريطانية الغازية غير المسلمة[٨].

وقد اعتبرت الفتوى المباركة؛ مقاومة احتلال البريطانيين للعراق، واجب شرعي على اعتبار أنه احتلال أجنبي ومستعمر كافر في آن واحد؛ تجب محاربته لدواعٍ دينية ووطنية، ولم يكن العرب من أبناء الوسط

والجنوب وحدهم من شاركوا في معارك البصرة، إنما شارك معهم المتطوعون من الكُرد أيضاً في معارك الجهاد ضد الإنكليز، كما لعبت شخصيات بغداد دوراً ملموساً، في التعبئة إلى جانب الفتوى من منطلق ديني ووطني واضح[٩].

وبعد احتلال العراق من قبل القوات البريطانية، حاولت تأسيس حكم بريطاني مباشر ولكنها اضطرت إلى إجراء استفتاء شكلي حول طبيعة الدولة الجديدة، وشكل النظام السياسي، واختيار شخصياته، وحاول الكولونيل أرنولد ولسن نائب الحاكم المدني العام في العراق، القيام بتزييف إرادة العراقيين، وأصدر تعليماته إلى ضباط الارتباط في المدن العراقية، وأبلغهم بعدم قبول غير الأجوبة المرضية والملائمة للإنكليز، حيث رفض أغلب الشعب العراقي الهيمنة البريطانية، وتصدى رجال الدين ورؤساء القبائل والسياسيون لذلك[١٠].

وتعزيزاً لهذا الموقف الشعبي والوطني، أصدر الشيخ محمد تقي الشيرازي[١١]، فتوى أخرى بصدد الاستفتاء، تؤكد على عدم اختيار غير المسلم حيث تضمنت: (ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين) وكان للفتوى تأثير فعال، حيث التف جميع العراقيين حول موقف المرجعية العليا الرافض للحكم البريطاني المباشر[١٢].

وبعدما اخذ المتأثرون بالأفكار الماركسية التمادي على أبناء المجتمع الإسلامي، بتجاوزهم كل القيم والأعراف المجتمعية والطقوس الإسلامية.

اصدر الإمام محسن الحكيم[١٣] الفتوى المشهورة التي حرم فيها (الأفكار الشيوعية) والتي نصت على: (لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فان ذلك كفر والحاد أو ـ الترويج للكفر والحاد ـ أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك وزادكم إيمانا وتسليماً) وقد خص الإمام الحكيم بفتواه الفكر المنحرف فقط، واستبعد المنتمين لكي لا تستباح نتيجة الفتوى دماؤهم، وإن من أسباب إصدار هذه الفتوى المباركة، الممارسات الفوضوية والأفعال المشينة التي ينفذها أتباع الحزب الشيوعي في معظم المدن العراقية، وإصدار قانون الأحوال الشخصية الذي استخدمه الحزب الشيوعي ذريعة لمخالفة الأحكام الإسلامية، فضلاً عن السماح بخروج بعض الفتيات

المتحضرات خاصة في مدن كربلاء والنجف عن القيم والأعراف الاجتماعية تأثراً بالأفكار الشيوعية[١٤].

داعش أصولها وزعامتها

تطلق الجماعات التكفيرية على نفسها اسم؛ "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، والذي تم اختصاره بجمع الأحرف الأولى من كلماته لتصبح "داعش"؛ وهو تنظيم مسلح إرهابي يتبنى الفكر السلفي التكفيري، ويهدف المنظمون إليه إلى أعادة ما يسموها "الخلافة الإسلامية"، ويتخذ من العراق وسوريا مسرحاً لعملياته (جرائمه).

تعود أصول هذا التنظيم إلى العام ٢٠٠٤، حين شكل الإرهابي أبو مصعب الزرقاوي تنظيما أسماه "جماعة التوحيد والجهاد" وأعلن مبايعته لتنظيم القاعدة الإرهابي بزعامة أسامة بن لادن في حينها، ليصبح ممثلاً لتنظيم القاعدة في العراق أو ما سمي "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين"، وفي الشهر الرابع من العام ٢٠١٠، قامت القوات الأمريكية بتنفيذ عملية عسكرية في منطقة الثرثار، حيث استهدفت منزلاً كان فيه أبو عمر البغدادي وأبو حمزة المهاجر، وبعد اشتباكات عنيفة بين الجانبين، تمت الاستعانة بالطيران لقصف المنزل ليقتلا معاً، وبعد أسبوع واحد اعترف التنظيم في بيان له بمقتلهما، وبعد حوالي عشرة أيام تم اختيار، أبي بكر البغدادي خليفة لأبي عمر البغدادي[١٥][١٦].

إن لعصابات داعش تاريخ دموي طويل، قبل دخولها مدينة الموصل في حزيران ٢٠١٤، فمنذ تولي أبو بكر البغدادي زعامة هذا التنظيم، قاموا بتنفيذ عدد كبير من العمليات والهجمات الإرهابية، التي راح ضحيتها الآلاف من العراقيين، أشهرها كانت عملية تفجير البنك المركزي، ووزارة العدل، واقتحام سجني أبو غريب وسجن الحوت، والتي تم خلالها تهريب المئات من الإرهابيين العرب والأجانب فضلاً عن العراقيين، والذين كانت أحكامهم تصل للإعدام والمؤبد[١٧].

تحديد مساحات الإرهاب

إن مشكلة الإرهاب تعتبر مشكلة عالمية، وبدأ المجتمع الدولي يعاني من خطورتها، لاسيما وإن مصطلح الإرهاب أخذ يتصدر أغلب اللقاءات الدبلوماسية ووسائل

الإعلام المرئي والسمعي.

وأنّ حقيقة الإرهاب مبنية على أن فكراً يعتقد مروجوه أنه هو الأصح دون غيره، لذا تستعمل معه طريقة العنف لإثباته، والمجتمع الدولي يعاني من هذه المشكلة، وقد عانى العراق من هذه المشكلة ولا زال من خلال العمليات التي لا تصنف إلا في خانة الإرهاب، منها؛ تفجيرات واستهداف الأبرياء، وتفجير مجالس العزاء بلا وازع، حيث هؤلاء يعتقدون أن جزاء من يختلف مع أفكارهم ومعتقداتهم هو العنف وقتل، وأن قضية التكفير أصبحت قضية دولية، ولا تخص العراق أو بعض الدول فحسب، وإنما أمست قضية تخص المجتمع العالمي، وإن العراق دفع الكثير من الدماء جراء هذه الأفكار[١٨].

وإن عدم وجود قناعات حقيقية بهذه الآفة المسمومة، لا يعني غض النظر عن حواضنها أو ممولها أو المروجين لها، والجميع يرى؛ أن الاستهداف يكون غدراً، وليس هناك منازلة واضحة في معاركها، كأن تكون قوة مقابل قوة، وإنما تكون استهدافاً للتجمعات البريئة، سواء كانوا أطفالاً أو أسواقاً أو غيرها، وهذا الأمر ما جاء إلا من خلال القناعة بمعتقد مبني على العنف، لذا فإن المسؤولية تقع على المجتمع الدولي أولاً؛ لإيجاد حلول جذرية، وأن تبذل الإمكانات كافة للقضاء على الإرهاب، وإلا ستكون النتائج وخيمة ولا يُحمد عقباها؛ لأنها لا تستهدف جهة بعينها، أنما ستنتشر كثيراً كما هو يحصل الآن، وإن أهداف الإرهاب ليس إرهاباً مناطقياً، وإنما إرهاباً إقليمياً، وإنما يمتد بشبكاته وخلاياه على مساحة الدول كافة، وإن آثاره المدمرة أصبحت واضحة في كل مكان يتحرك فيه، من خلال تشويه بشع لصورة الإسلام الأصيل، والقيام بممارسات تندى لها مراحل التاريخ الإنساني الطويلة[١٩].

وإن الإرهاب أصبح متداخلاً، واختلطت أوراقه بقوة، فلم يعد مجرد منظمات وجماعات إرهابية ذات أفكار منحرفة، وإنما أصبح متداخلاً مع الأجهزة الأمنية ومخابرات الدول الإقليمية والعالمية[٢٠].

أهداف داعش التوسعية

تسعى عصابات داعش التكفيرية لتجميع أصحاب الفكر المنحرف، ومن يتعاون مع مصالحها العقائدية والسياسية والاجتماعية،

في محاولة لإنشاء كيان سياسي في منطقة الشرق الأوسط.

وهذا الكيان تمتد حدوده من مدينة حلب السورية إلى مدينة الفلوجة العراقية، في محاولة تسعى من خلالها الدول الكبرى والإقليمية الداعم له، لإعادة رسم خارطة الشرق الأوسط، وخاصة العراق من جديد على أساس (دويلات أو أقاليم)، مثلاً؛ تستعد الدول نفسها لبناء حواضن له في حوض الفرات الأعلى وضواحي الموصل وتكريت والرمادي، تمهيداً لإنشاء كيان مقره السياسي والإداري أحدى تلك الحواضر وتحديداً نتوقع أن تكون تكريت[٢١].

التقديم لفتوى الجهاد الكفائي

ابتدأت خطبة صلاة الجمعة المباركة، بإشارة واضحة إلى خطورة الأوضاع الأمنية في العراق، بعد احتلال العصابات التكفيرية لمحافظتي الموصل وصلاح الدين أو أجزاء منهما.

حيث إن داعش لن تكتفي بهذا الحد، إنما إستراتيجيتها تهدف إلى السيطرة على كل العراق، وأن هدفهم المقبل هو التوجه نحو بغداد وكربلاء المقدسة والنجف الأشرف، وهذه المدن تحظى بقدسية عظيمة لما تتضمنه من عتبات مقدسة، وكانت هذه هي المقدمة التي استهلت فيها الخطبة، ليطلب من العراقيين بأن: (مسؤولية التصدي لهم ومقاتلتهم هي مسؤولية الجميع، ولا يختص بطائفة دون أخرى أو مكون دون آخر) إذ أن المسؤولية يتحملها جميع العراقيين، شيعة وسنة، مسلمين وغير مسلمين، ومن كل القوميات، وعلى مختلف توجهاتهم السياسية والاجتماعية[٢٢]، وقد تضمنت الخطبة الأمور الآتية:

١ ـ تأكيد المرجع الأعلى الإمام السيستاني؛ على وحدة العراق وتحمل الجميع المسؤولية الوطنية والشرعية في هذه الظروف الصعبة، وأن العراقيين أكبر من هذه التحديات والمخاطر، لما عرف عنهم من الشجاعة والإقدام، ثم حدد المرجع الأعلى: (المسؤولية في الوقت الحاضر هي حفظ بلدنا العراق ومقدساته من هذه المخاطر، وتوفير المزيد من العطاء والتضحيات في سبيل الحفاظ على وحدة بلدنا وكرامته، وصيانة مقدساته).

٢ ـ تأكيد الإمام السيستاني؛ على أهمية التحلي بالصبر والشجاعة والثبات في مثل

هـذه الظـروف ، وحـذر مـن أن يـدب اليـأس والإحباط في نفوس العراقيين ، وإنما لابد أن يكون حافزاً لنا من العطاء فـي سـبيل حفـظ ديننـا ومقدسـاتنا ، مؤكـداً ؛ علـى الصـبر والمرابطة وعـدم التنـازع ، وتحمـل الصـعاب والبأساء والضراء .

٣ ـ خاطـب المرجـع الـديني الأعلـى ؛ القيـادات السياسـية ووضـعهم أمـام مسـؤولياتهم التاريخيـة والوطنيـة والشـرعية الكبيرة ، وطلب مـن السياسـيين العـراقيين ، أن يتركـوا الاخـتلاف والتنـاحر خـلال هـذه الفتـرة العصـيبة ، ودعـاهم ؛ إلـى توحيـد مواقفهم اتجاه مواجهة العدو المشـترك ، وأن يـدعموا القـوات المسـلحة ، لأن توحـد السياسـيين اليـوم هـو بمثابـة (قـوة إضـافية لأبناء الحشـد الشـعبي والقـوات الأمنيـة فـي الصمود والثبات) .

٤ ـ خاطـب الإمـام السيسـتاني ؛ العسكريين العراقيين وقد أضفى على عملهم وأدائهـم وتنفيـذهم لواجبـاتهم (صـفة القدسية) ، وهي مرتبة متقدمة في التكليـف الشرعي ، بقوله : (إن دفاع أبنائنا في القـوات المسـلحة والأجهـزة الأمنيـة هـو دفـاع مقدس) ، ثم يخاطبهم بقوله : (يا أبناءَنا فـي القـوات المسـلحة ؛ إنكـم أمـام مسـؤولية تاريخيـة ووطنيـة وشـرعية ، اجعلـوا قصـدكم ودافعكـم هـو الـدفاع عـن حرمـات العـراق ووحدته ، وحفظ الأمن للمواطنين ، وصيانة المقدسات من الهتك ، ودفع الشـر عـن هـذا البلد المظلوم وشعبه الجريح) ، ثم أكد ؛ على موقفه المساند كلياً للقـوات الأمنيـة ، فقـال : (وفي الوقـت الـذي تؤكـد المرجعيـة الدينيـة العليا دعمهـا وإسـنادها لكـم ، تحـثكم علـى التحلي بالمروءة والبسالة والثبات والصبر) .

٥ ـ ومـن اجـل أن لا يعتـري المشـهد السياسي والعسكري حالة الانهـزام والهـرب والخيانـة لـدى بعـض أفـراد المؤسسـة العسكرية ، لقد ذكر المرجع الأعلى ؛ بالجانب المشرق لـلأداء العسـكري والأمنـي ، ليـزرع الأمـل والثقـة فـيهم ، حـين يقـدم شـكره ، للكثير من الضباط والجنود الـذين أبلـوا بـلاءً حسـناً فـي الـدفاع والصـمود وتقـديم التضـحيات ، ودعـا الجهـات المعنيـة ؛ إلـى تكـريم هـؤلاء تكريمـاً خاصـاً ، لينـالوا استحقاقهم والثناء والشكر (مـن قيـاداتهم) وليكون حافزاً لهم على أداء الواجب الـوطني الملقى على عاتقهم .

٦ ـ طالـب المرجـع الـديني الأعلـى ؛

عـــائلات وأســـر العســـكريين، بقولـــه: (والمطلـوب أن يحـث الأب ابنـه، والزوجـة زوجهـا علـى الصـمود والثبـات دفاعـاً عـن حرمات هـذا البلـد ومواطنيـه) وهـذا يسـري علـى جميـع المتطـوعين والمنخـرطين فـي الجهاد المقدس للدفاع عن العراق.

٧ ـ وصـف الإمـام السيسـتاني؛ توجهـات ومنهج وسلوك هؤلاء الإرهـابيين المعتـدين: (هو منهج ظلامي بعيـد عـن روح الإسـلام، يرفض التعايش مع الآخر بسلام، ويتخذ من العنـف وسـفك الـدماء، وإثـارة الاحتـراب الطائفي وسيلة لبسـط نفـوذه وهيمنتـه علـى مختلـف المنـاطق فـي العـراق والـدول الأخرى).

بـذلك برهنـت المرجعيـة الدينيـة العليـا خلال السنوات الماضية، وفي أشد الظـروف قسوة، أنها بعيدة كل البعد عـن أي ممارسـة طائفية، وهي صاحبة المقولـة الشـهيرة عـن أهـل السـنة: (لا تقولـوا إخواننـا بـل قولـوا أنفسنا)، مؤكدة مراراً وتكراراً علـى الجميـع، ومن بيدهم الأمر (السياسيين)، ضـرورة أن تراعـى حقـوق كافـة العـراقيين مـن جميـع الطوائف والمكونات على قـدم المواسـاة، ولا يمكن في أي حال من الأحـوال أن تحـرض المرجعيـة العليـا علـى الاحتـراب بـين أبنـاء الشعب الواحد، أنما هي تحث الجميـع علـى العمل لشـد أواصـر الألفـة والمحبـة بيـنهم، وتوحيـد كلمـتهم فـي مواجهـة التكفيـريين الغرباء[٢٣].

فتـوى الإمـام السيسـتاني بالجهـاد الكفائي

اصـدر المرجـع الأعلـى الإمـام علـي الحسـيني السيسـتاني، ومـن خـلال صـلاة الجمعـة التـي ألقاهـا الشـيخ عبـد المهـدي الكربلائـي فـي الصـحن الحسـيني الشـريف بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٣ فتوى الجهاد الكفائي، لمواجهة التمدد التكفيري لعصابات داعش، التـي تمكنـت مـن السـيطرة علـى مدينـة الموصـل، مركـز محافظـة نينـوى شـمالي العـراق، فـي العاشـر مـن حزيـران عـام ٢٠١٤[٢٤].

والتـي دعـا فيهـا المـواطنين: (الـذين يتمكنـون مـن حمـل السـلاح ومقاتلـة الإرهـابيين دفاعـاً عـن بلـدهم وشـعبهم ومقدساتهم، للتطوع والانخراط فـي القـوات الأمنية، وإن الأوضاع التي يمر فيهـا العـراق ومواطنوه خطيرة جداً، ولابد أن يكـون لـدينا

وعي بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقنا، أنها مسؤولية شرعية ووطنية كبيرة)، وبذلك صار واجباً وطنياً وتكليفاً شرعياً على كل من يستطيع حمل السلاح ومقاتلة الأعداء، المساهمة في درء الخطر عن الوطن والمقدسات، وإن الفتوى المباركة أوضحت طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق التي تقتضي:

١ــ الدفاع عن هذا الوطن، وأهله ومقدساته ومواطنيه.

٢ــ هذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي؛ (بمعنى أن من يتصدى له وكان فيه الكفاية بحيث يتحقق الغرض، وهو حفظ العراق وشعبه ومقدساته يسقط عن الباقين).

٣ــ ومن هنا على المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين، دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم، عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية.

ردود الفعل المباشرة للفتوى

١ ـ انخراط الآلاف من المتطوعين في الفصائل والسرايا التي تشكلت من اجل ذلك، لتشكل في مجملها قوات الحشد الشعبي، والتي أصبحت تحت إشراف القائد العام للقوات المسلحة.

٢ ـ أحدثت الفتوى المقدسة حماس منقطع النظير لدى أبناء الشعب عامة بمختلف الشرائح والفئات الاجتماعية، برزت فيه روح الإيثار والتضحية من اجل الوطن والعقيدة.

٣ ـ فتوى الجهاد الكفائي كانت منطلقاً لتقهقر الزمر التكفيرية والقضاء عليها، وقد حققت خلال سنة واحدة تقدم واضح لقوات الحشد الشعبي المدعومة من الجيش والشرطة الاتحادية.

٤ ـ وضعت الفتوى المباركة حداً للفتن الطائفية والحرب الأهلية التي كانت تلوح في الأفق، من خلال توحيد جميع مكونات الشعب العراقي، وقياداته السياسية تجاه هدف واحد وعدو واحد.

٥ ـ هدأت التصريحات الإعلامية بين الإطراف السياسية والاجتماعية ضد هذا الطرف أو ذلك[٢٥].

الحث على الشهادة

دعت المرجعية الدينية العليا المواطنين القادرين على حمل السلاح، للتحلي بالشجاعة والبسالة والثبات والصبر، وإن من يضحي منهم في سبيل الدفاع عن بلده وأهله وأعراضه، فإنه يكون "شهيداً "إن شاء الله تعالى"، والمطلوب أن يحث الأب ابنه، والأم ابنها، والزوجة زوجها على الصمود والثبات دفاعاً عن حرمات هذا البلد ومواطنيه[٢٦].

ثانياً: الأبعاد السياسية لفتوى الجهاد الكفائي

أخمدت نار الطائفية

أغلقت فتوى الجهاد الكفائي كل الأبواب التي كان من المتوقع فتحها لافتعال حرب طائفية وأهلية، إذ كان المخطط إثارتها بين أبناء الشعب العراقي.

حيث كانت تلوح رياحها في الأفق قبيل الإعلان عن الفتوى المباركة، فقد عاش العراقيون عدت سنوات بين أزمات قومية "عربية ـ كردية"، وأزمات مذهبية "شيعية ـ سنية"، وأزمات أخرى شيعية ـ شيعية، وغيرها مناطقية بين أبناء المحافظة الواحدة، مثلاً بغداد وبابل وديالى وغيرها، لأسباب سياسية في اغلبها، منها؛ عدم التوافق على القوانين والقرارات التشريعية، ومنها ما يعتبر تجاوز على الصلاحيات بما يخص التوافق الوطني، وبعض تلك الأسباب بسبب التناحر الطائفي[٢٧].

لذا ساهمت الفتوى المقدسة في توحيد الرأي العام العراقي، نحو قضية مصيرية تكمن في الدفاع عن الوطن والمقدسات، إذ ابتعد الجميع عن ممارسة كل إشكال أثارت الطائفية والقومية إلى حد ما، أو المساس بحقوق المواطنين التي كفلها الدستور، لاسيما وأن الاستقرار السياسي والاجتماعي، أصبح مرهون باحترام البعض للبعض الآخر، وعدم التجاوز على القانون تحت أي ذريعة[٢٨].

وإنّ مكافحة القوى التكفيرية التي لا تعرف إلا القتل والدمار، باتت في نظر الجميع وظيفة وطنية مهمة لا تختص بطائفة دون أخرى، لذا بات التسابق لإثبات النجاح سمت العامة، وأن وقوف مكونات الشعب العراقي خلف مجاهدو الحشد الشعبي والقوات الأمنية، أفضل دليل لإفشال المخططات التخريبية التي تسعى لها تلك القوى المنحرفة، وقال تعالى:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[٢٩].

حيث أصبح كل الشعب العراقي يئن من الممارسات الدموية المشينة، والتي ينسبونها ظلماً وبهتاناً إلى الدين الإسلامي وهو منها براء.

أخرت تقسيم المنطقة

يبدو أن هناك رسماً جديدا للشرق الأوسط، كان يُخطط له بعد دخول عصابات داعش لمدينة الموصل، يتضح في إعادة تشكيل الخارطة السياسية للتحالفات الإستراتيجية الإقليمية.

حيث لم تعد منطقة الشرق الأوسط كما كانت خلال المائة عام المنصرمة، وإن العديد من الدول بدأت بمراجعة سياستها أو التراجع عن ما كانت تتبناه في طموحاتها، والبعض الآخر بدأ بمراجعة تحالفاته الإقليمية[٣٠]، ما ظهر في الانعكاسات الدولية، خاصة بعد توصل دول (٥ + ١) لاتفاق نهائي حول الملف النووي الإيراني، واعتراف الدول الكبرى برفع الحظر الاقتصادي عن الجمهورية الإسلامية، وما انعكس على سعى السعودية بافتعال حرب إقليمية ضد اليمن، وتحديداً جماعة أنصار الله "الحوثيين" للضغط على إيران أو جرها للتدخل لمصلحة حلفاءها، في محاولة لإشعار الولايات المتحدة بوجود خطر شيعي مسلح في المنطقة مدعوم من إيران حسب زعمها، إذ أن السعودية تفسر الاتفاق النووي ذو مخاطر على المنطقة عامة، ودول الخليج خاصة[٣١].

لذا أصبح هناك تغيير واضح في مفهوم الحرية والمطالبة بالحقوق، بحمله لأكثر من معنى في تصور تلك الدول، وإن حركة الشعوب وثوراتها أصبحت لم تعد عفوية، وصارت هدفاً وفرصة لأطراف عديدة لدعمها، وقد تغيير موقع الضحايا فمن كان مظلوماً صار ظالماً، ومن كان مستضعفاً أصبح مستبداً، وأن استمرار إشعال المعارك من سوريا إلى لبنان فالعراق ومصر، إضافة إلى غموض وهشاشة الوضع الليبي والتونسي واليمني بات ينذر بخطر كبير، وإن بعض الدول ابتعدت عن مبدأ تصفير الأزمات إلى الغرق فيها[٣٢].

حيث نعتقد بوجود مخطط تقسيم المنطقة، بعد دخول داعش للموصل مباشرة، ألا إن فتوى الجهاد الكفائي

المقدس ووقوف المجاهدين بوجه المخطط التكفيري، فاجئ الدوائر السياسية الدولية والإقليمية، مما اضطرها لإعادة حساباتها من جديد.

معالجة الإرهاب سياسياً

إن الجهد العسكري الذي يقدمه مجاهدو الحشد الشعبي مدعوماً من القوات الأمنية الأخرى، والذي اخذ يلقي بظلاله على الواقع العراقي، بفضل فتوى المرجعية الدينية، وإن كان مؤثراً في الحد من تمدد العصابات التكفيرية في مساحات الوطن، إلا أنه لوحده ليس كافياً للقضاء عليها.

إذ لابد من معالجة الجذور الأساسية لنشوء ظاهرة التكفير، واستباحة الحرمات وأراقت الدماء، لان عقيدته تحل دم وعرض ومال الأخر، وهذا يعتبر فكراً متطرفاً، حيث جرى الترويج له ودعمه عن طريق آلاف المؤسسات الاستثمارية والاقتصادية، والدعاة عبر منابر الضلالة والمؤسسات الإعلامية، خلال عقود من الزمن، حيث أخذت تستفحل في العديدة من الدول مع إمكانية امتدادها إلى دول أخرى، كانت وما زالت داعمة لها، حتى بات الخطر يداهم تلك الدول المتقدمة في إمكاناتها العسكرية والأمنية، إذ إن هذا الفكر المتطرف يقصي الآخر أياً كان!! ولا يقبل بالتعايش السلمي معه، وهذا هو العامل الأساس لما ابتليت بخطره المنطقة الإقليمية خاصة والعالم بشكل عام، بعدما كانت بعضها هي المتبنية لمنابع الإرهاب التكفيري[٣٣].

لذا هناك حاجة ماسة لمساندة فتوى المرجعية الدينية سياسياً، من خلال الاهتمام بمعالجة المناشئ الفكرية والثقافية والقضاء على الفكر المتطرف الذي لا يقبل بالتعايش السلمي مع الأخر، ويريد أصحابه أن يفرضوا رؤيتهم على الآخرين بالقوة من خلال ممارسة الإرهاب واستهداف المدنيين العزل، ولا يمكن القضاء على الفكر المتطرف بين عشية وضحاها، وإنما يحتاج ذلك إلى تمهيدات كثيرة وعمل دؤوب وبرامج تثقيفية وغيرها، يجري تنفيذها بفترات غير قصيرة[٣٤]، وعبر التحرك الدبلوماسي والتعريف بخطورته مستقبلاً، وضرورة قصر يد المتطرفين عما يمتلكونه من وسائل تعليمية وإعلامية مؤثرة، وتجفيف منابع الأموال الكبيرة التي تدعم أنشطتهم.

إن هذه الأمور تمثل أسباباً مهمة لكسر

شوكته، حيث بات من الواجب معالجة الإرهاب من جذوره، حتى يمكن إيقاف هذه الظاهرة غير الإنسانية، وتأثيراتها الخطيرة على دول المنطقة والعالم.

احترام سيادة العراق

وضعت فتوى الجهاد الكفائي المباركة القادة السياسيين في العراق على محك الاختبار، في أن يوحدوا كلمتهم ومواقفهم في التعامل مع الأمور المصيرية والخطيرة، التي يمر فيها البلد.

لذا فأن السياسيين يتحملون المسؤولية كاملة، اتجاه ما يصيب العراق من اعتداءات وتجاوزات على سيادته واستقلال قراره الوطني، رغم ضرورة سعي العراق بحاجة للتعاون مع الجميع، فأن أي مساعدات تقدم له لابد أن تكون وفق اتفاق واضح وشفاف، كون البلد لا يمر بظروف استثنائية خاصة بوضعه كبلد يواجه مشاكل أمنية محددة، وإنما العراق اليوم يدافع عن العالم بأسره ضد الزمر التكفيرية، فالسياسيون مدعوون ليكونوا على حذر تام من أي محاولة للتدخل في الشؤون السيادية للعراق، بدوافع معينة من أي دولة كانت!![٣٥].

ففي الوقت الذي يهدد الإرهاب المجتمع الدولي بأسره، ويحاول أن يتمدد ما استطاع إلى ذلك سبيلا، للحصول على موطئ قدم له هنا أو هناك وإلا أن هذا لا يسمح لأي دولة بالتدخل السلبي في شؤون العراق أو وفق اتفاقيات تخدم مصالحها الخاصة، ولا يصح أن يستجاب لبعض الذرائع التي تمس سيادته، وعليه من واجب الجهات المسؤولة الاستفادة من جميع الإمكانات المتاحة عبر علاقاتها مع الدول الشقيقة والصديقة، لسد ما يوجد من نقص في المفاصل الأمنية المختلفة، ولكن مع المحافظة على سيادة العراق.

كون القرار عراقياً في جميع ذلك هذا ما أثبتته الفتوى المباركة، لذا يتطلب مد جسور الثقة بين الشركاء السياسيين، والسعي الجاد من قبلهم لتوحيد المواقف من أجل الحفاظ على وحدة البلد وسيادته.

ولادة الجيش العقائدي "الحشد الشعبي"

يعتبر الحشد الشعبي الوليد الشرعي لفتوى الجهاد الكفائي، والركيزة الأساسية لإنقاذ الوطن والمقدسات من الإرهاب، ولولا

ما كان هناك موطن اسمه العراق.

وبعد عام كامل على انطلاقته، على اثر الفتوى التاريخية، أعقاب سقوط الموصل، وتهديدات الجماعات التكفيرية لبغداد ومدن المقدسة، لبى آلاف العراقيين نداء المرجعية الدينية العليا، بالتوجه لساحات الجهاد عبر السرايا الجهادية ليحققوا بطولات رائعة، بتحريرهم مدن حزام بغداد "الضابطية وجرف النصر واليوسفية واللطيفية"[٣٦] وديالى وآمرلي البو عجيل وبيجي وتكريت والضلوعية ومكيشيفة وعزيز بلد والنباعي، ليأتي تصنيف مجلة "نيوز ـ ويك" الأميركية واسعة الانتشار، في مقال اعتبرت فيه قوات الحشد الشعبي العراقي في المرتبة الرابعة كأقوى قوة قتالية واخطر القوات الضاربة في العالم، وتعد هذه أفضل شهادة مهنية لا تمنح بشكل اعتباطي، أنما توضع بعد دراسات واستقراءات مستفيضة من قبل خبراء مختصون في الشؤون الحربية وقادة عسكريين، وسياسيين، ومستشارين أمنيين وعلماء نفس واجتماع[٣٧].

حيث تأتي القوات الخاصة للبحرية الأميركية "نيفي ـ سيل" في المرتبة الأولى، وفرقة "إلفا" الروسية في المرتبة الثانية، وفرقة "ايكو ـ كوبرا" النمساوية في المرتبة الثالثة[٣٨]، والكل يعرف أن الحشد الشعبي لم يكن مستعد للقتال قبل صدور الفتوى المقدسة، إذ لم يكن مدرب أو مجهز لوجستياً بشكل كافٍ، فضلاً عن عدم استلامه رواتب لأشهر عدة، ألا أن هناك إرادة غير منظورة، هي التي ميزت الحشد المقدس عن القوات الأمنية الأخرى، تكمن؛ بالإيمان بالله والقوة العقائدية التي يمتلكها، منطلق من قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ * وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴾[٣٩]، وفيهما سطر ما لم تحققه جيوش مستعدة منذ سنوات[٤٠].

لذا فأن الحشد الشعبي الذي أنجبته فتوى نائب الإمام الحجة"عج"، لابد أن يبقى مقدساً، ليدافع عن الوطن، ويصون أرواح أبنائِه، ويحافظ على المذهب ومقدساته، وأن لا يتحول لمؤسسة ذات مضمون شكلي، لتحقيق إغراض دنيوية، ما يفقده هيبته وإرادته العقائدية.

الانفتاح في العلاقات الدبلوماسية

أثبتت السنوات الماضية أن اختلاف الشركاء السياسيين العراقيين، وعدم الانسجام والتفاهم فيما بينهم، قد أضر بالعراق وشعبه كثيراً، ما جعله منعزل عن محيطه الخارجي، حتى بدأت عزلته السياسية تتوسع.

وفي المقابل فإن تحرك الساسة وانفتاحهم في العلاقات سواء كان على مستوى الداخل أو الخارج كفريق واحد يظهر بأنسجام تام، دليل على أن الجميع يحمل هم واحد اسمه العراق، وتقديم مصالح الوطن على المصالح الخاصة، سواء كانت حزبية أو طائفية أو مناطقية، هو الذي يعطي لهم قوة ووزناً واحتراماً لدى الآخرين.

وما جاءت به الفتوى المباركة للمرجعية الدينية العليا، هو ما جعل الشركاء السياسيين يترفعون عن المطالبة بمصالحهم الخاصة، والبدء بتقارب بعضهم من البعض الآخر، مما يؤدي إلى تماسكهم ووحدة موقفهم في القضايا الأساسية الداخلية والخارجية، ما يحقق المصالح العليا للبلاد، والذي ينعكس ايجابياً على العلاقات المجتمعية بين أبناء الوطن الواحد[٤١].

وقد شهدت الساحة العراقية في فترة ما بعد الفتوى المقدسة، تحرك خارجي لساسة الدولة، بهدف الانفتاح على دول جوار الإقليمي، وفتح صفحة جديدة من علاقات التفاهم والتعاون بين العراق دول العالم، مبنية على مبدأ حسن الجوار، والتبادل السياسي والاقتصادي والثقافي، حيث يمثل خطوة صحية من أجل حل المشاكل التي يعاني منها العراق والمنطقة بشكل عام.

وما رافقها من زيارات متبادلة للشخصيات السياسية والدبلوماسية الدولية والأممية، ما يشعر بعودة العراق إلى حاضنته الإسلامية والعربية، ويعزز دور الدبلوماسية العراقية في بيان رأي العراق حول السياسات والإحداث، التي أدت إلى عزلته وتحمله مواجهة الإرهاب.

تشخيص أخطاء المرحلة السابقة

اتضح للجميع بعد صدور فتوى الجهاد الكفائي، أن من أهم الأسباب التي أدت إلى إرباك الوضع الأمني والسياسي في العراق، هو الانهيار الكبير الذي حصل في المؤسسات العسكرية والأمنية المتواجدة في المدن الغربية كافة، ما ألقى بظلاله على

بقية المناطق.

وكان بسبب تواجد اغلب القطعات العسكرية فيها، حيث أصبح هذا الانهيار مدخلاً لتمكن العصابات التكفيرية من السيطرة على مساحات واسعة من البلاد، إذ تم تشخيص أن الكثير من مؤسسات الدولة لم تؤدي مهامها المناط أليها بصورة صحيحة، وان من أهم تلك الأمور التي تسببت في ذلك؛ هو الفساد المالي والإداري المستشري في الوزارات الأمنية، حيث سيطرة المحسوبية والحزبية والفئوية على الهرم الإداري فيها، فضلاً عن تقلد عناصر ذات علاقات مشبوه بحزب البعث مناصب متقدمة في وزارتي الدفاع والداخلية، وبروز ظاهرة بيع المناصب بمبالغ مالية عالية، ناهيك عن صفقات شراء الأسلحة التي شابها الكثير من الغموض في التعامل مع الدول المصنعة، مما كان له اثر كبير في ضعف تسليح المؤسسة العسكرية العراقية، بالإضافة إلى تولي الكثير من المناصب الإدارية بالوكالة، لاسيما من قبل عناصر لم تكن مؤهلة في الجانب الأمني، بحيث فقد الوازع الديني والأخلاقي في التعامل مع ما أصاب الشعب العراقي اثر الإحداث مأساوية[٤٢]، حتى صار مصداق لقوله تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[٤٣].

فكثرت في الآونة الأخيرة وخاص قبيل صدور الفتوى المقدسة، التفجيرات في الأسواق العامة والمدارس والمساجد والمؤسسات الحكومية، فلم تكن هناك محاسبة أو محاكمة للمقصرين في أداء الواجب، مما جعل نفس تلك المؤسسات ملاذاً أمناً للمفسدين والفاسدين، بدون تشخيص لمكامن الخلل الموجودة حتى في أعلى المواقع الحكومية.

تنبيه حواضن الإرهاب الإقليمية

كشفت المرجعية الدينية من خلال فتوى الجهاد الكفائي، للدول العربية والإسلامية، وبعد تقهقر زمر الإرهاب التكفيري في العراق أن شره سيعود عليهم.

حيث إن الدوائر السياسية التي تتساهل مع المجاميع الإرهابية، وترعى فكرهم الضال، وتسمح بتدريس أفكارهم وعقائدهم في معاهدها، وتساهم في إعداد المجاميع الانتحارية من الشباب المضلل بهم، من إن

داعـش سيصـل لبلـدانهم، وسـيتحين الإرهابيون الفرصة للانقضاض على دولهم ومجتمعـاتهم، لان الإرهـاب لا يسـتهدف طائفة معينة، وسيستهدف الجميع ممن لا يؤيـدون فكـره المنحـرف، لان تراجعـه فـي البلدان التـي تختلـف مـع الـدول الراعيـة لـه عقائدياً وفكرياً، سيكون مستعد للنيـل ممـن يرعاه[٤٤].

وبنفس الوقت أن تصاعد وتيـرة النشـاط الداخلي للتنظيم الإجرامي، مع وجود أرضية تساعد في نمو تلك الزمـر، ونتيجـة لتضـارب المصـالح السياسـية والاقتصـادية فـي تلـك البلدان، ستساهم باستغلال القوة الإجراميـة لتصفية الحسابات الداخلية، مما يـؤدي إلـى هيمنـة الإرهـاب علـى زمـام المبـادرة، مـا سيخلف دماراً مجتمعياً وحضـارياً يـؤثر علـى سياسة الدول نفسها، وإن المعارك التي تدور بين الجيش الحـر وداعـش فـي سـوريا خيـر مثال، وهم من طائفـة واحـدة، وأن التحـرك الإرهابي للزمر التكفيرية في مناطق متعـددة من العالم، هي مخططات إجرامية واضحة.

وإن الغايـة مـن اسـتهداف المسـاجد والحسينيات في المناطق المتداخلة مذهبياً، الهـدف منهـا هـو خلـط الأوراق، واسـتدراج الشـعوب لحـرب طائفيـة أو مناطقيـة، وإن العصـابات الإرهابيـة هـي المسـتفيدة مـن الاحتـراب الطـائفي، بسـبب تـوفر البيئـة الملائمـة لنموهـا وسـطوة نفوذهـا وتوسـعها على مساحات واسعة.

تحييد الشحن الطائفي والقومي

وضـعت الفتـوى المباركـة للمرجعيـة الدينيـة، حـداً لظـاهرة انتشـار الإشـاعات والأكاذيـب، التـي انتشـرت فـي الأوسـاط الاجتماعيـة، التـي تـدعو للتحـريض علـى العنـف الطـائفي داخـل المجتمـع العراقـي، وتثيـر النزعـات العدائيـة بـين القوميـات والطوائف المتآخية.

والـذي يُولـد نتيجـة الأزمـات السياسـية التي تستخدم التراشق الإعلامي سلاحاً لها، الذي ابتدأ باستهداف الشخصيات السياسـية الوطنيـة، مـا كـان سـبباً فـي تـأجيج الفـتن الداخلية لولا وآدها مـن قبـل نفـس الفتـوى المقدسة، كما لعبت الفتوى دوراً في ترويض الجميـع وإبعـادهم عـن الشـحن الإعلامـي الطائفي والقومي بين المكونات، الذي كثيراً مـا يسـبب الأزمـات السياسـية المـؤثرة فـي تأجيل مشاعر الكراهية بين أبناء الوطن، وقد

يترجمه البعض إلى أعمال عنف، يذهب ضحيتها الأبرياء[٤٥].

فأن وحدة الموقف تحفظ وحدة العراق، وتضمن حقوق جميع مكوناته وفق الدستور، ويمكن التوافق عليها إذا خلصت النوايا وصفيت النفوس من قبل جميع الأطراف السياسية، كما ساهمت الفتوى المباركة؛ في إسكات الأصوات النشاز، التي كان ديدنها العزف على أوتار الفتن المسمومة للاستفادة منها سياسياً، من خلال صناعة الأزمات غير الواقعية في مناطق البلاد كافة، بجميع مكوناته وطوائفه؛ بعربه وكرده وتركمانه بشيعته وسنته ومسيحييه، وبقية الفئات الأخرى.

وقد حددت الفتوى المقدسة من اتهام البعض للبعض الآخر، "وخاصة سياسيي الصدفة" وحذرتهم من إثارة المواقف غير لائقة، التي تعكر صفوة النسيج الاجتماعي، والظهور في وسائل الإعلام، وتبني المواقف الخطابية المتشددة والتصريحات الإعلامية، التي ما تزيد الوضع ألا تعقيداً وإرباكاً.

توحيد الرؤى والموافق

لقد أثبتت الفتوى المقدسة أن طريق الحل للقضايا في العراق، ليس حلاً أحادياً كأن يكون الحل الأمني والعسكري فقط، ولم يكن كذلك، وإنما لابد من وجود حلول أخرى تطرح لو تكاتف الجميع، وتوحدت آراءهم معاً.

ثالثاً: الأبعاد السياسية لفتوى الجهاد الكفائي

التمهيد للظهور المقدس

إن صدور فتوى الجهاد الكفائي، تعد من علامات الممهدة للظهور الشريف، حيث جاءت بالروايات التي تتعلق بالثقافة الظهور في الحديث المروي عن ابن عقدة عن علي بن الحسين عن يعقوب عن زياد القندي عن ابن أذينة عن معروف بن خربوذ قال: (ما دخلنا على أبي جعفر الباقر عليه السلام قط إلا قال: خراسان خراسان، سجستان سجستان، كأنه يبشرنا بذلك).

حيث توجد أشارة واضحة جداً إلى اتحاد واقتران صدور الفتوى، مع حديث الإمام الباقر عليه السلام في زمن تكون فيه هناك بشائر بظهور الإمام المهدي المنتظر"عج" كما في الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: (إذا

اختلف الرمحان بالشام، لم تنجل إلا عن آية من آيات الله، قيل: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: رجفة تكون بالشام، يهلك فيها أكثر من مائة ألف، يجعلها الله رحمة للمؤمنين وعذاباً على الكافرين، فإذا كان ذلك، فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهباء المحذوفة، والرايات الصفر، تقبل من المغرب حتى تحل بالشام، وذلك عند الجزع الأكبر والموت الأحمر، فإذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من دمشق يقال لها حرستا، فإذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليابس، حتى يستوي على منبر دمشق، فإذا كان ذلك فانتظروا خروج المهدي)[٤٦]، أما عبارة (خرسان، خرسان) فهي جاءت بأسلوب الترغيب، وهو التأكيد على فعل محمود، حيث تشير إلى شخص الخرساني الموعود بالإشارة إلى مسقط رأسه، وهو الشخص الذي يقوم بأعباء مسؤولية القيادة الشرعي في بلاد خرسان.

وإما عبارة (سجستان، سجستان) أو سيستان؛ كما ورد في تصحيف الكلمة؛ فهي تسمية تطلق لنفس البلاد التي يرجع إليها مسقط رأس المرجع الأعلى، وهو الشخص الذي يقوم بأعباء مسؤولية المرجعية العليا في مكان غير بلاد خرسان في أشارة واضحة للقيادة الشرعية العليا، وهو الذي طالما أفتى بحرمة تضعيف، المرجعية الثورية المساندة للقرار الشرعي العام للمسلمين، وجدير بالذكر؛ القول أن الروايات التي تتعلق بالثقافة المهدوية تكون في الأغلب الأعم ملتبسة بشيء من الغموض والتمويه لمقتضيات حساسيتها ولأغراض اجتماعية، وذلك قبل وقوعها وتحققها على أرض الواقع، حفاظاً عليها من الإخطار المحدقة بها، وأما بعد وقوعها وتحققها، يكون المجال متاح لمعرفتها والتحقق من تطابقها، وذلك أن فهم مثل هذه العلامات، يحتاج الكثير من التأني في تحليلها، خاصة بعدما ورد في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: (أن قدام المهدي علامات تكون من الله عز وجل للمؤمنين)[٤٧].

فان هاتين العلامتين اتحدتا في الجهاد الدفاعي عن البلاد الإسلامية، التي يشنها مشروع أعداء الإسلام على حرمات ومقدسات المسلمين، وعلى الإنسانية عامة، حيث أن تطابق صدور الفتوى المباركة مع حديث الإمام الباقر عليه السلام إلى جنب بقية

العلامات المنتظرة، وهذا ما بشر به القران الكريم بقوله تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾[٤٨]، وبذلك نعتقد أنها ستمهد للظهور الشريف.

إثبات القيادة الشرعية للمذهب

لقد أفرزت الفتوى المباركة؛ القيادة الشرعية الحقيقية العليا للمذهب داخل العراق وخارجه، والمتمثلة بالمرجعية الدينية العليا في عصر الغيبة، وهي من تمسك بزمام الأمور السياسية والاجتماعية، فضلاً عن القيادة الدينية.

فقبيل سقوط مدينة الموصل بيد الزمر التكفيرية، انقسم الشارع العراقي في داخله والعراقيون في الخارج، حول من هو الممثل الحقيقي للبيت الشيعي سياسياً؟ ومن يمثل وجوده الحقيقي أمام بقية الطوائف والمكونات، وخاصة السنة والأكراد في العراق؟ لذا أثبتت الفتوى المقدسة أن المرجعية الدينية، هي الجهة القادرة والمتمكنة فعلاً من الدفاع عن المذهب والوطن، والمطالبة بحقوق أبناءه على حد سواء، ولا يمكن لأحد أن يزايد على مواقفها وجهودها المباركة، وتظليل الحقائق أمام الرأي العام بهذا الخصوص،[٤٩] كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾[٥٠].

وإن أحداث الموصل؛ كشف من هم المدافعون عن الوطن؟ ومن هم المضحون من اجله بأغلى ما يملكون؟ ومن هم الذين كانوا يتسترون بالشعارات الوطنية؟ وواقعاً أولئك لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ووطنهم، خصوصاً بعدما يتزاحم أصحاب الادعاءات مع القادة الحقيقيين في أطروحة تمثيلهم للبيت الشيعي في أيام السلم والمهادنة، ألا أن الفتوى المقدسة جاءت لتفرز من هو الصادق في مشروعه؟ وهو من يمتلك ألأحقيته بتمثيله لأبناء المذهب سياسياً واجتماعياً؟ فأنه الذي أوقعوا الهزائم بالأعداء، واثبت فعلاً هو القيادة الشرعية للمذهب في كل المجالات، والمدافع عن حقوقه والمتمثل في المرجعية الدينية العليا وأتباعها[٥١].

وذلك خلال تقديمهم لقوافل من الشهداء والجرحى، بعدما سطروا بطولات رائعة، ومواقف مشرفة يستحقون، إن يكونوا

القيادة النائبة والصفوة المختارة للتمهيد لدولة الإمام الحجة ابن الحسن المنتظر عجل الله فرجه.

حفظ المقدسات والتراث الشيعي

لقد لعبة الفتوى المباركة دوراً كبيراً في إغماد رياح الفتنة الطائفية، التي كان مخططاً لأثارتها من قبل عصابات الإرهابية والزمر البعثية، والتي تنوي اجتياح مدن بغداد وكربلاء والنجف وسامراء، بعد سقوط الموصل وبقية المدن الأخرى.

حيث أعلن إرهابيو داعش عن نيتهم السيطرة على المدن المقدسة الشيعية، في محاولة لهدم وتدمير العتبات المقدسة فيها، في خطوة لكسر هيبة المذهب الشيعي، إلا إن تصدي مجاهدي الحشد الشعبي للهجوم التكفيري، والوقوف بوجه بقوة جبارة، فاجأ الزمر الإرهابية وإربك مخططاتهم العدوانية، بعدما كانوا يتوقعون عدم وجود قوة عسكرية تقف أمامهم، نتيجة لانهزام قوات الجيش عن بكرة أبيه في مدينة الموصل[٥٢].

الأمر الذي حال دون تحقيق مطامعهم بإشعالهم للحرب الأهلية والطائفية المتوقعة داخل المدن الشيعية، بين أبناء الشعب العراقي من جهة، والتكفيريين ومن يؤازرهم من العناصر البعثية، والجماعات الضالة المناوئة للمرجعية الدينية العليا من قبيل (أتباع المرجعيات والحركات الدينية التي صنعتها المخابرات الإقليمية، والتي بدأت بتوسيع نشاطاتها المشبوه في المجتمع العراقي لاسيما في المحافظات الجنوبية والوسطى، في محاولة لكسب الذين يعانون من الضعف العقائدي والفكري لصفوفها) من جهة أخرى[٥٣]، لذا فأن موقف سرايا الحشد الشعبي في الدفاع عن مناطق حزام بغداد (سبع البور والبو عيثه واليوسفية) ساهم في عدم انهيار الوضع المعنوي للقوات المدافعة، في الأيام والأشهر الأولى للفتوى المقدسة، مما عزز الموقف الدفاعي بشكل عام، ليتحول إلى موقف هجومي.

الأمر الذي ساهم بتشجيع الكثير من أبناء الشعب العراقي، للمشاركة ضمن ألوية وسرايا المجاهدين للدفاع عن المقدسات بشكل خاص، وتحرير المدن العراقية الأخرى بشكل عام، أو دعم الحشد الشعبي إعلامياً أو لوجستياً.

إبراز القيادات الميدانية

ساهمت الفتوى المباركة، بزيادة اندفاع الشباب ورغبت نحو العمل الجهادي القتالي، ضمن تشكيلات الحشد الشعبي، وارتفاع مستوى الخبرة العسكرية لديهم، واثبات دورهم في مسك المبادرة.

مما برز وجه الشيعة في مواجهة خطر المشروع التكفيري، حيث أفسدت الفتوى المقدسة ما كانت تخطط له زمر داعش وماكينتهم الإعلامية إلصاقه بالشيعة، من حالة الخيانة والهزيمة، فيما لو استمر ما حدث في الموصل يوم ١٠ حزيران، ولكتب التاريخ عن هزيمة الشيعة (لا سامح الله) أمام فلول الإرهاب، فقد نظمت الفتوى الحشود الجماهيرية في منظومة عسكرية لمواجهة عصابات مدربة ومجهزة حربياً، ولولا هذا الجهد الشيعي، لما أصبح العراقيون اليوم يفتخرون بقوات الحشد الشعبي، الذي تأسس بفضل هذه الفتوى العظيمة[٥٤].

وقد كشفت الفتوى المقدسة لنا، أسماء قيادية لامعة في الميدان الجهادي العسكري، مما لم تكن لها أي عناوين سياسية أو اجتماعية، كما برزت لنا الشخصيات ذات العناوين الدينية والاجتماعية، حيث قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾[٥٥]، والتي كانت تقارن بشخصيات أخرى، قد اختفت تماماً من الحضور الميداني ضمن سرايا المجاهدين، وبذلك فأن للفتوى المباركة دوراً كبيراً في تمحيص الرجال، وفضح المدعين بالدفاع عن الوطن والمذهب زوراً وبهتاناً، وإبراز القيادات السياسية والدينية، التي أصبح لها دور فاعل ومباشر في العمليات الجهادية، ما زاد من رصيد الشيعة في بورصة القيادات الميدانية المخلصة ذات الأدوار المتعددة[٥٦].

وأثبتت دوراً للقيادات الميدانية المخضرمة، التي تمتلك باع طويل على صعيد تاريخ الجهاد ومقارعة الظالمين، كما صقلت مهارات القيادات الشابة، التي أثبتت جدارتها في القيادة العسكرية الميدانية، والتي يأمل أن يكون لها دور اكبر في حالة استمرار ساحة المواجهة العسكرية في المستقبل.

البُعد الوطني لفتوى الجهاد

كان لفتوى الإمام السيستاني بُعد وطني واضح، ممتد على طول مساحة الوطن

وديمغرافيته المتنوعة، ومؤثر في نفوس المسلمين من السنة والشيعة على حد سواء، فضلاً عن تأييد الشرائح العراقية الأخرى من غير المسلمين الشيعة لمضامينها.

وهذا ما اظهر أهمية التكاتف الوطني العراقي في مواجهة زمر التكفير، وانخراط الجميع ضمن تشكيلات قوات الحشد الشعبي، ما يؤكد أتساع مساحة الفتوى المقدسة وطنياً، والتي تمثلت في تطهير وتحرير مساحات جغرافية واسعة من المدن العراقية، وهي في "التعبير الاجتماعي" مناطق ذات أغلبية سنية، وليست شيعية، فموقف تصدي أبناء ناحية العلم في صلاح الدين لتمدد التكفيري على قراهم وعشائرهم، لم يكن لولا تشجيع ومؤازرة الفتوى المباركة لصمودهم المشرف[٥٧].

فيما كان عشرات الشهداء والجرحى من أبناء الشيعة يسقطون على تلك الأرض، وهو دليل على أن فتوى المرجعية العليا بشكلها ومضمونها، تنطوي على إبعاد وطنية، ولم تكن محصورة بالدفاع عن المدن المقدسة كالنجف الاشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء وباقي المناطق الشيعية في العراق، ودليل أخر عن البُعد الوطني للفتوى، هو سقوط إعداد من أبناء السنة والأكراد والمسيح والطوائف الأخرى شهداء مع أبناء المدن الجنوبية والوسطى ضمن مشاركتهم في سرايا الحشد الشعبي[٥٨].

وما يؤكد الدور الوطني الكبير للدفاع عن العراق وشعبه ووحدة أراضيه، والحفاظ على وحدة النسيج الاجتماعي، هو تعزيز قيم المحبة والتآلف والتماسك الاجتماعي بعيداً عن روح العداء والكراهية والتناحر والانقسام.

المحافظة على حضارة الوطن

ساهمت الفتوى المباركة للمرجعية الدينية العليا في حفظ واستمرار حضارة العراق القائمة، لان إقامة الحضارة لا يكون دون حفظ النظام، لذا ركز علماء الدين في هذا الجانب على قاعدة حفظ النظام، وقد عرفها السيد أبو القاسم الخوئي:[٥٩] (هي مجموعة من القوانين لحماية الأنفس والإعراض).

فمن هذا المنطلق وجب تفعيل وتطبيق هذه القاعدة فهي عصب الحضارة، إذ لا تستقيم أي حضارة ما لم تتخذ من حفظ النظام ركيزة لها، كما أن حفظ النظام واجباً

شرعياً من الناحية العقلية أيضا ، لان العقل والفطرة تشعر أن الظلم قبيح ، لذا فهو من الناحية النقلية والعقلية واجب ، ويجب الدفاع عنه لما فيه من حفظ النفس والإعراض والأموال في المجتمع[٦٠] .

فكما أن قيام الحضارة يحتاج نظام ، فلا يمكن تفعيل أي النظام ما لم يكن له قائد والقيادة ؛ ليست التي تأتي باعتبار عشائري أو اجتماعي أو وراثي ، فضلاً عن الانتخاب السياسي ، أنما القيادة هي الموقف ، والقائد هو الذي يتميز بالمواقف فالقيادة التي تحمل هموم المجتمع والفرد ، وهذه الصفات تمثلت في النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام ، لذا سعى المعصوم عليه السلام في إعداد القيادة المستمرة إلى عصر الظهور الشريف ، لذا نقلوا صفات الواجب إتباعه في زمن الغيبة كبرى ، وهم الفقهاء فورد عن الإمام الحجة "عج" في توقيعه الشريف : (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا ، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله) ، وكذلك في رواية أخرى عم الإمام الصادق عليه السلام : (ينظروا إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا ، ونظر في حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا ، فارضوا به حكماً ، فإني قد جعلته عليكم حاكماً)[٦١] .

فان العلماء هم أمناء الله على حلاله وحرامه ، واجب الاقتداء بهم وإتباعهم ، وأن فقهاء الشيعة ومراجعهم هم قادة المسيرة بكل أمانة ، فقد حفظ التاريخ لهم مواقفهم الجبارة ، وخصوصاً في العراق باعتباره مهد دولة العدل الإلهي ، فعلماء العراق تشهد لهم المواقف أمثال ؛ زعيم الطائفة الإمام الحكيم وفتواه عن الشيوعية ، والمرجع السيد الخوئي ودعمه للانتفاضة الشعبانية ، إلى أن وصلت للسيد السيستاني[٦٢] .

والذي تميز بمزايا الحكمة وبعد النظر ، فعندما نقرا هذه الشخصية تتجلى فيه تلك الصفات ، إذ أنه لا يبعثر الكلمات إطلاقاً ، ويقتصر على الكلمة التي لها تأثيراً كبيراً ، ويكون لها حضور واسع ، كما انه ينظر إلى المستقبل ، والشاهد على ذلك في تفويت الفرصة على الاحتلال ، عندما أفتى بـ (صوتك من ذهب) أي وجوب المشاركة في التصويت على الدستور العراقي عام ٢٠٠٥[٦٣] ، وتصدى للطائفية المقيتة على أن الشيعة والسنة أخوان ، بمقولته المشهورة عن أهل السنة : (لا تقولوا إخواننا بل قولوا أنفسنا) ، لذا هو صمام أمان العراق ، فهو لم

يدخل في خلافات أو تناحر، فقد كانت مواقفه تتعالى على جميع الخلافات، لذا كان أبا للجميع حتى مع من لم يعتبره ممثلاً لهم أو قائداً، وبهذا جسد أروع صور القيادة[٦٤].

فعندما بدا الهجوم على مدينة الموصل من قبل المد التكفيري، أطلق فتواه بالجهاد الكفائي، والتي تشمل كل العراقيين في حفظهم من ذلك الخطر، فلم تكن على أساس طائفي أبداً، لذا تعاضد الشعب العظيم مع الفتوى العظيمة في تلبيتها، أي تجلت عظمة القائد بعظمة الشعب، وبذلك حفظ حضارة العراق وتراث الحضاري.

كشفت أزمة الوعي والمعرفة

كشفت الفتوى المقدسة؛ أن البناء التربوي والمعرفي في العراق، غير قادرة على بناء شخصية الفرد بناءً علمياً ومهنياً وأخلاقياً، أو يجعله منه شخصاً صالحاً ليمارس دوره في المستقبل، بسبب عدم وجود تغيير في البناء الثقافي والفكري، لاسيما في حالة البقاء على نفس المناهج الدراسية والتعليمية.

وكذلك أظهرت افتقار اغلب النخب الوظيفية للثقافة الوطنية، فتبين أن الأغلب في العراق تدرس وتتعلم ليس من اجل المعرفة والاستشراف المستقبلي، أنما من اجل الوظيفة والتعيين لذا تجده يمارس شتى الأساليب لتحقيق إغراض محددة، هذا ما نعكس سلباً على بناء جيل مؤمن بعملية التغيير في العراق، غير قادر على مواكب البناء السليم لمجتمع صالح[٦٥]، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[٦٦]، وأن هناك ظواهر أخرى في العراق، منها؛ تعليمية وتربوية واجتماعية وصحية ونفسية تحتاج إلى المزيد من المعرفة لأهميتها، وتوجيه العناية ورعاية لها، لأنها ظواهر مهمة لها شأن في بناء شخصية الإنسان العراقي، ورقيه وانتشاله من كثير مما يهدده تربوياً واجتماعياً وصحياً[٦٧].

وتبقى من أهم المشاكل في العراق مشكلة الأمية، فكما أن هناك معركة تحدِ مع الإرهاب، فهناك معركة تحدِ مع الجهل والفقر المعرفي، وهناك أرقام كبيرة لأعداد الأميين في العراق، ليس فقط في الأمية الهجائية أو الأبجدية، وإنما الأمية في المجالات الأخرى، كالأمية المهنية أو التقنية أو الثقافية أو البيئية أو الصحية أو

المعلوماتية أو الدينية أو الحاسوبية، وهذا أمر خطير بالنسبة لشعب كالعراق، إن يعيش أزمة وعي لما يحدث حوله أو يدخل في صميم حياته، خاصة في الجوانب الفكرية والعقائدية، لذا فأن فتوى المرجعية العليا جاءت لتنبيه على كل ما يحدث، لتضع الجميع أمام مسؤولية كبيرة في مرحلة مهمة من مراحل تاريخ العراق المعاصر[٦٨].

لان مشكلة الأمية ذات تبعات ليست تعليمية فقط، إنما اقتصادية واجتماعية خطيرة وحتى صحية، وما يترتب عليها من أزمة وعي وتخلف حضاري وجهل وفقر وبطالة، وأن الإنسان الأمي أكثر تعرضاً للموت والمرض من الإنسان الواعي.

معالجة الملف الأمني

أن الأحداث الأمنية بعد صدور الفتوى المباركة، فرضت نفسها على جميع الإطراف السياسية والجهات الأمنية، وحملتهم المسؤولية تجاه ما يواجهه الوطن من تحديات.

وإن الفتوى المقدسة أثبتت أن الملف الأمني من أهم الأولويات، ولا امن من دون مراجعة دقيقة وشاملة لكل مكامن الخلل الأمني، حيث أن الأمن في كل بلدان العالم يبتني على أساس الاستراتيجيات، وليس ردود أفعال لأفعال تحدث بشكل متكرر، وإن مكافحة الإرهاب والتصدي لتمدده تتم عبر آليات عمل قصيرة وطويلة المدى، وحلول شاملة تحمل أبعاداً سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية وتنموية، بالإضافة إلى البُعد العسكري والأمني[٦٩].

وأثبتت الفتوى المباركة الحاجة لإستراتيجية أمنية تقوم على أسس رصينة، تضع في أولوياتها إشراك جميع أبناء الوطن في مهمة الحرب على الإرهاب، بالمعنى أن تكون المبادرة الهجومية بيد القوات الأمنية، ولا تكون فقط في خط المواجهة والدفاع عن ما يحدث، وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٧٠]، ناهيك عن تهيئة المناخ المناسب للتعاضد والتكاتف الاجتماعي والتفاهم السياسي أمام الإخطار المحدقة بالبلاد، والوقوف وقفة الفريق الواحد في تحقيق أي مبادرة ايجابية.

وأن لا مساومة أو تراخي أو تهاون في الحرب مع الجماعات الإرهابية، حيث أن هذه الحرب لم تبدأ اليوم، وإنما هي مستمرة

منذ أكثر من عشر سنوات، ومن الضروري فرز الإطراف التي تقف بوجه الإرهاب وتستأصل جذوره وهي كثيرة وواسعة، عن الإطراف التي تساند الإرهاب وتدعمه لعزلها وأبعادها.

دور العشائر في دعم الفتوى

تعتبر العشائر العراقية، ركيزة أساسية في حفظ النسيج الاجتماعي والدفاع عنه؛ عبر التاريخ المعاصر، حيث كان لها مواقف وطنية مشرفة، والعشائر العراقية، تختلف عن مثيلاتها في البلدان الأخرى، كونها تتكون من نسيج اجتماعي متجانس، يجمع أطباع البداوة ونكهة الريف، مع حضارة المدن، ما يجعلها لا تميل للتعصب القبلي، البعيد عن روح الإسلام.

وإن تمسكها بفتاوى المرجعية الدينية، وتقديم أبنائها دون الوطن والمقدسات، دليل عن عمق العلاقة، وقوة الآصرة بين المرجعية والعشيرة والوطن، حيث قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[٧١]، إذ يلقى صدور الفتاوى ترحيب واسع لدى العشائر، للدفاع عن البلاد والمقدسات، فمنذ التصدي للاحتلال البريطاني، أثناء عشرينيات القرن الماضي، مروراً بمواجهة العشائر للأنظمة الحاكمة، وما الانتفاضة الشعبانية المباركة، إلا عنواناً بارزاً لذلك التلاحم المصيري، أما بعد فتوى الجهاد الكفائي والاستجابة لها ضد العصابات التكفيرية، تجد أبناء العشائر، قد سطروا أروع المواقف الوطنية، ولم يقتصر دور العشائر، على البُعد الدفاعي عن الوطن، إنما تعداه للمحافظة على البناء الاجتماعي وحماية الممتلكات العامة، والدفاع عن العملية السياسية، ونبذ الخلافات سعياً للقضاء عليها[٧٢].

كما ساهمت بعض العشائر، بخلق بيئة أمنة، لعودة النازحين إلى أوطانهم، مع تقديم الدعم للجهات الأمنية، ومساعدتها في عدم استخدام السلاح بشكل عشوائي، وتبني المنهج الإسلامي والوطني، من خلال إقامة مبادرات المصالحة الوطنية، والمساهمة بالتقاء الجميع في نقطة المنتصف، تماشياً مع فتوى المرجعية العليا، إذ تعتبرها مسؤولية دينية وتاريخية منطلقة من أخلاق وسلوكيات أبناءها، لإشاعة روح

المحبة والإخوة والتلاحم والتضافر.

يتضح لنا أن العشائر العراقية، هي الساعد المتين للمرجعية الرشيدة للدفاع عن العراق، والذود عن مقدساته، وأخذ زمام المبادرة، للعبور إلى بر الأمان، بالقضاء على محاولات النيل من الشعب العراقي.

مكانة الشهيد في بيئته الاجتماعية

شهدت مرحلة ما بعد صدور فتوى الجهاد الكفائي المقدس، تقبلاً واضحاً داخل الأسرة العراقية والبيئة الاجتماعية لسقوط إعداد من أبناءها شهداء من اجل العقيدة والوطن.

برز هذا بعدما كانت مظاهر الحزن والنكد والوجوم تهيمن على عائلة الشهيد وبيئته، فضلاً عدم تعاطي اغلب المجتمع مع حالات الاستشهاد اثر الإعمال الإجرامية خاصة، التي اكتسحت الشارع العراقي خلال السنوات العشرة الماضية، بالشكل الذي يتناسب وما للشهيد من مكانة في القران الكريم والشريعة الإسلامية.

ولكن الفتوى المباركة لنائب الإمام الحجة "عج" أعطيت الشرعية الكاملة، لأي شخص ينال وسام الشهادة يعتبر شهيداً بدون أي استفهامات، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾[٧٣]، وأخذت اسر الشهداء وعشائرهم ومدنهم، تتباهى بتقديمها لشهيد أو جريح دفاعاً عن الوطن والمقدسات، وتعتبره وسام شرف وعز وكرامة، لا ينال ذلك المقام المحمود ألا ذو حظ عظيم.

وقد شوهدت الكثير من حالات التعبير عن الفرح والابتهاج، والتحميد لله والثناء عليه، خاصة في تشييع جثامين الشهداء أو في مجالس العزاء، على ما تمنح الأسر من رفيع المنزلة، ما يؤكد ارتفاع الوعي الجماهيري والمجتمعي، مما جعل ذلك عامل إضافي لتدافع إخوانه وأبناءه وأبناء بيئته أو من يسمع بذلك، نحو المشاركة لنيل هذا الوسام أو تحقيق النصر[٧٤].

فباتت مظاهر السرور والتفاخر ملموسة لدى اسر الشهداء، وخاصة الشباب مما يعكس انطباع ايجابي لتشجيع الآخرين، من قبل الأمهات والزوجات فضلاً عن الإباء وأولياء الأمور، بالاستمرار في هذه المسيرة المباركة.

الاستنتاجات

إن فتوى الجهاد الكفائي التي أصدرها المرجع الديني الأعلى الإمام علي السيستاني، خلال صلاة الجمعة وألقاها الشيخ عبد المهدي الكربلائي في الصحن الحسيني الشريف بتاريخ ٢٠١٤/٦/١٣، لمواجهة التمدد التكفيري لعصابات داعش، بعد تمكنها من السيطرة على مدينة الموصل، مركز محافظة نينوى شمالي العراق، في العاشر من حزيران عام ٢٠١٤.

ليست ذات بُعدٍ عسكري وامني فقط، لصد تمدد العصابات الإرهابية، التي كانت تنوي إسقاط حكومة بغداد، بذريعة الدفاع عن حقوق طائفة معينة، إنما للفتوى المقدسة أبعاد سياسية واجتماعية متعددة، لأنها تعد من نوادر الفقه الشيعي، فطيلة قرن من الزمن، ورغم صدور العديد من الفتاوى الجهادية الدفاعية؛ مثل فتاوى السيد اليزدي ضد البريطانيين، والإمام الخميني في الحرب العراقية الإيرانية، أو تلك الفتاوى السياسية الاجتماعية؛ مثل فتاوى المجدد الشيرازي لرفض الاستفتاء، والإمام الحكيم ضد الأفكار الشيوعية، والسيد الخوئي بدعم الانتفاضة الشعبانية، لم نجد هناك فتوى أوضح إبعاداً واشمل مدلولات بالشكل والمضمون، تبرز خلال فترة زمنية لم تتعدى السنة، فكل تلك الفتاوى المباركة، التي سبقتها لم تشخص أبعادها ألا بعد مالا يقل عن عقد من الزمن، أو أنها تقتصر على بُعد معين رغم أهميته، ألا فتوى الجهاد الكفائي للإمام السيستاني، وبسبب التداعيات العقائدية والفكرية والسياسية والاجتماعية، التي تسببت بصدورها، فضلاً عن حالة الغليان نتيجة اجتياح بلد كالعراق، يمتلك ارث دينياً وحضارياً وتاريخياً، ويعتبر عاصمة دولة التمهيد للظهور الشريف لمقام الحجة المهدي المنتظر "عج"، من قبل عصابات إجرامية تحمل أفكار تكفيرية مدعومة إقليمياً ودولياً، وتسعى لتدمير الثقافات والحضارات المتعاقبة في العراق منذ أكثر من (٦٠٠٠) سنة.

حيث ثبتت الفتوى المقدسة أنها ذات إبعاد سياسية كبيرة، تكمن في إخمادها بوادر الفتن الطائفية والحرب الأهلية المخطط إشعالها، والتي كادت تجر المنطقة إلى التقسيم الجيو سياسي، رسمت حدوده في دوائر المخابرات الإقليمية والدولية، فمع ما حققته الفتوى المباركة من انتصارات في

الجانب الميداني، فإنها ركزت على ضرورة وجود جهود سياسية لمعالجة مصادر الإرهاب وتجفيف منابعه، وفتح باب الحوارات الناضجة بدون انتهاك لسيادة العراق، فالانفتاح العراقي بعلاقات الدبلوماسية يعزز دوره الحقيقي في المنطقة، ويساهم في أخراجه من عزلته الإقليمية، التي كانت نتيجة للسياسات الخاطئة لحكومته السابقة، كما أن الفتوى المقدسة شخصت أخطاء مرحلة ما قبل صدورها، وأهمها تحييد الشحن الطائفي والقومي الذي كان يثار موسمياً، حتى بات منهجاً للأزمات في العراق، كما أنها وحدت الرؤى والمواقف السياسية المتباينة في مرحلة ما قبل ١٠ حزيران، ليكن العراق والعالم بعد ذلك أمام حقيقة ولادة "الحشد الشعبي" الوليد الشرعي لفتوى الجهاد الكفائي المقدس، والركيزة الأساسية لإنقاذ الوطن والمقدسات، الذي استطاع بالتوكل على الله وأرادته العقائدية مسك زمام المبادرة الأمنية والعسكرية على الأرض، ولولا ما كان هناك موطن اسمه العراق.

أما عن الأبعاد الاجتماعية؛ فإن فتوى الجهاد الكفائي المقدسة للسيد السيستاني شكلت منعطفاً مهم في حياة العراقيين خاصة والشيعة عامة، والمهتمين بالقضية المهدوية، وخصوصاً المنتظرين لبزوغ فجر الظهور المقدس، حيث بدا الشعور يتصاعد بالتمهيد لعصر جديد مليء بالمفاجئات والتطورات، كما أنهت السجال والجدل غير المباشر حول من هي القيادة الشرعية للبيت الشيعي؟ فقد أثبتت المواقف والتضحيات الجسام، بأن فريق المرجعية الدينية هو القيادة الحقيقية للإرث الحضاري والتاريخي للشيعة، وأيضا أغلقت الأبواب أمام الانتهاك المتوقع لحرمة المقدسات، بفضل اندفاع المجاهدين والقيادات الميدانية، والذين برزو البعُد الوطني للفتوى المقدسة، بعد استجابتهم على مختلف منابعهم ومشاربهم وتوجهاتهم للتصدي للزمر التكفيرية التي أرادت تدمير حضارة بلاد الرافدين، كما إن لأبناء العشائر الأصيلة الدور الكبير بالوقوف بحزم لإفشال كل مخططات الإرهاب، الذي تمادى ودنس ارض الأنبياء، لأسباب منها؛ انخفاض المستوى المعرفي للنخب المتصدية في المجالات الاجتماعية والتعليمية، والذي خلف أزمة في الوعي المجتمعي والسياسي فضلاً عن الفكري.

ولم تقتصد الفتوى المقدسة على الأبعاد السياسة والاجتماعية، وإنما قدمت بعدها المرجعية الدينية لائحة (المقاتل المثالي)، وهي مجموعة من التوصيات التي أصدرها السيد السيستاني، لتكون بمثابة مسارات وإرشادات ليس فقط لمجاهدي الحشد الشعبي والقوات الأمنية في العراق، إنما تصلح أن تكون (لائحة لحقوق الإنسان) في الجانب العسكري والحربي لكل جيوش العالم، كما شخصت تلك التوصيات المباركة تحرك بعض المنضوين تحت عنوان الحشد الشعبي، الذين يسعون لخلق فوضى خارج الإطار القانوني، وخروجاً عن طاعة المرجعية الدينية، ليس تمرداً سلوكياً فقط وإنما سياسياً وشرعياً كما حصل من قبل بعض الجهات سابقاً، مما يعتبر انحراف عن المسارات المرسومة لتلك القوات المقدسة، وتجاوز على هيبة القرار الوطني، والعودة لتغليب المصالح الفئوية والحزبية، على مصلحة المذهب والوطن.

ويتبين مما سبق؛ أن حكمة السيد علي السيستاني وبُعد نظره، واطلاعه التفصيلي على الإحداث السياسية والاجتماعية، جعلته يتخذ القرار المناسب بالوقت المناسب، ليبقى صوت المرجعية الدينية عالياً شامخاً على جميع الأصوات، فكان إصداره للفتوى علاج مناسب وضروري، لتصحيح الممارسات الخاطئة التي ارتكبت، ودليل على عقليته القيادية وقيادته الحكيمة والحريصة على الأمة، إذ إن فتوى الجهاد الكفائي؛ تمثل قوة وجود المرجعية الدينية العليا، وقراءتها الاستشرافية للمستقبل.

المصادر

القران الكريم

الكتب والمراجع:

١. أبن منظور، لسان العرب، ج ٧، مطبعة بولاق، ١٩٨٠.

٢. السيد أبا القاسم الخوئي، منهاج الصالحين، الجزء ١، كتاب العبادات، النجف الاشرف، ١٩٩٠.

٣. الشيخ جلال الدين علي الصغير، علامات الظهور، ج ٢، ط ١، دار الأعراف للدراسات، بيروت لبنان، ٢٠١٢.

٤. حسن لطيف الزبيدي، موسوعة الأحزاب العراقية، بيروت لبنان، ٢٠٠٧.

٥. ذو الفقار علي ذو الفقار، الحركات المهدوية تاريخها عقائدها خطرها، ط ٢، تشرين الثاني ٢٠١٠.

٦. طراد حمادة، الإمام أبو القاسم الخوئي زعيم الحوزة العلمية، مؤسسة الإمام الخوئي ـ لندن، ط ١، ٢٠٠٤ م.

٧. عبد العزيز القصاب، من ذكرياتي، بيروت، ١٩٦٢.

٨. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء ٤، ط ١، إيران ـ قم، دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٥.

٩. عمار ياسر العامري، بناء الدولة العصرية في فكر المدرسة الحكيمية، مؤسسة أديان ـ السماوة، ٢٠١٥.

١٠. كامل سلمان الجبوري، النجف الاشرف وحركة الجهاد عام ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣هـ/١٩١٤م، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٢.

١١. كامل سليمان الجبوري، محمد تقي الشيرازي"سيرته ومواقفه ووثائقه السياسية"، ط١، إيران ـ قم، ٢٠٠٦.

١٢. كامل سلمان الجبوري، السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه، قم، ط ١، ٢٠٠٦ م.

١٣. محمد هادي الاسدي، الإمام الحكيم، ج ١، ط ١، بغداد، ٢٠٠٧.

الخطب والمحاضرات:

١٤. السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، (١٥ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ١٧ كانون الثاني ٢٠١٤ م)، (١ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ٣ كانون الثاني ٢٠١٤ م)، (١٥ ذو الحجة ١٤٣٥ هـ الموافق ١٠ تشرين الأول ٢٠١٤ م)، (٢٩ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ٣١ كانون الأول ٢٠١٤ م)، (٢١ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٠ حزيران ٢٠١٤ م) (بتاريخ ١٥ رمضان ١٤٣٦ هـ الموافق ٣ تموز ٢٠١٥م).

١٥. الشيخ جلال الدين الصغير، محاضرة حول (رواية محمد الباقر عليه السلام خرسان، خرسان، سجستان، سجستان)، منشورة على الشبكة العنكبوتية، موقع اليوتيوب.

١٦. السيد حسن الزاملي، إمام جمعة

الديوانية، خطبة صلاة الجمعة في مسجد الإمام الحكيم في الديوانية، بتاريخ ٥/حزيران/٢٠١٥.

١٧. الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة في الصحن الحسيني، بتاريخ، (٧ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ١٣ حزيران ٢٠١٤م)، (٢٣ ذو القعدة ١٤٣٥ هـ الموافق ١٩ أيلول ٢٠١٤م)، (٢٠ محرم ١٤٣٦ هـ الموافق ١٤ تشرين الثاني ٢٠١٤ م)، (٢٨ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٧ حزيران ٢٠١٤م)، (٢١ ربيع الثاني ١٤٣٥ هـ الموافق ٢١ شباط ٢٠١٤ م).

١٨. السيد عمار الحكيم، رئيس المجلس الأعلى الإسلامي العراقي، الملتقى الثقافي الأسبوعي في بغداد، بتاريخ، (٨ /كانون الثاني/ ٢٠١٤)، (٢٦ /شباط/٢٠١٤)، (١٢ /آب/ ٢٠١٤)، (٢٤ /أيلول/ ٢٠١٤).

١٩. السيد منير الخباز، محاضرة في ندوة بمناسبة مرور سنة لفتوى الجهاد الكفائي للمرجع السيستاني في مؤسسة الإمام علي عليه السلام في لندن، بتاريخ ٥/حزيران/٢٠١٥.

المقالات والدراسات:

٢٠. حميد الموسوي، حشدكم رابعة قوة في العالم، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع الحقائق، بتاريخ ٢٠١٥/٥/٢٠.

٢١. صلاح عبد الرزاق، فتوى الجهاد للسيد السيستاني.. خلفيتها وظروفها، موقع جريدة البينة الجديدة الالكترونية، بتاريخ ٢٠١٤/٦/٢٢م.

٢٢. عمار العامري، التصحر الفكري وتأثيره السلبي على العراق، مقال في صحيفة المثقف العراقي، العدد/١٧٩٥، بتاريخ ٢٠١١/٦/٢١.

٢٣. عمار العامري، القبول الوطني في نظر المرجعية الدينية، المدونة الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك، بتاريخ ٢٠١٤/١٢/٥.

٢٤. عمار العامري، دور العشائر في حفظ النسيج الاجتماعي، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع صوت العراق، بتاريخ ٢٠١٥/٢/٢٧.

٢٥. عمار العامري، الأبعاد السياسية لفتوى الجهاد الكفائي، مقال منشور على

الشبكة العنكبوتية موقع شبكة أنباء العراق، بتاريخ ٢٠١٥/٣/١١.

٢٦. عمار العامري، السياسة الإيرانية تنتصر على الإرادة الدولية، مقال منشور صحيفة الأخبار الالكترونية، بتاريخ ٢٠١٥/٤/٥.

٢٧. عمار العامري، الحشد المقدس في الذكرى تأسيسه الأولى، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع كتابات في الميزان، بتاريخ ٢٠١٥/٦/١٣.

٢٨. عمار العامري، من فيض الإمام الحجة ﷺ صدرت فتوى الجهاد الكفائي، مقال منشور في صحيفة الأخبار الالكترونية، بتاريخ ٢٠١٥/٦/٢٦.

٢٩. قناة العربية اسكاي، أيام سوداء تنتظر العراق بعد هروب سجناء القاعدة، الثلاثاء ٢٣/ ٢٠١٣/٧.

المراسلات الالكترونية:

٣٠. الشيخ جلال الدين الصغير، إمام مسجد براثا ببغداد، إجابة حول أسئلة للباحث عبر موقع التواصل (الوات ساب)، بتاريخ ٢٠١٥/٦/١٠.

الهوامش:

(١) أبن منظور، لسان العرب، ج ٧، مطبعة بولاق، ١٩٨٠، ص ٢٣٧.

(٢) السيد أبا القاسم الخوئي، منهاج الصالحين، الجزء ١، كتاب العبادات، النجف الاشرف، ١٩٩٠، ص٣٦٠.

(٣) سورة الحجرات، الآية ٩.

(٤) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، وكيل الإمام السيستاني، خطبة صلاة الجمعة في الصحن الحسيني، بتاريخ ٧ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ١٣ حزيران ٢٠١٤.

(٥) ولد السيد محمد كاظم اليزدي، عام ١٢٤٧ هـ، في إحدى قرى محافظة يزد في عائلة فلاحية متدينة، كان والده محباً لأهل العلم وكان يتمنى أن يكون ابنه واحداً منهم، وينتهي نسب عائلته إلى السيد إبراهيم الغمر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، درس مبادئ اللغة العربية وآدابها ودرس مرحلة السطوح العليا في يزد، سافر إلى مشهد المقدسة لمواصلة دراسته ثم إلى أصفهان لينال فيها درجة الاجتهاد، ثم هاجر إلى النجف الاشرف عام ١٢٨١ هـ بعدها إلى سامراء، ليقوم بتشكيل حوزة دراسية

أخذت تنموا سريعاً، درس عنده كثير ممن استلموا زمام المرجعية الدينية، عرف بالزهد في حياته والبساطة، له مواقف ضد الاستعمار، اصدر فتوى الجهاد المعروفة ضد الاستعمار الإيطالي لدولة ليبيا، وضد الاستعمار البريطاني لاحتلاله جنوب إيران، وكذلك ضد الاحتلال الروسي لشمال إيران، وكان من أول علماء الدين المجاهدين في العراق ضد الاحتلال البريطاني، وله مواقف مشهودة في قيادة حركة المقاومة ضد الاستعمار البريطاني في مدينة النجف الأشرف، ومن مؤلفاته ؛ حاشية على المكاسب، العروة الوثقى، انتقل إلى رحمة الله تعالى في النجف الاشرف بتاريخ ٢٨ رجب عام ١٣٣٧ هـ، ولما انتشر نبأ وفاته تعطلت الأسواق وهب الجميع لتشييعه، وقد شيع تشييعاً لم يسبق له مثيل، وتم دفنه في الصحن الشريف للإمام أمير المؤمنين × في النجف الاشرف، وأقيمت مجالس الفاتحة على روحه الطاهرة. وللمزيد ينظر : كامل سلمان الجبوري، السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه، قم، ط ١، ٢٠٠٦ م، ص ١٧.

(٦) كامل سلمان الجبوري، النجف الاشرف وحركة الجهاد عام ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣هـ/١٩١٤م، ط ١، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٢، ص١١.

(٧) كامل سلمان الجبوري، النجف الاشرف وحركة الجهاد، المصدر نفسه، ص١١.

(٨) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء ٤، ط ١، إيران ـ قم، دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٥، ص ١٥٦.

(٩) عبد العزيز القصاب، من ذكرياتي، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٠٨.

(١٠) علي الوردي، المصدر السابق، ص ١٥٦.

(١١) هو الشيخ محمد تقي بن الميرزا محب علي بن الميرزا محمد علي المشهور بالشيرازي الحائري زعيم الثورة العراقية، ولد في شيراز وهاجر إلى العراق شاباً وأقام في كربلاء وهاجر إلى سامراء، وتتلمذ على يد الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي، ولما توفي السيد الشيرازي سنة ١٣١٢هـ اتجهت إليه أنظار الناس للزعامة الدينية، وهاجر إلى كربلاء وأقام فيها عالماً ومرجعاً، ابتلي في عصره بالغزو الإنكليزي للمسلمين في العراق، فكان موقفه المدافع عن الإسلام، وفي ليلة النصف من شعبان سنة ١٣٣٨هـ، اجتمع في كربلاء وجوه ورؤساء القبائل الفراتية في مجلسه، وأظهروا ولاءهم لدينهم ووطنهم واستفتوه في إعلان الثورة ضد الإنكليز، وقال لهم ما نصه (إن الحمل لثقيل وأخشى أن لا تكون للعشائر قابلية المحاربة مع الجيوش المحتلة) فطمأنه زعماء العشائر بأن فيهم الكفاءة الكاملة ثم عاد أليهم قائلاً : (أخشى إن يختل النظام ويفقد الأمن وان الأمن أهم من الثورة وأوجب منها) فأجابوه بأن لهم القابلية على حفظ الأمن، وان الثورة لابد منها فشكرهم وقال : (إذا كانت هذه نواياكم وهذه تعهداتكم فلله عونكم)، ومن

مواقفه المشرفة عندما أراد الإنكليز إجبار العراقيين على انتخاب (السير برسي كوكس) المندوب السامي البريطاني ليكون رئيساً لحكومة العراق الجديدة، أصدر فتواه القائلة (ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين)، تتلمذ على يد الشيخ الأردكاني والسيد علي تقي الطباطبائي في كربلاء، وعلى السيد الشيرازي في سامراء، ومن مؤلفاته حاشية على المكاسب في الفقه، ورسالة في أحكام الخلل، ورسالة في صلاة الجمعة، وشرح منظومة السيد صدر الدين العاملي في الرضاع، وله شعر كثير، استشهد في كربلاء في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٣٨هـ الموافق آب ١٩٢٠م اثر سم دس إليه من قبل عملاء الاحتلال، وصار لوفاته اثر في العراق والعالم الإسلامي، وتم تشيعه ودفنه في صحن الحسيني الشريف. وللمزيد ينظر : كامل سليمان الجبوري، محمد تقي الشيرازي"سيرته ومواقفه ووثائقه السياسية"، ط١، إيران ـ قم، ٢٠٠٦، ص١٣.

(١٢) كامل سليمان الجبوري، المصدر نفسه، ص١٨٤.

(١٣) هو محسن بن مهدي بن صالح بن أحمد بن محمود بن إبراهيم حتى ينتهي للسيد إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبى بن علي بن أبي طالب، ولد الإمام الحكيم في شهر شوال ١٣٠٦ هـ بمدينة النجف، وينتسب لأسرة الحكيم ترجع جذورها إلى جبل عامل في جنوب لبنان، وقد سُميت بذلك حيث كان أحد أجداده ـ وهو "علي" ـ طبيباً مشهوراً، ومنذ ذلك الزمان اكتسبت العائلة لقب (الحكيم) بمعنى الطبيب، وأصبح لقباً مشهوراً لها، وقد كان جده مهدي الحكيم من مدرسي علم الأخلاق المعروفين في زمانه، وأما أمه فهي حفيدة الفقيه الشيعي عبد النبي الكاظمي، أنهى دراسته الابتدائية ودراسة المقدمات، ثم شرع بدراسة السطوح العالية عند أساتذة عصره، ولما بلغ عمره عشرين سنة، تتلمذ على المراجع الدينية، ومنهم ؛ السيد اليزدي، والسيد كاظم الخراساني، والشيخ ضياء الدين العراقي، وشيخ الشريعة الأصفهاني، الميرزا النائيني، تسنّم الإمام الحكيم وكان المرجع الثاني للشيعة في العالم، ثم تسنم المرجعية العامة للشيعة بعد وفاة حسين البروجردي، وأخذ بوضع نظام إداري للحوزة، وشرع ببناء المدارس وإرسال المبلغين إلى نقاط العراق المختلفة، وبهذا العمل ازداد عدد الطلاب في جميع الحوزات، وأشرف على كثير من المجلات الإسلامية التي كانت تصدر في ذلك الوقت، من أمثال مجلة الأضواء ورسالة الإسلام والنجف وغيرها، كان منذ أيام شبابه رافضا للظالمين وأعداء الدين، وقد شارك بنفسه في التصدي للاحتلال البريطاني الغاشم للعراق، حيث كان مسؤولاً عن المجموعة المجاهدة في منطقة الشعيبة في جنوب العراق، بذل جهوداً في سبيل جمع شمل المسلمين من المذاهب المختلفة، قام بالتصدي للأفكار، المتعصبة والتمييز الطائفي والعرقي في العراق، واصدر الفتوى المعروفة بحرمة مقاتلة الأكراد في شمال العراق، لأنهم مسلمون، تجمعهم مع العرب

روابط الإخوة والدين، دعم حركات التحرر في العالم الإسلامي، خاصة حركة تحرير فلسطين، حارب الأفكار الشيوعية في العراق، التي تغلغلت بين أوساط الشعب العراقي، فاصدر فتواه المشهورة (الشيوعية كفر والحاد)، ومن مؤلفاته ؛ مستمسك العروة الوثقى، وشرحٌ على كتاب العروة الوثقى للسيد اليزدي، ومنهاج الصالحين ؛ وهو رسالته العملية، تتلمذ عليه عدد كبير كبار العلماء الكبار تصدوا للمرجعية، كان من بينهم ؛ التبريزي، والوحيد الخراساني، والروحاني، والسيستاني، والحكيم، والواعظي، وغيرهم، توفي بعمر يناهز ٨١ سنة، وذلك ٢٧ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ، واستغرق تشييعه من بغداد إلى النجف الاشرف مدة يومين بموكب مهيب، حضره الملايين من إتباع أهل البيت ٨. وللمزيد ينظر : محمد هادي الاسدي، الإمام الحكيم، ج ١، ط ١، بغداد، ٢٠٠٧، ١٢٥.

(١٤) عمار ياسر العامري، بناء الدولة العصرية في فكر المدرسة العصرية، مؤسسة أديان ـ السماوة، ٢٠١٥، ص٢٢.

(١٥) حسن لطيف الزبيدي، موسوعة الأحزاب العراقية، بيروت لبنان، ٢٠٠٧، ص٢٥٦.

(١٦) البغدادي هو ؛ إبراهيم بن عواد بن إبراهيم البدري، المولود عام ١٩٧١ في مدينة سامراء، له العديد من الأسماء والألقاب أخرها "أبو بكر البغدادي، ولد في عائلة تتبع العقيدة السلفية التكفيرية، ووالده المدعو عواد من المبرزين في عشيرته، وكان أعمامه دعاة في العراق حسب ما يشاع، بدأ البغدادي نشاطاته منطلقاً من الجانب الدعوي والتربوي، إلا أنه ما لبث أن انتقل إلى الجانب الإجرامي، حيث ظهر كقطب من أقطاب السلفية، وأبرز منظريها في مدينتي ديالى وسامراء، أولى نشاطاته بدأت من جامع أحمد بن حنبل، مؤسساً خلايا مسلحة صغيرة في المنطقة، قامت بالعديد من العمليات الإرهابية، وشاركت في حرب الشوارع التي شهدها العراق في السنوات الماضية، كانت لأبي بكر البغدادي، علاقة وثيقة بأبي عمر البغدادي، وصلت إلى حد أن الأخير أوصى قبل مقتله بأن يكون أبي بكر البغدادي خليفته على عصابات التكفير في العراق، وهذا ما تأكد ؛ حيث نصب أبو بكر البغدادي أميراً لداعش في العراق.

(١٧) قناة العربية اسكاي، أيام سوداء تنتظر العراق بعد هروب سجناء القاعدة، الثلاثاء ٢٣/ ٢٠١٣/٧.

(١٨) السيد احمد الصافي، وكيل الإمام السيستاني، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ١٧ كانون الثاني ٢٠١٤ م

(١٩) السيد احمد الصافي، المصدر نفسه.

(٢٠) السيد عمار الحكيم، رئيس المجلس الأعلى الإسلامي العراقي، الملتقى الثقافي الأسبوعي في بغداد، بتاريخ ٨/ كانون الثاني/٢٠١٤.

(٢١) الشيخ جلال الدين علي الصغير، علامات الظهور، ج٢، ط١، دار الأعراف للدراسات، بيروت ـ لبنان،

٢٠١٢، ص٢٥٦.

(٢٢) صلاح عبد الرزاق، فتوى الجهاد للسيد السيستاني.. خلفيتها وظروفها، موقع جريدة البينة الجديدة الالكتروني، بتاريخ ٢٠١٤/٦/٢٢ م.

(٢٣) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة، بتاريخ ١٣ حزيران ٢٠١٤، المصدر السابق.

(٢٤) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، المصدر نفسه.

(٢٥) صلاح عبد الرزاق، المصدر السابق.

(٢٦) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة، بتاريخ ١٣ حزيران ٢٠١٤، المصدر السابق.

(٢٧) عمار العامري، القبول الوطني في نظر المرجعية الدينية، المدونة الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك، بتاريخ ٢٠١٤/١٢/٥.

(٢٨) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ١ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ٣ كانون الثاني ٢٠١٤ م

(٢٩) سورة الصف، الآية ٨.

(٣٠) السيد عمار الحكيم، الملتقى الثقافي الأسبوعي في بغداد، بتاريخ ١٣/آب/ ٢٠١٤.

(٣١) عمار العامري، السياسة الإيرانية تنتصر على الإرادة الدولية، مقال منشور في صحيفة الأخبار الالكترونية، بتاريخ ٥/ ٤/ ٢٠١٥.

(٣٢) السيد عمار الحكيم، الملتقى الثقافي، بتاريخ ١٣/آب/٢٠١٤، المصدر السابق.

(٣٣) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٤٣٥هـ الموافق ١٩ أيلول ٢٠١٤م.

(٣٤) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ١٥ رمضان ١٤٣٦ هـ الموافق ٣ تموز ٢٠١٥م

(٣٥) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ١٥ ذو الحجة ١٤٣٥ هـ الموافق ١٠ تشرين الأول ٢٠١٤م

(٣٦) تعتبر المناطق حزام بغداد الأخطر ؛ بعد سقوط الموصل وباقي المدن، كون التمدد الإرهابي أصبح على مشارف بغداد، ولولا صمود وتضحيات المجاهدين بعد صدور الفتوى المقدسة في تلك المناطق لأكثر من أربعة أشهر بوجه الإجرام التكفيري، وتحقيق انتصارات بارزة على مشارف العاصمة، لأصبحت بغداد غير الذي هي عليه بعد عام، مما يدل على إن معارك تحرير حزام بغداد، كانت انعطافة مهمة في تاريخ فتوى الجهاد الكفائي المباركة، كون أهدافها الفتوى المقدسة قد تحقيق ؛ في منع وصول الزمر الإرهابية

للعاصمة بغداد، ناهيك عن المدن المقدسة في كربلاء والنجف، وأيضا إثبات الحشد الشعبي كقوة عقائدية وقتالية ضاربة، ما عزز استمرار الدعم الشعبي له.

(٣٧) عمار العامري، الحشد المقدس في الذكرى تأسيسه الأولى، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع كتابات في الميزان، بتاريخ ٢٠١٥/٦/١٣.

(٣٨) حميد الموسوي، حشدكم رابعة قوة في العالم، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع الحقائق، بتاريخ ٢٠١٥/٥/٢٠.

(٣٩) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

(٤٠) عمار العامري، الحشد المقدس في الذكرى تأسيسه الأولى، المصدر السابق.

(٤١) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ٢٠ محرم ١٤٣٦هـ الموافق ١٤ تشرين الثاني ٢٠١٤م

(٤٢) عمار العامري، الأبعاد السياسية لفتوى الجهاد الكفائي، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع شبكة أنباء العراق، بتاريخ ٢٠١٥/٣/١١.

(٤٣) سورة الروم، الآية ٤١.

(٤٤) السيد عمار الحكيم، الملتقى الثقافي الأسبوعي في بغداد، بتاريخ ٢٤/أيلول/٢٠١٤.

(٤٥) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ٢٨ شعبان ١٤٣٥هـ الموافق ٢٧ حزيران ٢٠١٤م

(٤٦) الشيخ جلال الدين علي الصغير، علامات الظهور، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٤٧) الشيخ جلال الدين الصغير، محاضرة حول (رواية الإمام محمد الباقر × خرسان، خرسان، سجستان، سجستان)، منشورة على الشبكة العنكبوتية، موقع اليوتيوب.

(٤٨) سورة القصص، الآية ٥.

(٤٩) عمار العامري، الأبعاد السياسية لفتوى الجهاد الكفائي، المصدر السابق.

(٥٠) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٥١) السيد حسن الزاملي، إمام جمعة الديوانية، خطبة صلاة الجمعة في مسجد الإمام الحكيم في الديوانية، بتاريخ ٥/حزيران/٢٠١٥.

(٥٢) الشيخ جلال الدين الصغير، إمام مسجد براثا ببغداد، إجابة حول أسئلة للباحث عبر موقع التواصل "الوات ساب"، بتاريخ ٢٠١٥/٦/١٠.

(٥٣) ذوالفقار علي ذوالفقار، الحركات المهدوية تاريخها عقائدها خطرها، ط٢، تشرين الثاني ٢٠١٠، ص٣١٢.

(٥٤) الشيخ جلال الدين الصغير، إجابة حول أسئلة للباحث، المصدر السابق.

(٥٥) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٥٦) الشيخ جلال الدين الصغير، إجابة حول أسئلة للباحث، المصدر السابق.

(٥٧) السيد عمار الحكيم، الملتقى الثقافي، بتاريخ ٢٤/ أيلول/ ٢٠١٤، المصدر السابق.

(٥٨) عمار العامري، القبول الوطني في نظر المرجعية الدينية، المصدر السابق.

(٥٩) هو أبو القاسم الخوئي بن علي أكبر الخوئي، يرتبط نسبه بالسيد إبراهيم المجاب (دفين الروضة الحسينية) بن محمد العابد بن الإمام موسى الكاظم، وقد نال درجة الاجتهاد في فترة مبكرة من عمره وشغل منبر الدرس لفترة تمتد إلى أكثر من سبعين عاما، تصدى لتدريس بحث الخارج، فانهالت عليه هجرة طالبي العلم من كل مكان، وقلدته المرجعية العليا جميع مسؤولياتها وشؤونها، حتى أصبح زعيمها، ومرجعا أعلى للمسلمين الشيعة، يقلده ملايين الشيعة من أتباع مذهب الامامية في مختلف بقاع العالم، أبرز تلامذته ؛ السيد محمد باقر الصدر، والسيد السيستاني، والسيد محمد سعيد الحكيم، والسيد السبزواري، والشيخ الفياض، والشيخ بشير النجفي، الشيخ البروجردي، والشيخ الغروي، الشيخ التبريزي، والشيخ وحيد الخراساني، والسيد عبد الصاحب الحكيم، من مؤلفاته ؛ معجم رجال الحديث، ومنهاج الصالحين رسالته العملية مفصّلة في بيان الأحكام الفقهية، وكان الخوئي أول من اعتمدها بعده فزاد فيها بعض الفروع، تزامنت مرجعيته مع حكم جائر في العراق جعل من الشيعة والتشيع هدفا لطغيانه، وفي تلك الظروف الصعبة الموجهة ضد الحوزة العلمية، كانت مهمة الإمام الخوئي تنحصر بالمحافظة على دور الحوزة واستقلالها، واستمرار الدور التاريخي لمدينة النجف الأشرف، التي تحتضن اكبر وأوسع المؤسسات الدينية ومعاهدها العلمية، وقد أرادت السلطة العراقية انحياز المرجعية لجانبها في مواقفها اللاانسانية واللااسلامية، وخصوصا في حروبها الظالمة مع الجيران، وطالبت السلطات الإمام بإصدار فتوى ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وعندما رفض ذلك، كشرت السلطات العراقية أنيابها، وكانت أول بادرة إجرامية الاعتداء على منزل نجله الأكبر السيد جمال الدين في محاولة لقتله عام ١٩٧٩ م، والذي اضطر لمغادرة العراق، كما قامت السلطات بتفجير سيارته الخاصة وهو في طريقه لمسجد الخضراء لأداء صلاة الظهر وقد نجا منها بأعجوبة بالغة، وفي الجانب العلمي والاجتماعي والإنساني، كانت له خدمات جليلة وواسعة في كافة إنحاء المعمورة تشرف عليها مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، توفي أبو القاسم الخوئي في مدينة النجف سنة ١٩٩٢ وقد صلى على جثمانه علي السيستاني في مرقد الإمام علي بن أبي طالب في النجف. وللمزيد ينظر : طراد حمادة، الإمام أبو القاسم الخوئي زعيم الحوزة العلمية، مؤسسة الإمام الخوئي ـ لندن، ط ١، ٢٠٠٤ م، ٣٦.

(٦٠) السيد منير الخباز، محاضرة إلقاءها في ندوة بمناسبة مرور سنة لفتوى الجهاد الكفائي، مؤسسة الإمام علي عليه السلام ـ لندن، بتاريخ ٢٠١٥/٥/٥.

(٦١) الشيخ جلال الدين الصغير، علامات الظهور، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٦٢) السيد منير الخباز، المصدر السابق.

(٦٣) عمار العامري، من فيض الإمام الحجة عليه السلام صدرت فتوى الجهاد الكفائي، مقال منشور في صحيفة الأخبار الالكترونية، بتاريخ ٢٥ /٦/ ٢٠١٥.

(٦٤) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ٢١ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٠ حزيران ٢٠١٤ م.

(٦٥) عمار العامري، التصحر الفكري وتأثيره السلبي على العراق، مقال منشور في صحيفة المثقف العراقي، العدد/١٧٩٥، بتاريخ ٢١ /٢٠١١/٦.

(٦٦) سورة الزمر، الآية ٩.

(٦٧) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٤٣٥هـ الموافق ٣١ كانون الأول ٢٠١٤ م.

(٦٨) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٤٣٥ هـ الموافق ٢١ شباط ٢٠١٤ م.

(٦٩) السيد عمار الحكيم، الملتقى الثقافي، بتاريخ ٢٦/شباط/٢٠١٤، المصدر السابق.

(٧٠) سورة المائدة، الآية ٣٥.

(٧١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٧٢) عمار العامري، دور العشائر في حفظ النسيج الاجتماعي، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع صوت العراق، بتاريخ ٢٠١٥/٢/٢٧.

(٧٣) عمار العامري، دور العشائر في حفظ النسيج الاجتماعي، المصدر نفسه.

(٧٤) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٧٥) الشيخ جلال الدين الصغير، إجابة حول أسئلة للباحث، المصدر نفسه.

حوار مع د . الشيخ أحمد الأحمدي
أكاديمي وباحث من الجمهورية الإسلامية الإيرانية

ترجمة : السيد حسن مطر الهاشمي

أسلمة العلوم وتصادم القيم
دراسة في دور الحوزة والجامعة

كيف تعامل قدامى المفكرين مع أسلمة العلوم الإلهية والإنسانية :

ما هو المراد من أسلمة العلوم برأيكم ؟ وما هو الصحيح والخطأ منها ؟

ربما كان التعبير بأسلمة العلوم غير دقيق ؛ إذا لا بدّ أولاً من تعريف العلم ، فمثلاً ، ماذا تعني أسلمة الرياضيّات ؟ هي تعني هذه الأسلمة شيئاً لمن مارس الرياضيات وتوصل فيها إلى إنجازاتٍ عظيمة كالخيّام وغياث الدين جمشيد الكاشاني والبوزجاني وأمثالهم ؟ أو الخواجة نصير الدين الطوسي نفسه الذي زاول العمل في الرياضيات والهندسة ، حيث كان منكبّاً عليهما من الناحية العلمية البحتة ، وحقق كل تلك الانجازات ، خاصة في الفلسفة منهما ، من دون أن تخطر الأسلمة بباله إطلاقاً . ومع ذلك ألّف كتاب (أوصاف الأشراف) و(التجريد) ، ودرس الفقه لسنوات طويلة . قالوا : إن الخواجة كان استاذ العلامة الحلي في الفلسفة ، وفي الوقت نفسه تلميذاً عنده في مادة الفقه ، وكذلك كتب الخواجة (منطق التجريد) ، وشرحه

العلامة في كتاب بعنوان (الجوهر النضيد في شرح التجريد) دون أن تخطر أسلمة المنطق ببالهما ، وإنما كانا يتعاملان مع هذا العلم بوصفه أداة للتفكير الصحيح ، كما يتمّ التعاطي مع الهندسة بوصفها أداة للبناء الصحيح ، وهكذا بالنسبة إلى النجوم والهيئة وأمثالهما من العلوم التي كان للخواجة باعٌ طويلٌ فيها ، وقد أقام مرصد مراغة التي يعتبر من الانجازات في العلوم التجريبيّة . وعلى هذا الأساس توظف الفلسفة لإقامة المرصد ، والمرصد إنما يراد منه رصد حركات النجوم وحالاتها ، ومن الطبيعي أننا إذا رصدنا النجوم سنحصل على فوائد جمّة . منها معرفة الأوقات الشرعيّة . كما نستفيد من الهندسة والحساب في بعض الأبواب الفقهية ، ونستفيد من الرياضيات في المواريث وأمثال ذلك ، ونستفيد من الهندسة في تحديد القبلة . فمثلاً جاء في كتاب اللمعة الدمشقية ، أنك أذا أردت جعل الكعبة بنفسها قبلة ، فبما أن الأرض كروية ولا يمكن إصابة الكعبة بدقة من خلال رسم الخط من أي موضع بدأناه ؛ لذلك لابد من القول بأن القبلة هي الكعبة وليست عينها .

لقد دأب علماؤنا على الاعتقاد بآليّة هذا الصنف من العلوم ، فحتى الفلسفة كانوا يتعلمونها لتقوية وتعزيز أسسهم الفكرية من خلال الاستدلالات الفلسفية ، وكأن الفلسفة تتخذ هنا طابعاً كلامياً . وفيما يرتبط بعلاقة الخالق بالعالم نلاحظ أن الفارابي يأتي ببحث الماهيات لتبرير الخلق ، ثم يتناوله ابن سينا ، ومن بعده شيخ الإشراق السهرودي والميرداماد ؛ ليبحثوا في الماهية والوجود والماهيّة أدواراً زمنية طويلة ناهزت سبعة قرون من التفكير المتواصل ، ابتداءً من الفارابي في القرن الهجري الرابع ، وانتهاءً بصدر المتألهين الشيرازي ، حيث جاء لهذا البحث بصياغة جديدة في النصف الأول من القرن الحادي عشر .

فكيف تعامل هؤلاء العلماء مع العلوم ، بل وحتى الفلسفة ؟ إنهم لم ينقلوا المباحث التي ذكرها أفلاطون في رسالة تيماؤوس أو الكلام الناشز الموجود في كتاباته في عدّ النساء من جملة الممتلكات والمقتنيات وغير ذلك مما كان سائداً في الثقافة اليونانية ، وإنما اقتصروا على نقل ما كان يتضمن الجوانب الإلهية في هذا المباحث ، بمعنى أنهم قاموا بتأصيل التفكير الإسلامي . فكانوا إذاً مضطرين إلى

الانتقائية في هذا النوع من المسائل، في حين أنهم لم يواجهوا أي مشكلة فيما يتعلق بالرياضيات والهندسة والهيئة وما كان على هذه الشاكلة من العلوم الآلية.

كان الحسن بن الهيثم البصري عالماً مشهوراً في علم الفيزياء، وقد انتدب لبناء سدّ أسوان في جنوب مصر، إلا أن قلة أدواته حالت دون تحقيق ذلك، وقد ألف كتباً كثيرة وقيمة في علم الفيزياء، إلا أنه كان من القناعة بحيث كان يؤلف الكتب من كدّ يمينه ويعتاس على أجور استنساخها، فكان متديّناً ومعتقداً وفيزيائياً في وقتٍ واحد.

إذن، لم تكن لدينا أيّ مشكلة فيما يتعلق العلوم الآليّة. وأما فيما يتعلق ببعض العلوم النظرية والفلسفة وأمثالها، فكان علماؤنا يلجأون إلى الانتقاء، أو نقل الكلام الباطل فيها مع الإجابة عنه، أو يتمّ التوفيق بينه وبين الآراء الإسلامية، مع الحفاظ على الأصالة الفكرية في جميع الأحوال، وطبعاً في الوقت نفسه كان يظهر بعض الأفراد من الذين يغردون خارج السرب مثل محمد بن زكريا الرازي الذي كان يصرح بآرائه المناقضة للدي، وعبد الله بن المقفع الذي كانت تصدر عنه بعض أنواع الشغب، وأبي العلاء المعرّي وأبي شاكر الديصاني وأمثالهم من الذين لم يخلُ منهم العالم الإسلامي، وهو أمرٌ طبيعيٌّ جدّاً، من دون أن يكون لهؤلاء موقعٌ مرموق في العالم الإسلامي، حيث كانت الأصالة والغلبة للتفكير الإسلامي.

وقد درس الكثير من العلماء على يد الأئمة كهشام بن الحكم الذي كان من مشاهير الفلسفة ويعتبر امتداداً لمدرسة الأسكندريّة، إلا أنه ما أن رأى الإمام الصادق حتى ألقى سلاحه بالكامل وأذعن له منذ اللحة الأولى، وأضحى من خلّص أصحابه، وكان فريداً من نوعه لما يتمتع به من الخلفيّات العلميّة السابقة.

إذن، لا تشكل العلوم الآلية مشكلة، إذ لا يوجد معنىً لأسلمتها، فهي آلة لبلوغ الغايات والأهداف، وقد تكون تلك الأهداف بهيميّة لخدمة الشرّ كصنع القنابل الكيمياوية والهيدروجينية والذرّية لقصف مدينتي هيروشيما وناكازاكي اليابانيتين مثلاً، وقد تكون إنسانية ولخدمة الخير. بخلاف العلوم الفكرية والنظرية والمبنائية التي تبرز من خلالها التحديات والخلافات بين العلماء، ولا يكون ذلك قسراً وتكلفاً، بل

لأجل طول باعهم في تلك العلوم والمسائل.

يُمكنكم قراءة مقدمة ابن خلدون فهي ممتعة للغاية، وقد استسهلتها بادئ ذي بدوء ولم احسبها على هذا المستوى من العمق، ولكنني قرأت بعد ذلك بعض أبوابها لأكثر من مرّة وقد جاء فيها: عندما يستلم الناس مقاليد الحكم فيتجهون نحو الثراء شيئاً فشيئاً، يبادر أهل القرى والبوادي إلى ترك مواطنهم للسكن في المدن، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور الفساد بينهم مما يوجب الاختلاف. وهذا نعرفه إلى حدٍّ ما، إلا أننا حينما نمضي مع الكاتب أكثر نجد أنفسنا أمام قواعد دقيقةٍ في علم الاجتماع. فمثل هذا العالم يتعرّض لعلم الاجتماع ويستنبط منه هذه النظريات التي لا تتعارض والأسس الدينية، لكونه مسلماً يعتمد الرؤية الإسلامية في مجال عمله. وهكذا الأمر بالنسبة لعلم النفس والتاريخ أيضاً.

يقول السيّد الشهيد محمد باقر الصدر في كتاب اقتصادنا: هناك مذهبٌ اقتصادي، وهناك علمٌ في الاقتصاد، فلدينا في الإسلام مثلاً مذهبٌ اقتصادي، وأما علم الاقتصاد فإنما ننظر إليه بوصفه آلة، فالمذهب الاقتصادي يمكن تطبيقه بطريقة أو صيغة معيّنة، وعليه ينبغي الفصل بين العلوم النظرية التي لا يمكن عدها علماً بالمعنى الواقعي للكلمة وكذلك المسائل الفلسفية وبين العلوم الآلية. فالعلوم الآلية واحدة من جميع المواطن، أما العلوم النظرية فالإمكان مقارنتها بالعلوم النظرية الأخرى وترجيح بعضها على بعض، كما صنع ذلك العلامة الطباطبائي في (أصول الفلسفة) مثلاً، فنقض المادية بالحكمة المتعالية.

ما هو المقصود الصحيح من أسلمة العلوم!

إذن، فالمراد من أسلمة العلوم، بعض العلوم التي لها جذور متفرقة في النصوص الإسلامية، فربما كتب بعد الثورة في إيران ما ينيف على المائة كتابٍ في الإدارة الإسلامية، لكن من دون أن تكون هناك قراءة موسعة وشاملة في جميع الروايات والأحاديث ذات الصلة بأسس الإدارة بغية استنباطها وبيانها وتحويلها إلى مشروع عملٍ إداريّ يحظى بالأسس النظرية والأساليب العلمية، ومقارنتها بسائر المدارس الإداريّة الأخرى. ويمكننا اعتماد الإسلام مصدراً فيما يتعلق بالإدارة والتاريخ وعلم الاجتماع

وعلم النفس والحقوق والفلسفة والكلام وأمثال ذلك، كما تمّ تأليف كتاب (أسس الاقتصاد الإسلامي) الذي تبناه المكتب التنسيقي بين الحوزة والجامعة برئاسة سماحة السيد الهاشمي الشاهرودي، فكان كتاباً رائعاً ونافعاً للغاية، ويمكن إدخاله في إطار الأسلمة.

وفيما يتعلق بالعلوم الآلية، كما تمكن الصينيون والشيوعيون والنظم الرأسمالية من توظيف الرياضيات، كذلك يمكننا توظيفها أيضاً، لكن فيما يتعلق بالعلوم الدينية يمكننا أن نستنبط أسسها من المصادر الإسلامية ومواجهتهم بها، وربما يصدف أحياناً أن لا نجد أي تعارض بينها. وحتى في الرياضيات يمكنكم الأخذ بالأسس النظرية فيها، فمثلاً لو كان لـ (فرجة) رأيٌ في العدد، وكذلك كان لـ (راسل) و(وايتهود) و(استيورات ميل) رأيٌ ثانٍ، وكان لابن سينا رأيٌ آخر، فيمكنك الأخذ بأسسهم النظريّة؛ إذ لا مشكلة تواجهك على الصعيد العملي.

هناك من الخبراء في هذا المجال من له رأيٌ في القسم الثاني الذي ذكرتم أنه يصطدم بالقيم والمبادئ، ويذهب إلى أن واقعيّة العلم في الحقيقة تقوم على أسلوبه، أي أنه يأخذ بعض الأفتراضيات المسبقة بنظر الاعتبار دون الالتفات إلى مصدرها. ثم يخضعه للتجربة والاختبار؛ لأن هذا هو ما يقتضيه أسلوب العلم وماهيته دون أن يكون للدين وعدمه دخلٌ في ذلك.

إن ما هو المهم هنا هو معرفة مصدر هذه الفرضية، إذ لا بد لكل فرضية ما يبرّرها؛ فمن المعقول أن يتبنى شخصٌ الماديّة، ويتبنى الثاني الواقعية، والثالث المثالية، والآخر البراغماتية وما إلى ذلك من الاتجاهات والمذاهب عشوائياً، ليرى بعد ذلك ما ينتج عنها؛ موكلاً أمر ذلك إلى الصدف!

أجل، لكن إذا ثبتت فاعليّته مخبريّاً، صار إلى تطبيقه عمليّاً.

ما الذي يتمّ إثباته؟ فاعليته أم نفس ذلك الأساس؟ إذا قلنا: إن الذي يثبت عملياً هو نفس تلك النظرية، قلنا: ليس بإمكان العمل إثبات النظرية. وذلك للزوم الدور منه. فليس من الصحيح مثلاً أن نأتي بفرضيّةٍ ما، كأن نومن بالماديّة أو البراغماتية مثلاً، ثم نعمل بها لنرى مدى فاعليتها وكفاءتها؛ فالنظرية

لابـدّ مـن إثباتهـا بالبرهـان والـدليل قبـل تطبيقها على المستوى العلمي. هـذا مضـافاً إلى أن الاختبار والعمـل شـيءٌ واحـد، وليسـا شيئين مختلفين، فـلا يمكـن القـول: علينـا الاختبار أوّلاً ثم العمل بما اختبرناه، حيث إن الاختبار إنما يتم بالعمل.

لو تفضلتم بإيضـاح الفرضـيّات المسـبقة فـي المجـالات التـي تـرون إمكـان أسـلمة العلوم فيها.

لكلّ علم فرضيّاته التي تخصّه.

الفرضيات المسبقة لمقولة الأسلمة

إنّ نفس مفهوم الأسلمة هذا يقوم على بعـض الفرضـيّات المسـبقة، فلـو تفضـلتم بتوضيح هذه النقطة.

لو أخذنا حقل الفلسفة مثلاً، فسوف نجـد عشرات المدارس المشهورة والمغمورة فيها؛ حيث يأتي الفيلسـوف وتكـون لـه بـدايات قـد ابتدأ منها، ونهايات قد انتهـى إليهـا. والبنـاء الذي يقيمه على سلسلةٍ مـن الأسـس تكـون له نتائج تناسبه، فمثلاً حينما يقيم الفيلسوف عمانوئيـل كـانظ أسـس المدرسـة التحليلـة، ويتجه بعدها إلـى الـديالكتيك، ليقـول بعـدم جدوائية العقل النظري، ويلجأ إلى الأخلاق، فلا تكون هذه الأخلاق نتاجاً لعلقه النظري. أو حينمـا يبـدأ الفيلسـوف هيجـل بمقـولات الوجود والعدم يؤسس نظامها الواسع والمعقد ليصل بمقولاتها إلى مائتي مقولة، عندها من الطبيعي أن تقوم أخلاقه وفلسفته وحكومتـه وعلاقاتـه الاجتماعيـة ودينـه علـى تلـك المقولات. وهكذا بالنسـبة إلـى ديفيـد هيـوم وديكارت ولايب نيتس وباركلي وغيـرهم مـن الفلاسـفة، حتـى نصـل إلـى الفلاسـفة التحليليـين، حيـث قـام كـلّ واحـدٍ مـنهم بتأسيس سلسلة مـن الأسـس وأقـاموا عليهـا أبنيتهم، فما هو الشأن فيما يتعلق بالفلسـفة الإسـلامية؟ مـثلاً هـل تقـوم الأخـلاق والعلاقات الاجتماعية والعلوم السياسـية فـي فلسفة صدر المتألهين الشيرازي على أصـالة الوجود وأمثالها؟ فهناك كانت الأسس تؤدي إلى نتائج تناسبها، أمّا هنا فالأسس لا تنتهي إلى تلك النتائج. وإنما تصـل علـى كـل حـال إلى الإيمـان بـالوحي، لأنهـا فلسـفة إلهيّـة، ولله دورٌ فيها، وإذا كان كذلك فإن الله يبعث الرّسل، والرّسل بدورهم يدعون إلى الأخلاق وتنظيم العلاقـات الاجتماعيـة، وعليـه نجـد أنفسـنا منسـاقين نحـو الشـريعة التـي تقطـع

الطريق على أخلاق عمانوئيل كانظ وهيوم وديكارت وأمثالهم؛ فهناك تنتج الفلسفة النظرية فلسفة عملية، أما هنا فالحكمة النظرية من دون واسطة، وإنما يتم استعراضها في قالب الوحي والدين والشريعة. وطبعاً هي تقوم بنحوٍ من الأنحاء على الفلسفة النظرية، إلا أنها ليست منها.

فانظروا إلى هذه الأسس والنظريات، والى مدى اختلاف نتائجها، وهكذا الأمر بالنسبة إلى سائر الحقول الأخرى، فإذا تم تأصيل الدين وتم التأسيس لعلم الاجتماع من خلال اعتماد القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأخذنا مثلاً قوله تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾، وأضفنا إليها آيات أخرى وأقمنا مدرسة فلسفية على هذا الأساس، فسوف نحصل على نتائج مختلفة. ومن الممكن أن يكون لها في الكثير من المواطن تجانسٌ مع مدرسة في علم الاجتماع، فهذا يؤيّد ذاك، وذاك يؤيد هذا في بعض المسائل أو جميعها. إذاً لابد من إثبات الفرضيات للوصول بعد إثباتها إلى النتائج التطبيقية والعملية. وهذا هو المقام الذي يحتاج فيه الإنسان إلى بذل الوسع والوقت والجهد للحصول على الأسس والمبادئ وعرضها، وإذا لم نحصل على شيء من ذلك نكون قد وصلنا إلى منطقة الفراغ، وكنا في وسعةٍ من أمرنا.

الأسلمة بين آليات العلوم ومبادئها

تمام الأمثلة التي ذكرتموها للفلاسفة الغربيين والإسلاميين، تتعارض وأسلمة العلوم، فيقال في الفلسفة: إنها منهجٌ عقلي، حيث تدرس مختلف المباحث من خلال هذا المنهج، أي أنّ قوام المباحث الفلسفية في الحقيقة بالمنهج العقلي الذي تنتهجه. أو فيما يتعلق بعلم الاجتماع مثلاً، فالذين يدعون إلى أسلمة علم الاجتماع إنْ كانوا يؤمنون بالمنهج المتداول في علوم الاجتماع، لا نحصل عندها إلا على علم الاجتماع من دون أن يكون إسلامياً أو غير إسلامي، فالجميع يتبع ذات المنهج والأسلوب. ولكن لو اتبع أسلوب آخر، كأن تنتهج في علم الاجتماع النزعة الإيجابية والإدراكية ذات الأساليب المختلفة، يمكن حينها القول بأن هذا غير ذلك الآخر، أمّا إذا قبلنا منهجاً واحداً في العلم فلا يمكننا لمجرّد وجود فوارق في موضوعاتنا

واختلاف تطبيقاتنا وأخذنا للفرضيات من مصادر أخرى ومحاولة إثباتها بالمنهج المعهود، لا يمكننا لمجرّد ذلك أن نعطيها صبغةً إسلامية!!

إنّ أخذ الفرضية من مصدرٍ آخر يتنافى ومحاولة إثباتها بالمنهج، حيث لا يمكن إثبات الفرضية بالمنهج؛ فالمنهج في الحقيقة أسلوبٌ لتطبيق تلك الفرضية وتوظيفها. فلو كان مرادنا أن نقوم بعملٍ ميداني فيما يتعلق بعلم الاجتماع لا يكون هناك فرقٌ بين ما إذا كان المجتمع مسيحياً أو مسلماً أو زرادشتيّاً أو حتى ملحداً. فحينما نتوجّه مثلاً لدراسة مشاكل المجتمع الهندسي بجميع طوائفه ميدانياً من خلال النظر في سلوكية الهنود وخصوصياتهم بدقة، لنقول بعدها: هذه هي معتقدات الهندوس وسلوكياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية من زواج وغيره، وإيمانهم بتناسخ الأرواح وتقديسهم لمعابد الأصنام واحترام الأبقار وأمثال ذلك، فهذا نشاط ميداني يمكن تطبيقه على المجتمع الإسلامي أو المسيحي في السويد مثلاً للوصول إلى النتائج المترتبة على المنهج المتبع في علم الاجتماع، فإذا كان هذا هو المراد فلا علاقة له بالأسس والمبادئ، فهو نشاط ميداني لا يختلف باختلاف المواضيع وكونها إسلامية أو غيرها، كالرياضيات التي هي من العلوم الآلية. لكن إذا أردنا دراسة الأسس والمبادئ وما يقوم عليه المجتمع من الأصول كأن يكون شمولياً أو فردياً، فستكون النتائج الحاصلة من دراسة المجتمع الشمولي غايرة للنتائج الحاصلة من دراسة المجتمع الفردي. وفيما يتعلق بعلم النفس يواجه الطبيب النفسي مريضاً مصاباً بعقدة جنسية أو أنه يشكو من الكبر والغرور أو الحقد أو الحسد أو الكآبة، إلى غير ذلك من العقد المختلفة التي يصاب بها المريض نفسياً، فهنا يستخدم الطبيب أسلوباً واحداً لعلاج المريض مهما اختلفت عقدته، ويشرح الآثار المترتبة على هذه العقد التي تختلف درجاتها شدّة وضعفاً وقد تؤدي أحياناً بفقد المصاب السيطرة على نفسه فيتقل صديقه أو ينتحر! لكن هناك أيضاً مبدأ يسأل: هل يرى علم النفس تأثيراً للاعتقاد بالحياة بعد الموت في تلك المسائل او لا يرى له تأثيراً في ذلك، كأن يقال بخلود النفس أو أن النفس وجود مجرّد؟ إن لذلك تأثيراً على نفس فرضيات علم النفس دون

مناهجه وأساليبه، فلو علم الطبيب النفساني بأني مؤمن ببقاء النفس يمكنه عندها التعامل معي بنحوٍ آخر مؤثر في علاجي وفي ظهور تلك العقد، حيث يختلف علاج المؤمن بالله والمعاد عن علاج الملحد، إذ يمكن للطبيب أن يحول دون انتحار المؤمن بسهولة ومن دون العناء الذي يبذله في علاج الملحد.

معنى ذلك ـ إذاً ـ أنّه يمكن القول بعدم أهمية صرف المنهج في الواقع، بل ربما كانت المناهج متساوية في جميع المواطن كالرياضيات وغيرها، إلا أن الاختلاف يكون في الأسس والمبادئ.

إذا أردنا أن نؤصل تكريم الإنسان في الإدارة، وأخذنا قول أمير المؤمنين حيث قال: «الناس صنفان: إما أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق» أساساً، فعندها ستختلف إدارتنا عن الإدارة الشيوعية التي تتعاطى مع الأفراد بوصفهم أدوات، من هنا تختلف الإدارات باختلاف الثقافات والبقاع. وقد سمعت أستاذاً إيطالياً جاء إلى إيران ـ قبل حوالي ثمان سنوات ـ يقول: يجب أن تختلف الإدارة الإيطالية عن الإدارة الألمانية اختلافاً كاملاً؛ وذلك لأننا نعتنق ثقافة وتقاليد مغايرة لثقافتهم وتقاليدهم، فالعلاقات في الكثير من أسرنا وثيقة ومتينة، فإذا أرادت الأم الخروج من المنزل لبعض شأنها، أوصت أبنها الكبير بمراقبة أخيه الأصغر والعناية به، في حين لا يوجد مثل هذا الشيء في ألمانيا وبعض البلدان الأخرى؛ وذلك لأن الأسرة فيها قد تفككت، فلا يمكن علاج مشاكلهم بالنحو الذي نعالج به مشاكلنا. وهكذا الأمر بالنسبة إلى إيران، هناك الكثير ممّن يتصور إمكان تطبيق منهجٍ في إيران مثلاً لمجرّد نجاحه في بلدٍ آخر. في حين أننا قد نحصل منه على نتائج معكوسة، وذلك لاختلاف الأطر والأسس والفرضيات. إذاً فالأسس والمبادئ المختلفة تستدعي مناهج وأساليب مختلفة.

دور الحوزة والجامعة في مشروع الأسلمة

فيما يتعلق بالغاية من أسلمة هذه الحقول الخاصة من العلوم المتداخلة مع قيمنا الدينيّة، ما هو الدور الذي يمكن لكلّ من الحوزة والجامعة أن تضطلع به في هذا المجال؟

هذه المسألة ليست من الأمور التي

يمكن لي أن أبتّ بها منفرداً؛ لأنها أمور أساسية ودقيقة تحتاج إلى رجال مدققين يفرغون ما بوسعهم ويعملون بإخلاص وبشكل دؤوب، حتى إذا طرأ في الأثناء خلل وضعوا أصابعهم على موضع الداء دون أن تأخذهم في الله لومة لائم مهما كان منصب اللائم أو موقعه، كالمريض الذي يراجع الطبيب فلا يختلف الأمر عند ذلك الطبيب عما إذا كان مريضه مرجعاً أو استناداً في الجامعة، فلا بد من عرض الأمراض كما هي ومن دون مجاملات، للعمل على علاجها.

وقد أنجزت حتى الآن بعض الأعمال الجيّدة نسبياً، إلا أنها ليست كافية ولا ترقى إلى الأهداف والنتائج المطلوبة. وهناك بين أساتذة الجامعة الكثير من المؤمنين المتحمسين والمخلصين ممن درسوا في الحوزة العلمية، وسعوا إلى التقريب بين الحوزة والجامعة، كما كان هناك في الحوزة الكثير من أمثال الشهيد المفتح والشهيد المطهري ممن عمل في هذا الاتجاه؛ فعلى الموجودين حالياً إكمال المسيرة من خلال تحديد الخطوط ورسم الطرق العملية في هذا الاتجاه، وقد تمّ البدء بهذا المشروع ولا بد من متابعته، وقد قام السابقون بواجبهم، وعلى الموجودين حالياً أن يخصصوا الكثير من وقتهم للقيام بالعمل بجدية أكبر.

نواقص مشروع الأسلمة في الواقع التطبيقي

ما هي النواقص فيما تم إنجازه حتى الآن وترون ضرورة رفعها؟

لم تبلغ تلك الأعمال الحدّ الذي يبيح لنا الغوص إلى هذا المستوى من العمق، ويمكن القول مثلاً بأن انتداب الأستاذ الجامعي للتدريس في الحوزة يؤدي إلى امتزاج الثقافات. فحينما يدرّس الأستاذ الجامعي في الحوزة تغمره السعادة عند رؤيته الجدّ السائد بين الطلاب في متابعة الأبحاث والأسئلة والأجوبة الجيّدة التي يطرحونها، ومراعاتهم لحسن الاحترام المتبادل بين الطالب والأستاذ، ولا يمضي طويلُ وقتٍ حتى تتغيّر رؤية هؤلاء الأساتذة للحوزة العلمية. وهكذا العكس، فالاجتماعات والنشاطات والتأليفات المشتركة، كما يحصل في السابع والعشرين من شهر آذر الإيراني حيث يقام بحثٌ علميّ مشترك، يعتبر من الأمور الجيّدة للغاية.

لكن يبدو لي أنّ بالإمكان القيام بما هو أكثر وأجدى من ذلك لتعميق هذه العلاقة وتوسيعها. فمثلاً في الكثير من العلوم ـ ومنها الفيزياء النظريّة ـ علينا التعاطي مع الأساتذة والتباحث معهم بشأن المادة وتحوّلها إلى طاقة، وماهيّة الجاذبيّة والذرّة وما إلى ذلك، إذ يتعين على الذين يبحثون في المادة في الحوزة العلمية ملاحظة هذه التطورات من خلال استضافة أستاذٍ مختصّ في الفيزياء النظرية ليفصّل في عدة دروس ويشرح المسائل بشكلٍ جيد ليقف السادة على التطورات الحاصلة في هذه الحقول؛ فقد حدثت قفزة كبيرة في مجال علم الأحياء والجينات الوراثية والنجوم وعلم الهيئة والكون، ويجب على الحوزة مواكبة هذه التطورات وعرضها على طلبة العلوم الدينية بهدف استيعابها. وأساساً فإنّ علم الهيئة القديم بأفلاكه التسعة المتشابكة، وخاصة تلك العقول العشرة، لا تنسجم مضامينها مع الآيات الكريمة والروايات الشريفة، وقد قال العلامة الطباطبائي: إن العقول العشرة إنما كانت قائمة على أساس هيئة بطليموس، حيث أريد منها تبرير حركات تلك الأفلاك، فتم لذلك ابتكار عشرة عقول لتناسب تلك الأفلاك في عددها، فلو أتفق أن كانت تلك الأفلاك خمسة وعشرون، لكانت العقول أكثر مما هي عليه وهكذا. ولكن حاليّاً لا توجد مثل هذه المشكلة في علم الهيئة الحديث. إلا أن أصل البرهان القائم على ضرورة أن تكون هناك واسطة ورابط بين ذات الحقّ تعالى وبين الحق تعالى وبين الكائنات المادية؛ من حيث إنّ الواحد لا يصدر منه إلا واحد، باقية على حالها، وليس لدينا رواية واحدة تؤيد ما قيل في الأفلاك. بل هناك روايات تنسجم مع علم الهيئة الحديث، ويمكنكم في هذا الشأن مراجعة الرواية المنقولة في كتاب بحار الأنوار عن أمير المؤمنين عليه السلام، وغيرها من الروايات الأخرى التي هي أكثر انسجاماً مع علم الهيئة الحديث، وعليه لابدّ من إعادة استعراضها بشكلٍ صحيح.

لقد اختلفت المادة حالياً عما كانت عليه في السابق اختلافاً كاملاً، فغدت أكثر انسجاماً مع الحركة الجوهريّة؛ ولذلك كان صدر المتألهين يعاني كثيراً ليوفّق بين الهيولى والصورة وبين الحركة الجوهرية. والخلاصة إن علينا في أغلب المجالات إقامة هذه الصلة، وأن نحدد لها السبل

الواضحة، وكما قلت، لابد من إقامة الاجتماعات المشتركة بين الحوزويين والجامعيين.

الوحدة بين الحوزة والجامعة، العوائق والموانع

المحور التالي هو البحث في مسألة الوحدة بين الحوزة والجامعة، حيث أكد عليها الإمام الخميني كثيراً؛ فالمرجوّ منكم توضيح المراد من هذه الوحدة، وما هو رأي الإمام الخميني في هذا المجال؟

عندما طرحت هذه الفكرة فرح الإمام الخميني كثيراً؛ حيث كان يراها أساسيّة، إلا أنه لم يبين سبلاً خاصة لتطبيقها، إذ لم يكن وقته ليتسع لمثل هذه الأمور مضافاً إلى عدم ارتباطاً به، حيث تتوقف على سلسلة من الأمور التنفيذية والعملية يضطلع بها أشخاص يتفرغون لهذه الغاية، وكما تقدم أن ذكرنا فإنّ فرص العمل المشترك كثيرة، لو أقيمت الوحدة بين الحوزة والجامعة لاتخذت كثيرةٌ من مشاكلنا الاجتماعية شكلاً أفضل مما هي عليه الآن، ولاختفت الفجوة المفتعلة التي ظهرت في عهد السلطة البهلوية بين العلوم الجامعية والحوزوية بالمرّة.

ما هي برأيكم الموانع التي تحول دون تحقّق هذه الوحدة؟

أقول ثانية إن من الأفضل أن تقوم تلك اللجنة التي ذكرتها بدراسة هذه الموانع، لكن لو ألقينا نظرة عابرة سندرك أن المانع الأول يكمن في انشغال كلّ واحدٍ بحياته الخاصّة، وهذا أمرٌ طبيعي في مجتمعٍ لا يسع المرء فيه التغلّب على مشاكل حياته الخاصة إلا بالعنت. وطبعاً علينا في الوقت نفسه أن لا ننسى الخصوم الذين يتربّصون الدوائر ويعملون على إشاعة الفرقة والاختلافات الفكريّة بين هاتين المؤسستين. وأحياناً يمكن للخلافات السياسية أن تكون أرضاً خصبة للتفرقة والتباعد، وكذلك جعلنا بمناهج بعضنا. وطبعاً على المؤسسة الدينية أن تبادر ـ قبل الجامعة ـ للتقرب منها وتمهد الأرضية المناسبة لهذه الوحدة. وعليها أن تسعى إلى فهم لغة الجامعة وأن تتعرف الأسلوب الناجع للتعاطي مع الجامعيين، وأن تفهم المناخ الذي يسود تفكيرهم ونفسياتهم، ومن ثم التحدث إليهم بما يناسبهم؛ فعلى المؤسسة الدينية أن تتصرف من منطلق المسؤولية

لإزالة هذه الفجوة. وإنني طوال مدة ارتباطي بالجامعيين من الطلاب والأساتذة، لم ألمس سوى المحبّة والحفاوة والتعاطف والتعاون والإخاء.

في الختام، إذا كانت هناك من كلمةٍ تودّون قولها؟

أرى أن الإخوة في مدينة قم والعاملين في مركز أبحاث الحوزة والجامعة، خاصة سماحة السيد الأعرافي الذي يتمتع بالمسؤولية والنشاط وله علاقة وثيقة بالجامعات، حيث يدرس فيها مادة التربية الإسلامية وغيرها من الموضوعات الأخرى، لديهم الكفاءة العالية لتوثيق وتعزيز هذه العلاقة. وقد حصل هذا المركز - ومنذ عام ١٣٦١ش/١٩٨٢م وحتى الآن - على تجربة قيّمة في هذا المجال، وقد شكل رافداً مناسباً لهذا المشروع المبارك. ويجب علينا توسيع وتعميق هذه التجربة التي لم نحصل عليها إلا بعد إنفاق الكثير من الأموال. وأنا على أتمّ الاستعداد لتقديم ما أستطيعه من الخدمات إذا ما دعيت إليها. ومن الضروري إقامة الاجتماعات مع الشخصيات القوية والمخلصة من الحوزة والجامعة؛ لبيان نقاط ضعف النشاطات السابقة، ودراسة المعطيات والأساليب، والنظر بدقة في الوضع الراهن والآتي، وتحديد الموانع وسبل القضاء عليها، وعدم الاكتفاء بما أنجز حتى الآن، وينبغي أن لا نقنع بهذا المقدار الذي تحقق من الوحدة، فإننا إذا لم نسع إلى توثيق وتعزيز هذه الوحدة، فربما بادر الحاقدون إلى القضاء على هذا المقدار الذي تحقق منها. إلا أن الجهود الجادة والمشتركة ستعزز من هذه المعطيات وتساعد على رفع مستواها الكمي والكيفي.

حوار مع السيد عباس نبوي
باحث وكاتب من الجمهورية الإسلامية

ترجمة : محمد عبد الرزاق

وحدة المؤسّستين الدينية والجامعية
قراءة في التاريخ والمسارات والأهداف

بدايات تكون نظرية الوحدة بين الحوزة والجامعة ، مشروع الإمام الخميني

منذ زمن وفكرة التقريب بين الحوزة والجامعة مطروحة على طاولة النقاشات. ولعلّ فضيلتكم كان متابعاً للموضوع عن كثب بحكم عمله ومجاله التخصّصي ، فضلاً عن تجربتكم في الدراسة الجاعية قبل أن تنتقلوا للدراسة الحوزوية إبان العقد الأول من عمر الثورة الإسلامية في إيران ، كيف يمكن رصد وتصنيف وجهات النظر حول الموضوع آنذاك ؟

يعود التنظير الأوّل لمشروع الوحدة بين الحوزة والجامعة ، أو بتعبير آخر حوار الحوزة والجامعة ، إلى جهود الإمام الخميني ؛ والقصّة تعود بتاريخها إلى بضع سنوات قبل انتصار الثورة الإسلامية ، عندما أحسّ بضرورة التوفيق بين هاتين المؤسّستين ؛ بغية التوصّل إلى

أفضل النتائج في بناء المجتمعات.

إنّ انعدام آليات ناجحات في توحيد الحوزة والجامعة ستؤول على المدى البعيد إلى تفكيك المجتمع وتشتته، وهذا يعني استحالة قيامة مجتمع. ولعلّ هذه القضية التي توصّل إليها الإمام الخميني؛ فتبناها علناً عبر خطاب له بمناسبة أربعينية الشهيد مصطفى الخميني في جامع الأنصاري بالنجف الأشرف، فتوجّه بشكواه إلى طلبة الحوزة والجامعيين؛ فلام على الحوزويين تقصيرهم في مدّ جسور التواصل مع الجامعيين في الوسط الجامعي، وحذّرهم من أن يتبنّوا مواقف متزمتة أو مناقضة لمواقف الجامعة. كما توجّه باللائمة على الجامعيين ودعواتهم إلى إسلام خال من رجال الدين؛ وقد كانت عباراته صريحة في هذا الخصوص وساءلهم: ما معنى أن تطالبوا بإسلام دون رجال دين؟ ماذا يعني هذا الكلام؟ فقال متذمراً: ليس هذا الكلام مما يحكى ويقال ولا مجال لتطبيقه خاراً، ودعا ـ ضمناً ـ الجامعيين إلى تفعيل الحوار وتوطيد أواصر العلاقة والتفاهم مع الحوزة.

إلى هذه الحقبة تعود بدايات مشروع الوحدة بين الحوزة والجامعة، وقد كانت للمبادرة انعكاسات مختلفة على أرض الواقع تمثّلت في الأفكار والرؤى المنبثقة عن الفكرة وعطياتها العملية. ولعلّ قراءة الخميني للموضوع كانت بما يشبه انطباع السياسيين عن دور اتحاد الحوزويين مع الجامعيين في مجال السياسة والاجتماع، وأن تعامل هاتين الفئتين في هذا المجال يشمل مصداقاً بارزاً لتحقّق الوحدة بين الجامعة والحوزة، وأتذكر جيداً موقف بعض الفضلاء من الحوزة والجامعة من تأسيس الحزب الجمهوري الإسلامي سنة (١٩٧٩م) عندما اعتبروه نتيجة واضحة للوحدة بين الحوزة والجامعة؛ لأنهم اتحدوا فيما بينهم بما ينتج حزباً واحداً جامعاً للفئتين تحت شعار واحد يمكن بواسطته تأسيس مجتمع متماسك متّحد الأهداف والرؤى.

وقد أيدنا ـ بدورنا ـ الفكرة برمتها وكانت الغاية إيجاد الإنسجام والتعامل المنطقي، وهذا ما انعكس جليّاً في أداء الحكومة، حيث كانت الحاجة الملحّة إبان ولادة النظام الإسلامي للفكر الديني والخبرة الجامعية، وهي قضية قد تعثر على ضرورتها اكثر في موضوع تأسيس الجيش واختيار قيادته آنذاك.

وهنا كانت ضرورة الوحدة المنشودة متجية أيضاً بدور الأمناء من الجامعات والنخبة الحوزوية وآرائها الفقهية في إنتاج منظومة موحّدة تدير عجلة النظام السياسي - الاجتماعي بالشكل المطلوب. كنّا سنواجه مرّة أخرى ومنذ السنوات الأولى نظير ما حدث في تأميم النفط وبدايات الحركة الدستورية (المشروطة) ؛ لكن مقولة وحدة الحوزة مع الجامعة ـ على صعيد الدولة ـ ساعدت في تشريح الكثير من المفاهيم، الأمر الذي خلق لنا قاعدة من الحوزويين والجامعيين الموالين للإمام الخميني ومبادئ الثورة، ومن هذه الإرادة القويّة وثب النظام الإسلامي يشقّ طريقه رغم جميع التحدّيات. إن هذه المفاهيم مما يصعب على الأوروبيين والأمريكيين تحليله ضمن أبجدياتهم فعجزوا عن إدراكه، وظنّوا أن تلك الثورة بعامة رجال الدين ستضعف بمرور الوقت وتبرز حاجتها للجامعيين والأكاديميين فتضطر إلى مخاطبتهم، وفاتهم ملاحظة التواصل الديالكتيكي خلف الكواليس بين الحوزة والجامعة، ولعلّ هذا التعامل المضمر والحوارية غير المعلن عنها هي التي خلقت اللحمة بين المكونات الاجتماعية في العهد الأوّل من عمر الثورة، دون أن تكشف عن أسسها وقواعدها المعرفية.

إذن، شهدت الحقبة الأولى دوراً فاعلاً لموقف الحوزة والجامعة الموحّد بوصفه الموجه في الفكر والميدان على أبواب التحولات السياسية ـ الاجتماعية، وكان دوراً مؤثراً بجميع الموازين.

ما تأثير حل الحزب الجمهوري على علاقة الحوزة والجامعة

كيف استكمل هذا المشروع خطواته عقب تجميد نشاط الحزب الجمهوري الإسلامي؟

لا بدّ لنا هنا من رصد المسألة ببعدها الاجتماعي، ونستكشف ما إذا كان مآل الحزب الجمهوري وما قرّره حينها زعماؤه نظراً للانقسام الحاصل بالرأي، هل كان عاملاً في تعميق الرؤى وطرح الأفكار حول موضوعة الوحدة بين الحوزة والجامعة؟ أم كان الأمر على العكس من ذلك؛ فنعتبر فكرة الدمج بين الحوزة والجامعة هي السبب المباشر وراء انقسام الآراء داخل الحزب، أي أنه كان يعيش مخاضات هذه الأطروحة

عشية انحلاله والتوصّل إلى قرار التجميد ؟ أنا أرى أن الثاني أقرب للمنطق والصواب ؛ بمعنى أن الحزب لم يتّخذ قراره نتيجة لمتغيرات سياسية آلت إلى توقيفه ، ومن ثم تفكيك عناصره ، واستعيض عن ذلك كلّه بهذا النوع من البحوث والأفكار ، أجل إن الفكرة كانت قائمة بذاتها قبل أكثر من عامين على قرار الحزب بالتجميد ، وقد انتشرت أصداؤها في الأوساط السياسية والاجتماعية تبحث وتوغل في البحث عن تساؤلات موضوعية ملحّة لم تتوفر الإجابة عليها ، وهذا ما دعا إلى تعدد وجهات النظر بين عناصر الحزب .

كيف بدأ الخلاف الحوزوي الجامعي :

ما هي الدواعي إلى طرح تلك التساؤلات ؟

لقد شهدت الحياة السياسية والاجتماعية في بدايات الثورة تساؤلات عديدة بين الحوزويين والجامعيين ، لكن ثمة توافق نصّ على تجنّب الخوض فيها في هذه المرحلة ، وترجيح الالتفات إلى قضايا الدولة الملحّة آنذاك في ظلّ أجواء الشراكة والوحدة بين الحوزة والجامعة من قبيل : تثبيت نظام الحكم ، وكتابة الدستور الدائم للبلاد ، تشكيل السلطات داخل نظام الحكم . وفي هذا الموضوع بلغ التفاعل بين الحوزة والجامعة أوجه على شتى الصعد ؛ فكنّا نشاهد القضاء مكوناً من عناصر جامعية وحوزوية ، وهكذا في مجلس صيانة الدستور عندما وقف الفقهاء إلى جانب الحقوقيين الأكاديميين في تأدية الواجبات الملقاة على عواتقهم ، والحكم سار على سائر الوظائف الأخرى . أما في مجلس الشورى الإسلامي (البرلمان) فإن قوائم المرشحين في عقد الثمانينات تشير إلى أن التيارات السياسية كانت تسعى إلى توزيع أسماء مرشحيها بين فئة الحوزويين والجامعيين على نحو المناصفة . وقد بقيت التساؤلات مؤجلّة حتى هذه الفترة نظراً للتحفظ ومتطلبات المرحلة ومصالح الثورة الوليدة وعملاً بوصايا الإمام الخميني نفسه في الإبقاء عليها حتى تسنح الفرصة ، لكن هذه الأسئلة الجوهرية الحسّاسة أخذت تبرز للواجهة رويداً رويداً ، لا سيما على أعقاب الحركة الثقافية وما نتج عنها من اهتمام بالغ بالجامعة الإسلامية ، فبدأ الحديث حول كفاءة العناصر الحوزوية ومدى فاعلية التحام الحوزة مع الجامعة وما

سينتج عن ذلك من حقائق ملموسة على أرض الواقع ؟ وما منهجيتها الفكرية ونظرياتها المعرفية ؟ وكيف ستكون المعطيات من النتاج العلمي فاعلة في دورها الاجتماعي فتتحول إلى مبتنيات ثابتة في علم الاجتماع نظرياً وتطبيقياً ؟ الأمر الذي أدّى إلى أن تتحول تلك التساؤلات إلى جدالات سياسية واجتماعية ، فلم يؤخذ معظمها على محمل الجد ، حتى أن بعضها كان يجاب عليه بردود سطحية لا تتناسب وحجم المواضيع المطروحة . وتركز البحث حينها حول التقصير الحاصل في تجريد المناهج الجامعية من المفاهيم غير الإسلامية وتقاعس المسؤولين في ذلك .

أسلمة مناهج الجامعات مطلع الثورة ـ

وقد طرحت المحاولة أكثر من مرّة من أجل غربلة تلك الكتب ووجهت خطة لمركز الدراسات الثقافية والعلوم الإنسانية في طهران ليقوم بالمهمة من جديد فيقدم إحصائيات عن مضامين الكتب الجامعية وما تحمله من رؤى منافية للرؤية الإسلامية ، أي أن المسألة تحولت إلى ردود أفعال سياسية ـ اجتماعية وسجالات من هذا النوع . لكن التساؤلات بقيت على أهميتها ، وبدأ التسؤل عمّا إذا كانت هناك قواسم مشتركة بين الفكر الحوزوي والفكر الجامعي وتلاقيهما في النتاج والعمل ؟ فما هي تلك القواسم ؟ بعد ذلك يأتي دور التساؤل الآتي : هل مع هذه القواسم من ضرورة لوجود منهجية واحدة للحوزة والجامعة في طرح الرؤى المعرفية ؟ فإن انتفت الضرورة ، فما مدى انعكاس التعددية على اتساع رقعة الرؤى والأفكار والاتجاهات ؟ فهل سيحصل تعدد أشكال ووجهات نظر إلى حد التناقض والتباين ؟ أي بأن تصبح منهجية الجاعة مغايرة لمنهجية الحوزة . وإذا حصل ذلك ، فما هي مكتسباته ؟ وكيف سيمتلك الحوزوي مبادئ علمية مشتركة ـ ولو في أدنى مصاديقها ـ مع الجامعي ؟ وما يزال هذا الموضوع آخذاً بالتفاقم على صعيد الفروع العلمية .

كان هذا البعد المعرفي للقضية . علماً أن الاهتمام بالجانب المعرفي لكلا الفئتين كان مغيّباً في الوقت ذاته .

نعم ، فالمسلمات المنتجة للعلم لم تكن جميعها معرفية ؛ حيث كان بعضها هادفاً ، وبعضها الآخر اتخذ طابعاً نفسانيّاً ، أي غلبت

الفرضيات النفسانية ـ كما يعبّر عنها علماء الاجتماع ـ على فئة معية كالحوزة أو الجامعة، وبهذا كله يتأثر الجانب العلمي، ومن أبرز مصاديق ذلك، الجدلية المطروحة حول الحرية العلمية المطلقة، وهي من المواضيع التي ربطها الغرب بالدواعي النفسانية خلال العقود الأخيرة.

ونعني بالدافع النفساني نزعة الفرد نحو الحرية المطلقة في استنتاجاته العلمية، لكن هذا لا يعني أن يكون الباب مفتوحاً فيما يخصّ وسائل تحصيل ذلك العلم وكيفيما اتفق، فيعطي العالم الضوء الأخضر في توظيف كل شيء، هذا ما حصل فعلاً في الغرب وعندنا على صعيد النقد التأويلي خاصة، دون أن يسمح بذلك النقد بالتعليق على النص الديني ذاته، فنحن اليوم نعلّق ونكتب في تفسير النص الديني، مع حظر الخوص في نقد ذاتيات النص، وهو ما يستلزم تناقضاً معرفياً آخر، أي سلب البعد المعرفي عن مصدر الوحي.

سطحية أكثر مشاريع الوحدة بين الحوزة والجامعة

إن هذا الموضوع يستبطن بين ثناياه قضايا عديدة، منها الكشف عن مدى تلاقي الواعز والدافعية النفسية لدى الحوزويين في تعليمهم الديني، مع نظيره عند الجامعيين، وما هي سبل التوفيق بينهما؟

يظهر أنه كانت هناك تنظيرات أُخرى في الموضوع، منها الدعوة إلى الوحدة الاستراتيجية والتنظيمية أو البراغماتية، وهي دعوات ظلّت متأرجحة بين المدّ والجزر، وكنت قد قدّمت بحثاً إلى المؤتمر المنعقد بخصوص الوحدة بين الحوزة الجامعة عام (١٣٧٣ش/١٩٩٤م)، استعرضت فيه سبع أو ثماني نظريات في هذه الباب، وهناك تطرّقت للنماذج التي ذكرتها بإسهاب؛ حيث أشرت إلى سطحية أكثر تلك التنظيرات من قبيل الدعوة إلى الوحدة على صعيد المؤسسات والعناصر فيها؛ فكان يعتقد أنه من الممكن دمج إدارات الحوزة بإدارات الجامعات فنؤسّس بذلك منظومة تجمع بين كيان مؤسسات العلوم الدينية والعلوم الأكاديمية على حدٍّ سواء، وهي التي تنظّم شؤون الحوزة والجامعة في آن واحد.

وقد قدّم بعض طلبة الحوزة والجامعة ممّن كانوا على تواصل فيما بينهم أطروحة

موسّعة في هذا الخصوص، وأرسلوها إلى كل من مجلس التعليم العالي في الحوزة، ومركز الدراسات الاستراتيجية بمقرّر رئاسة الجمهورية. وتضمنّت الفكرة تعطيل الدراسة في الحوزة والجامعة لعدّة سنوات؛ بغية إعادة تشكيل مفاصلهما من جديد وفي قالب واحد.

هل يعني أنهم قدّموا للعلم أنموذجاً يصبّ في خدمة السلطة؟

لا، لم يقصدوا ذلك، إنّما كان غرضهم تأسيس بيروقراطية تخرجهم من مأزق الحوزات الراهن، وكأن المشكلة في انتشار المدارس الدينية في أبنيتها وتشتتها، وأن معضلة إدارات معاهدنا الدينية هي في فقدانها تطبيق الآنيات البيروقراطية فقط.

فإذا افتراضنا لها بناية مكوّنة من طوابق في كل طابق كادر يدير اختصاصه، كأن يكون التحقيق في حقل الفلسفة في طابق، والفقه في طابق آخر، وهكذا سائر الفروع الأخرى، فسوف تتطوّر الحوزة أسوةً بأختها الجامعة فيتحد الاثنان عملياً!

هذه انطباعات البعض عن مشروع الوحدة، وهو انطباع غير ناضج، وقد يكون بعض المسؤولين تحدّث بما يشبه ذلك الانطباع، من طلب هدم المباني القديمة لكل من الحوزة والجامعة وإعادة بنايات متحدة الشكل والمساحة، زعماص منهم أن ذلك سيجعل الحوزة جامعة والجامعة حوزة.

وبهذا المنظار ذاته كان ينظر للوحدة بين الأعضاء والكوادر؛ لكنها اختلفت بالنسبة لتوحيد العمل البراغماتي، نظراً لصعوبة التوفيق بين آليات الحوزة في تحصيل العلم وآليات الجامعة؛ ذلك أن العملية شائكة تختلف خيوطها باختلاف الفئتين، لكن الأهم من ذلك هو توحيد المعطيات الونتاج الفكري لهما؛ فبواسطتهما تحاك الحُلة التي تكسو قامة المجتمع. أعود لأذكر بصعوبة تحقيق الوحدة على صعيد الأداء العملي والبراغماتي، ومن الوهم والسذاجة أن يقول أحدهم بتبيان المقدمات والمواد ثم من ذلك التبيان يفترض ولادة مفهوم للوحدة!

غائية العلم: هل ذات المعرفة أم السلطة والثروة؟!

فما هي الآليات المتبعة في العملية التعلمية داخل الحوزات والجامعات؟ وما هي القواسم المشتركة بين المؤسّستين؟

عندما تتوحد الأهداف الاستراتيجية بين الحوزة والجامعة على مدى خمسين أو مائة عام قادمة بما يخدم الواقع الاجتماعي، حينها سيمكننا أن نقدِّم تصوراً عن آليات مشتركة في طريق تحصيل العلم والمعرفة، والشراكة في تأسيس المجتمعات.

لقد طرح فلاسفة الاجتماع في القرنين الماضيين مسألة غاية في الأهمية، وهي هل أن أهداف تحصيل العلم جزء من علم المعرفة أم أنها تفوق ذلك؟ وإذا كانت أعلى مرتبة من علم المعرفة فأين يمكن تحديدها وكيف تُعرف؟ وقد بحثت المسألة من قبل الكثرين حول هذا الموضوع، فجاء تعريفه للأهداف العلمية ـ وهو يعيش في القرن الثامن عشر في أوروبا ـ على أنها حقائق ما وراء الأمور العلمية، وليست جزءاً من علم المعرفة. وهنا يأتي دور السؤال الآتي: كيف يمكن تحديد الأهداف؟ وما تعريفها؟

قالوا: إنها تتناسب طردياً ومدى رغبات الإنسان وميوله ومن خلال ذلك يمكن وضع حدّ لها؛ ولهذا أقرّ الغرب شرعية تحصيل الثروة والسلطة بعد عصر النهضة بعد أن كان أمراً محرّماً في السابق، وقال بوجود هدفين أساسيين هما: تحصيل السلطة بأقصى مدى ممكن، وتحصيل الثروة بأكبر مقدار ممكن، ولابد للعلم أن يصبّ في خدمة هذين الهدفين، بينما كانت السمة الغالبة على قصدية تحصيل العلوم في الغرب قبل عصر النهضة ـ وكذلك في الشرق ـ هي طلب المعرفة والعلم لذاته، دون أن يكون لذلك تأثير في الوصول إلى السلطة والثروة؛ ولهذا كان التراث الفكري قبل عصر النهضة في شتى أنحاء العالم تراثاً معرفياً خالصاً، ولم يكن موضوع السلطة أو الثروة مطروحاً آنذاك، ثم أثير ذلك بعد عصر النهضة، وهذا ما يفسّر لنا تقدم العلوم الفيزيائية والميكانيكية في الغرب وإقبالهم عليها، نظراً لفاعلية تلك العلوم في التوصّل إلى السلطة والثروة، مع أن الاتجاه الفكري كان يحوم حول قضايا أخرى، وبعد اكتشافهم «البارود» بدأوا ببسط هيمنتهم على مساحات واسعة من العالم.

إذن، كان الغرب قد وظف العلم نحو هدف عمره عدة قرون من الزمن ومن العالم انتج الثروة والسلطة معاً. وكذلك يتحتم علينا أن نحدد للغاية العلمية أهدافاً مشتركة على المدى البعيد.

هل أن تحقيق ذلك بحاجة إلى فلسفة

مشتركة تنظّر وتنظّم ؟

لا حاجة لذلك، وأنا لا أرى عمل أولئك الذين يسعون إلى ربط كل شيء بفلسفة القطعات الشطرنجية إلا مضيعة للوقت على أنفسهم وعلى الحوزة والجامعة. لقد ذكرت لحكم أن هذه المسائل خارج حدود العلم والفلسفة. وقد بحثت هذا الموضوع مفصلاً في محلّه، وهناك أشرت إلى أنه بإمكاننا أن نفترض للدين دوراً في هذا الخصوص، لا أن نتصور للدين مدخلية في توحيد جميع المفاهيم العلمية والمعرفية، فهو ليس بالأمر الممكن من جهة، ولا هو مطلب من مطالب الدين من جهة أخرى. لكن بإمكان الدين أن يلعب دوراً فيمجال هام وحسّاس فيما يخصّ تلك الأهداف نفسها، وذلك من خلال فهم إجماعي بالاعتماد على النصوص لا الظواهر، فأنت عندما تراجع النصوص الدينية تجدها واضحة في ترسيم تلك الأهداف بما لا يترك مجالاً للشك، أي أننا نعلم أن الدين ورسالته الخالدة لم تحرّم تحصيل السلطة والثروة، لكنّه وضع ضوابط وشروطاً لذلك، وليست ثمة حاجة للخوص في تفاصيل الشروط، بل يكي استبيانها بشكل عام وفهم مضامينها، فلا داعي للاستغراق في أقسامها وتصنيفها.

مجلة «الحوزة والجامعة»

لعلّنا لو تمعّنا في مصادرنا وتجاربنا وجدنا الكثير من المقاربات والأفكار المشتركة بين مراكز العلم التقليدية والجامعات الحديثة؛ فعندما صدرت مجلة (الحوزة والجامعة) في إيران سنة (١٣٧٣ش/١٩٩٤م) وشمل توزيعها الدول الأخرى، كانت مثار دهشة من حيث عنوانها البارز بغض النظر عن محتوى المقالات المنشورة فيها، وكان من جملة المقالات بحث للسيد فيلين ريتشارد - الأستاذ بجامعة نيويورك - تحت عنوان (إلهيات لكلّ الأديان)، ترجمه بعض الزملاء ونشرناه في هذه المجلة، ثم أرسلنا نسخةً منه للأستاذ المذكور مصحوبة برسالة، وقد أجاب عليها شاكراً.

كما أوصلنا المجلة لأصدقائنا في جامعات ألمانيا وبريطانيا، وقد سمعنا بعد مضي خمسة أو ستة أشهر من ذلك الحين، بأن موضوع الحوزة والجامعة أخذ يشقّ طريقه إلى بحوث الجامعات الأوربية. وكان قد ولني فاكس من شابين أحدهما من جامعة (بون) الألمانية، والآخر من جامعة

(فرانكفورت) ذكرا فيه أنهما اختارا موضوع الوحدة بين الحوزة والجامعة عنواناً لبحوث تخرّجهما ، كما طلبا زيارة إيران لهذا الغرض .

كيف فهمت إيران والغرب مسألة العلاقة بين الحوزة والجامعة :

إذن ، ما حقيقة مشروع الوحدة بين الحوزة والجامعة ؟

لقد فسّر الأوروبيون ذلك بوصفه هدفاً سياسياً ، وهكذا كان انطباعهم تجاه دعوة الإمام الخميني ، وإصدار المجلة المذكورة ، فمثلاً كانوا يقولون عنّا : لعلّ قواهم أوشكت على التشتّت والانحلال ، فقرّروا إصدار المجلة محاولةً منهم في لمّ الشتات والتقريب .

كان جمع من الطلبة الألمان يطلب زيارة مدينة قم في إيران للدراسة والبحث حول الحوزة ، وكان تجمّعهم يضم بعضاً من ذوي الأصول الإيرانية المقيمين بألمانيا ، بالإضافة لسيدتين ، وعندما بدؤوا زيارتهم كانوا يدهشون بما يلمسونه من حقائق على أرض الواقع ، حتى أن أحدهم حدثني عن استنتاجاته ، وقال : إنه بعث بها إلى أساتذته يخبرهم فيها بما وقعت عينه عليه ، فوجده مغايراً لأفكارهم وفهمهم تجاه الموضوع .

إن مشروع وحدة الحوزة والجامعة عبارة عن نظرية لها بُعدها الواسع والمعمّق ، ولو أن الغرب اهتموا بها لما دخلوا في العلمانية بهذه السهولة ، فلو دقّقنا في الخلفيات والأسباب جيداً لفهمنا الحقيقة التي عاشها الغرب من انفعالات لا موضوعية جاءت نتيجة للحروب التي خاضها الشعب الأوروبي ، والنزاعات السلطوية و. . تلك العوامل كلّها حالت دون ابتكار طريقة مجدية للتعامل بين قواعد الفكر الديني والعلوم الحديثة . فلم يكن ثمة تواصل بن الكنيسة والمفكّرين خلال القرون الثلاثة الماضية إلا على الصعيد الروتيني الصوري ، وهذا ما ظلّ سائداً حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما كانت الحكومات الأوروبية ـ بوصفها دولاً مسيحية ـ تدعو أحد الأساقفة للاشتراك في الاحتفالات الرسمية ، ولم يكن حضور

الكنيسة يتعدّى هذا الحدّ إطلاقاً.

لقد كانت رؤية الإمام الخميني هي الأكثر محورية في عهد الصحوة الإسلامية التي شهدت بدورها انتصار الثورة الإسلامية في إيران؛ وليست فكرة الوحدة بين الحوزة والجامعات إلا من بنات أفكاره المبتكرة. وقد اتصلت ـ بحكم رحلاتي خارج الوطن ـ بالعديد من المفكرين في دول الشرق الأوسط وأفريقيا ورجال الدين هناك، فلم ألمس بوادر تتصل بهذا النوع من التفكير والتنظير للوحدة بين الحوزة والجامعة. وهكذا الحال بالنسبة للمراكز الدينية عند أهل السنّة التي كان يهيمن عليها الفكر الأصولي التقليدي. وغالباً ما أجد مفكّرينا يقرؤون هذه المسألة بمنظار ضيّق، فيعتبرون ـ مثلاً ـ تأسيس الأزهر على الطراز الحديث عاملاً يقضي بالضرورة إلى كون الدين في مصر حديثاً ومتطوراً أيضاً. وليس هو كذلك أبداً.

كذلك الغربيون لم يكن لديهم الدافع لملاحقة مثل تلك الطريقة في التعامل المتبادل كما لا يجدون حاجة إلى ذلك حالياً، فالمفكّرون والجامعيون في العالم الغربي ينظرون للكنيسة التي كانت تقودهم للمشانق قبل ثلاثة قرون، أنها تقاد في نهاية القرن العشرين إلى المشنقة ذاتها وعلى أيديهم هذه المرّة، ولذا لا يجدون مبرّراً لإحيائها وفكّ حبل المشنقة عن رقبتها؛ لكي يفكروا بعد حين بسبل التعامل معها.

هنا تجدر الإشارة إلى مسألة هامّة جداً بحاجة إلى دراسات معمّقة، وهي قدرة الفكر الديني على تفهم التحولات الطارئة على العالم وكيفية التعامل معها، فأنا أعتقد أنه يمكننا إثبات عجز الفكر الديني في الأديان السماوية السابقة للإسلام عن ذلك، سواء كانت المسيحية أم اليهودية، وحتى الفكر الديني المؤسَّس في ظل في ظلّ الاتجاه السلفي عند أهل السنّة، فجميع هذه المذاهب والنحل لا يمكنها استيعاب الأهداف الاستراتيجية بآفاق جديدة، أو خلق أجواء مساعدة على التفاهم المتبادل. أما التشيع فيتمتع بكل الوسائل التي تؤهله

للقيام بكل تلك المهام، لا من حيث كونه مذهباً وحسب، بل بوصفه رؤية معرفية مترامية الأطراف. ولذا تجد من بين نتاجات التشيّع نشاطات قام بها علماؤه أمثال الشيخ الأنصاري والآخوند الخراساني والنائيني، مما يرفد رؤية المذهب ويوسع من آفاقها. فماذا كان يجري لو انتشر الفكر الإخباري ـ لا سيما في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة وسامراء ـ فتغلّب على عامّة المذهب الشيعي؟ لكان ذلك ـ دون أدنى شك ـ عائقاً أمام المؤهلات واتساع الأفكار، لكن جهود علمائنا الأصوليين والحكماء الشيعة اسهمت كثيراً في الحفاظ على تراث يعيننا على التعامل مع الآخرين وتفهّم مواقفهم.

الشيخ محمد مهدي الآصفي ﷺ
عالم ومفكر اسلامي

المناهج والآليات النظرية والميدانية
لحركة التقريب في العالم الاسلامي

المجلة قد دأبت على إعادة نشر فكر ومقالات
الشيخ الآصفي تخليداً لهذا العالم الجليل وفكره النيّر

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٩٢

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ المؤمنون: ٥٢

علاج الفتنة

إن مكافحة الفتن الطائفية والسعي إلى التقريب والتفاهم والتضامن والتعاون بين المسلمين من ثوابتنا السياسية والحضارية والاقتصادية.

وتدخل في تكوين الأمة الإسلامية الواحدة. ومن دونه لا تتحقّق الأمة الواحدة التي جعلها الله أمة وسطاً، وشاهدة على سائر الأمم.

ويتوقف عليها انتصارنا في المعترك السياسي والحضاري والثقافي والعسكري ومن دونها لا يتحقق النصر الذي نسعى إليه في مسيرتنا السياسية والثقافية.

وتتوقف عليها حركتنا الثقافية والعلمية.. فان التقاطع الطائفي والعزلة والانكفاء على الذات يؤدي بالضرورة إلى الضمور الثقافي والعلمي، وبعكس ذلك التواصل واللقاء والحوار الإيجابي يؤدي إلى التكامل العلمي والثقافي في حوزاتنا وجامعاتنا العلمية.

وهذه النقاط الثلاثة تتوقّف على التفاهم واللقاء والحوار والتواصل بين المسلمين ومكافحة الفتن الطائفية.

إنّ هناك ثلاث قضايا رئيسية، لابد فيها من الوعي والوضوح:

ولابد من السعي لنشر وعي سياسي - ثقافي، تجاه هذه النقاط في أوساط الجمهور.

وهذه النقاط هي:

١ ـ وعي الأمة الواحدة.

٢ ـ الصراع الحضاري الذي تخوضه هذه الأمة.

٣ ـ وعي ضرورة الترافد الثقافي والعلمي في حياة هذه الأمة.

واليك إيضاحا سريعاً لهذه النقاط الثلاثة:

١. الأمة الواحدة

هذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى.

وقد ورد هذا المعنى بصراحة في آيتين من القرآن يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾.

﴿ **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾.

وليس معنى وحدة الأمة التطابق الكامل في الرأي والاجتهاد، فان ذلك مما لا يكون.. وإنما معنى ذلك الاتفاق والتفاهم على الأصول والانسجام والتفاهم والتعاون على المواقف السياسية، وتوحيد الولاء والبراءة والطاعة والنصرة.

٢. الصراع الحضاري

سواءًا أردنا أم لم نرد نحن ندخل اليوم في صراع حضاري عسير... والمواجهة العسكرية شكل من أشكال التعبير عن هذا

الصراع.

وهذا الصراع صراع شرس.. وخصومنا في هذا الصرع جبهة واحدة، مهما تعددت توجهاتهم.

وليس من الصدفة أن تتفق أمريكا والاتحاد الأوربي على دعم إسرائيل في كل أعمالها العدوانية تجاه المسلمين، وان تقف إلى جانبها من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار حاجتها إلى المسلمين وعلاقاتها الاقتصادية الواسعة بالعالم الإسلامي.

نحن نواجه اليوم صراعاً حضارياً، سياسياً، اقتصادياً، عسكرياً، من أشرس ما يكون الصراع، وإذا خسرنا الحرب في هذه المعركة المصيرية، فسوف نعود مرة أخرى إلى دورة جديدة من التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية للغرب التي طالتنا من بعد سقوط الدولة العثمانية إلى اليوم.

والانتصار والهزيمة في هذا الصراع ـ في كل أبعاده ـ قضية مصيرية في حضارتنا وتاريخنا. ولا نشك إننا نكسب هذا الصراع إذا واجهنا خصمنا أمة واحد، وصفاً واحداً، وموقفاً واحداً، وذلك إن يد الله تعالى مع الجماعة وعلى الجماعة، وإذا كانت يد الله معنا فلا يتخطانا النصر بإذن الله.

ولا نشك أنّا إذا واجهنا خصومنا مقتسمين على أنفسنا، متقاطعين في مواقفنا وإرادتنا، متخالفين في توجهاتنا، فلا نكسب هذا المعترك الحضاري الصعب.

٣.الترافد الثقافي

الترافد الثقافي من نتائج التقريب بين المذاهب الإسلامية ومن عوامله في نفس الوقت...

وقد كان علماء المسلمين وطلبة العلم يتوافدون على مدارس فقهية من مذاهب واتجاهات مختلفة، وكانوا يتبادلون الإجازات في رواية الحديث. فكان طلبة العلم من العراق، ومعظمهم من الشيعة يفدون إلى الحجاز ومصر والشام ومعظمهم من أهل السُنة، وكان يفد إلى العراق، على مدرسة الحلة، وهي حوزة شيعية عريقة طلبه من الحجاز ومصر والشام والمغرب العربي للدراسة، كما كان لعلماء المسلمين زيارات للأقاليم الإسلامية وكان طلبة العلوم الدينية يلتمسون منهم أن يلقوا عليهم دوساً في الفقه والأصولَين (اصول الفقه واصول العقائد).

واليوم تحتضن الحوزة العلمية في قم، وهي حوزة علمية عريقة تابعة لمدرسة أهل البيت طلبه العلوم الدينية من أكثر من مائة قطرة في العالم من القارات الخمسة، وجملة من هؤلاء الطلبة الوافدين إلى هذه الجامعة من أهل السنة، ولا يجدون حرجاً في الدراسة في حوزة شيعية، كما لا تجد هذه الحوزة حرجاً أن تحتضن طلبة من المداس والاتجاهات الفقهية الأخرى، وتجري دراسة فقه المذاهب الإسلامية الأربعة في هذه الحوزة كما تجري دراسة الفقه الإمامي.

ولهذا الترافد الثقافي والعلمي أثر بالغ في التكامل العلمي والثقافي في المراكز العلمية الإسلامية.

فان الجهود العلمية والثقافية المختلفة عندما تلتقي مع بعض على صعيد موضوعي علمي، غير متشنّج يكون هذا اللقاء سبباً للإثراء والتكامل العلمي والثقافي لكل من هذه الروافد العلمية والثقافية. ويؤدي هذا الترافد إلى التقارب والتعارف بين المذاهب المختلفة، كما أن التقارب والتعارف بين هذه المذاهب يؤدي بالضرورة إلى الترافد العلمي والثقافي.

إن ظاهرة الترافد تؤدي إلى مكافحة وإبطال الفتن الطائفية.. والعكس أيضا صحيح، فأن الفتن الطائفية تقلل من فرص الترافد الثقافي، وتحوّل الثقافة والعلم إلى دوائر مغلقة غير مترابطة، وهذه الحالة من أسباب ضمور العلم والمعرفة دائماً.

وعلى كل حال ظاهرة الترافد الثقافي ظاهرة مباركة في حياة هذه الأمة يجب أن نستعيدها ونجدّدها ونشجعها وندعمها، وهي من أفضل وسائل علاج الفتنة.

وفيما يلي سوف نتحدث عن أبرز النقاط التي تساهم في علاج الفتنة الطائفية وإخمادها. وهذه النقاط الثلاثة هي:

١ ـ الوعي والخطاب

٢ ـ اللقاء والحوار

٣ ـ العمل المشترك

وإليك تفصيل هذه النقاط:

أولاً: الوعي والخطاب

الفتنة الطائفية، كأية فتنة أخرى، تنشأ وتنمو في غياهب الجهل والجهالة.. والفتن في حياة الناس كثيرة، وكلها تتكون وتظهر وتنمو في ظلمات الجهل.

وأفضل العلاج لها ولأمثالها من الفتن هو المعرفة والوعي، فأن النور يكسح الظلمة، والمعرفة والوعي نور يزيل ما يعترضه من الظلمات، والفتن تراكم من الظلمات بعضها فوق بعض.

الوعي والتقوى

إن تحصين المجتمع من الفتن يتم بعاملين اثنين مع بعض، وهما عامل التقوى والمعرفة، فإذا اجتمعتا فأنهما يحصّنان المجتمع من أمثال هذه الفتن.

ومهما واجهنا فتنة من هذه الفتن التي تمحق دين الناس، وتثير الشغب والفوضى، وتحرق الأخضر واليابس فلابد أن يكون من وراء هذه الفتنة عجز في (التقوى) أو (الوعي) أو فيهما معاً.

فهما يحصّنان المجتمع من كل فتنة، ويمنحان صاحبهما بصيرة وفرقاناً، إذا ادلهمت الخطوب والظلمات على الناس.

الوعي السياسي

ومن أهم وجوه الوعي اليوم الوعي السياسي، فان عامل الاستكبار العالمي والمخابرات والمنظمات الجاسوسية العالمية تكمن خلف هذه الفتن.

والمؤسسات الإعلامية (الصحف والفضائيات ودور النشر) تبثّ هذه الفتن بين الناس، وتقوم بتأجيج حرائق الفتنة الطائفية بين المسلمين.

وتجد أنظمة الاستكبار العالمي في هذه الفتن الطائفية فرصة ذهبية لبسط نفوذها في العالم الإسلامي، وتمكّنها من أسواق المسلمين ومصادر الثروة النفطية والمعدنية والمائية والزراعية في العالم الإسلامي... وسوف نبسط الحديث في هذا الجانب إن شاء الله.

والأداة المفضّلة لمواجهة هذه الفتن هي الوعي السياسي الذي يمكن الناس من معرفة خلفيات هذه الفتن وجذورها، والمنظمات الجاسوسية التي تخطط لها هناك في الغرب عبر المحيطات.

ومن واجب العلماء والخطباء والمثقفين الإسلاميين نشر الوعي السياسي بين الناس، وتمكين الناس من اختراق الغطاء الإعلامي وتمكينهم من الدرك الصحيح لما يحصل في الساحة العالمية من فنون اللعبة السياسية، وتحذير الناس من أن يكونوا

ضحايا هذه اللعب والخطط التي تنتجها باستمرار العقلية الغربية تجاه العالم الإسلامي.

وعي الجمهور

ولست اعني بـ(الوعي السياسي) هنا وعي النخبة، ولست أنفي ضرورة الوعي السياسي عند النخبة، وأهميتها، ولكن وعي النخبة لا يغني عن وعي الجمهور، وإذا حلّ الوعي في الشارع الذي يتحرك فيه الجمهور وتسلّح الجمهور بالوعي، لم تعد هذه اللعب السياسية والفضائيات المضللة قادرة على تضليل الناس، وتفجير الفتن في وسط الناس، كالذي يحصل اليوم في العراق وفي بعض الأقطار الإسلامية.

فان الوعي عندما ينزل إلى مستوى الشارع ويثقف الجمهور يحصّنه من أمثال هذه الفتن... والجمهور الذي يمتلك درجة عالية من الوعي السياسي يمتلك درجة عالية من الحصانة تجاه العوامل الإعلامية والسياسية المضللة، ولا تحتوشه الفتن.

والجمهور غير الموجّه، وغير الراشد، هو الوسط الخصب، والتربة الصالحة لأمثال هذه الفتن. وعن طريق التوعية والتثقيف السياسي يمكننا أن نحافظ على سلامة الجمهور ورشده.

والجمهور كما هو تربة صالحة للفتن والضوضاء كذلك، هو وعاء صالح للوعي والعقل والسداد والتقوى.. ويمتلك أعماقا سليمة من الفطرة لم ينفذ إليها الفساد، والقادة الحقيقيون هم الذين يدركون هذا العمق الفطري السليم للجمهور، ويقودون الجمهور إلى صراط الله المستقيم والتقوى، ويحذرونه من مغبّة الوقوع في أمثال هذه الفتن، ويفلحون في ذلك.

إن الثقة بالجمهور، وكفاءاته الكثيرة، وسلامة فطرته، هو رأس مال أولئك القادة الذين يعرفون كيف يخاطبون الجمهور، وكيف يكسبونه.. بعد الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه والاطمئنان إلى وعده بالنصر وتأييده للقلّة المؤمنة في مواجهة أمثال هذه الفتن والتحديات.

الوعي والخطاب

ولابد للوعي من خطاب، كما أن للتضليل السياسي خطاب، ولإثارة الفتنة بين الناس خطاب، ولتغرير الناس وتجهيلهم خطاب، كذلك للوعي خطاب.

ولغة هذا الخطاب لغة العقل، وهي اللغة المفضّلة في خطاب الوعي... إن العاطفة جزء ضروري من خطاب الجمهور لاشك في ذلك، ولكن من الخطأ الاقتصار على العاطفة في خطاب الجمهور.. ولابد من استخدام لغة العقل في خطاب الناس، إلى جانب لغة العاطفة، ولابد أن تكون لغة العقل هي الحاكمة وهي الأصل، ولغة العاطفة تأتي في امتداد لغة العقل، ولإسناد العقل عندئذ يكون الخطاب العاطفي خطاباً صالحاً للجمهور... وأمّا عندما يتمحّض خطاب الجمهور في الخطاب العاطفي فلا يكون مثل هذا الخطاب خطاباً راشداً أميناً غالباً، ولا يكون قادراً على توجيه الجمهور إلى الوجهة الصحيحة...

إن مشكلة الخطاب الإسلامي المعاصر لدى أصحاب التوجهات الطائفية المعاصرة هي الحالة العاطفية الطاغية على هذا الخطاب والحالة الشعارية، ورفض لغة العقل، وحالة الانغلاق على الرأي الآخر، ورفض الطرف الآخر، رفضاً مطلقاً إلى حدود التكفير واستباحة الدماء التي حرّمها الله تعالى إلا بحقها، وقد يكون استجابة الجمهور أحيانا إلى الخطاب الشعاري والعاطفي أسرع من استجابتهم للخطاب العقلاني الرافض للعاطفة.. ولكن يبقى استخدام لغة العاطفة والشعار محضاً وحصراً في خطاب الجمهور ـ خيانة للجمهور مهما كانت استجابتهم لهذا الخطاب، واستخدام لغة العقل ومحكمات الدين في خطاب الجمهور هو الموقف الناصح الأمين من الجمهور، وان واجهه الجمهور أحيانا بالرفض.

وعلى علماء المسلمين أن يتقوا الله في الخطاب، ولا يبتغوا مرضاة الناس في ذلك، فقد يكون في الناس من يستجيب للشعار والعاطفة، وقد يكون الخطاب العاطفي والشعاري أسرع قبولاً في وسط الجمهور.. ولكنه على كل حال خيانة يجب أن يحذرها العلماء الراشدون.

والجمهور الذي يتثقف من خلال الخطاب العقلائي اكثر ثباتاً وصلابة في الموقف، والجمهور الذي يتلقى الخطاب العاطفي الشعاري جمهور متقلب في الرأي، لا يثبت على موقف ورأي، ومسؤولية هذه الحالة المتقلّبة على عهدة الخطاب العاطفي والشعاري الذي يتلقاه هذا الجمهور من حملة الخطاب الطائفي المتشنّج.

مصدر الخطاب

وكما يجب الاهتمام بلغة الخطاب في حياتنا الثقافية والسياسية المعاصرة، كذلك يجب الاهتمام بمصدر الخطاب... هناك خطابات سياسية وثقافية كثيرة معاصرة صادرة من (الولاءات) المنتحلة الوهمية، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وهي ولاءات منتحلة كاذبة في مقابل الولاء لله ولرسوله ولائمة المسلمين وللمؤمنين، وهو الولاء الراشد الصحيح الذي جاء به الوحي من عند الله: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾[1]... وهذا هو الولاء الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ من عند الله، وهو الولاء الذي يوحّد صف المسلمين، ويجعل منهم أمة واحدة في صف مرصوص، مقابل أعداء هذه الأمة.

وللقضاء على هذا الولاء بادر أعداء هذا الدين إلى طرح ولاءات أخرى في مقابل الولاء لله ولرسوله ولأولياء الأمور وللمؤمنين، كالولاء للقوم والوطن والعشيرة، وبذلوا أموالاً طائلة لتثبيت هذه الولاءات في ثقافة المسلمين المعاصرة، من خلال المدرسة، والصحافة، والإذاعة، والتلفاز، وإحياء المآثر الفرعونية والبابلية والكسروية والفينيقية.. إلى غير ذلك.

من خلال هذه الثقافات عملوا على زرع ولاءات وهمية، قومية ووطنية.. مقابل الولاء لله ولرسوله.

ونحن عندما نتحدث عن الخطاب السياسي الذي يجب أن نلقيه إلى جمهورنا يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار مصدر هذا الخطاب... هذا الخطاب يجب أن يكون صادراً عن الولاء لله ولرسوله في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ هَـذِهِ أُمَّـتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ** ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ** ﴾[٧].

أمّة واحدة، وطاعة واحدة، وولاء واحد.

إن لكل ولاء خطاب، وخطاب كل ولاء يختلف عن الخطاب الآخر، ونحن ولاؤنا لله ولرسوله ولأولياء الأمر وللمؤمنين وليس للوطن والقوم والعشيرة.. ولهذا الولاء خطاب يختلف عن خطاب الولاء للقوم والوطن.

ونحن لا نرفض الارتباط بالقوم والوطن إلا أن هذا الارتباط من الانتماء وليس من الولاة والولاء يحكم الانتماء.. فقد حارب المسلمون صدر الإسلام أهلهم وآباءهم وإخوانهم من مكة في الله.

وخطابنا إلى جمهور أمتنا ـ في السراء والضراء ـ يجب أن ينطلق من هذا المصدر، وهو الخطاب الذي يجمع الشمل، ويزرع المحبة والمودة في القلوب، ويؤسس التفاهم والتعاون في الأفكار والأعمال.

الصدق والنصح في الخطاب

ويجب أن يكون الخطاب صادقاً ناصحاً.. وفي خطابنا المذهبي الطائفي المعاصر الكثير من الكذب والافتراء.. ومن يقرأ بعض أدبيات الفتنة الطائفية المعاصرة يجد نماذج كثيرة من هذا الافتراء والكذب، ومن أمثلة هذا الافتراء: الافتراء على الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وهم ينفون عن أنفسهم هذه التهمة، ويصرحون ويكتبون عن صيانة القرآن عن التحريف.

ولو أنك سبرت بلاد المسلمين في كل العالم لا تجد غير هذا القرآن قرآناً يتلوه الناس ويتعبدون به في مشارق الأرض ومغاربها.

وكم يتبادل المسلمون من المذاهب المختلفة الافتراءات فيما بينهم من غير هدى ولا بيّنة.

ولا تختصّ هذه الافتراءات بين الشيعة والسنة، وإنما يتم بين الشيعة أنفسهم، والسنة أنفسهم بما لا يقلّ عما يجري بين

الشيعة والسنة...

وهذا الخطاب الطائفي ينقصه الصدق والنصح..

ينقصه الصدق لأن علماء المسلمين من جميع المذاهب يكتبون ويعلنون ويصرحون أن ليس لله على وجه الأرض كله قرآن غير هذا القرآن، الذي يتلوه المسلمون صباحاً ومساءً.

وينقصه النصح لأن المسلم الذي يهمه أمر وحدة المسلمين وانسجامهم، والذي يأمر الله تعالى به ورسوله لا ينال مذاهب المسلمين بهذا اللون القاسي من الجرح والتشهير والتسقيط، من دون تثبت علمي، بل مع إعلانهم البراءة عما ينسب إليهم من الافتراء.

الشجاعة والصراحة في الخطاب

إن مواجهة ظروف الفتنة الطائفية اليوم تستدعي شجاعة وصراحة في الخطاب وما لم يمتلك حَمَلَةُ الخطاب الإسلامي هذه الشجاعة والصراحة لا يتمكنون من مواجهة الفتنة الطائفية المعاصرة واستئصالها.

إن الحالة التكفيرية المعاصرة واستباحة دماء المسلمين بغير الحق عودة للحالة الخارجية التي ظهرت صدر الإسلام في حرب صفين والنهروان في أيام خلافة أميرالمؤمنين عليه السلام، وولادة جديدة لنفس الحالة.

وهذه الحالة آخذة بالتوسع والنفوذ إلى داخل الحركة الإسلامية المعاصرة.. ولابد أن يمتلك تجاه هذه الحالة علماء المسلمين الجرأة والشجاعة والصراحة الكافية في بيان موقف الإسلام من هذه الجماعة ومن هذه الحالة التي تُعدّ انزلاقاً خطيراً للحركة الإسلامية المعاصرة.

والتردد والتريث في مثل هذا البيان يؤدّي إلى استشراء هذه الحالة وتوسعها، والى حدوث انزلاقات خطيرة في الحركة الإسلامية المعاصرة بهذا الاتجاه.

وقد حرّم الإسلام دم المسلم وماله إذا كان يشهد بالتوحيد لله والنبوة لرسول الله قولاً واحداً بين فقهاء المسلمين.

روى مسلم في الصحيح في فضائل علي عليه السلام: عندما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً في فتح خيبر فأعطاه الراية وقال له: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك، قال: فسار علي

شيئاً ثم وقف ولم يلتفت فصرخ:

يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟

قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم[٨].

وفي الصحيحين بالإسناد إلى مقداد بن عمرو: أنه قال: يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار، فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف، فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، فأقتله يا رسول الله بعد أن قالها، فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله، فان قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وانك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال[٩].

واخرج البخاري في بعث علي عليه السلام وخالد إلى اليمن: أن رجلاً قام فقال يا رسول الله: اتق الله، فقال ﷺ: ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقي الله، فقال خالد يا رسول الله ألا أضرب عنقه، فقال ﷺ: لا، لعله أن يكون يصلي[١٠].

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حرم عليّ دماءهم وأموالهم»[١١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله[١٢].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: «الإسلام يُحقن به الدم»[١٣].

وعنه عليه السلام أنه قال: «شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله ﷺ به حُقنت الدماء وعليه جرت المناكح والمواريث»[١٤].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وحّد الله وكف بما يعبد من دونه حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله»[١٥].

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس إنّي أمرت أن أقاتلكم حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله، فإذا فعلتم ذلك حقنتم بها أموالكم ودماءكم إلا بحقّها وكان حسابكم على الله»[١٦].

وروي الدارمي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّي أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على

الله »[١٧].

عن أبي سعيد الخدري قال: وجد قتيل على عهد رسول الله ﷺ فخرج مغضباً حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « يقتل رجل من المسلمين لا يُدرى من قتله، والذي نفسي بيده لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله في النار »[١٨].

وروى مسلم بن الحجاج في (الصحيح) روايتين عن رسول الله ﷺ نعرف منهما عظيم حرمة « لا إله إلا الله » وحرمة القائل بها، ولو كان القائل بها قد تظاهر بها ليحمي نفسه من القتل، وأنّ هذه الكلمة تعطي قائلها وحاملها من الحرمة ما لا يجوز لأحد انتهاكها إلا بحقه.

روى مسلم أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدّث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ، فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله قال: لِمَ قتلته؟ قال: يا رسول الله اوجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً وسمّى له نفراً، وإنّي حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: أقتلته؟ قال: نعم، قال: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: يا رسول الله استغفر لي، قال: وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، قال: فجعل لا يزيد على أن يقول: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة[١٩].

وروى مسلم أيضا عن أسامة بن زيد أنه قال:

« بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات[٢٠] من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته! قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فمازال يكررها عليَّ حتى تمنّيت أني أسلمت يومئذ »[٢١].

ورغم أن القتيل كان مقاتلاً يقاتل المسلمين في صفوف الكافرين حتى اللحظة الأخيرة، ونطق بكلمة التوحيد في اللحظة

الأخيرة عندما وجد السيف على رأسه، وواضح من كل القرائن أن الرجل شهد بـ لا إله إلا الله خوفاً من القتل وليس عن إيمان، كما قال أسامة بن زيد.. إلا أن رسول الله ﷺ غضب غضباً ظاهراً، وأنكر على أسامة بشدة وقوة، وكرّر إنكاره على أسامة حتى تمنى أسامة أن يكون قد أسلم في ذلك اليوم حتى يكون الإسلام قد جب من ذنوبه ما سبق.

خطبة رسول الله ﷺ بمنى

وهذه الخطبة ألقاها رسول الله ﷺ في جموع المسلمين الغفيرة بيوم النحر بمنى، وقد روى هذه الخطبة ثقاة المحدثين بألفاظ متقاربة ونحن ننقل الخطبة برواية الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام ونشير إلى جملة من المصادر التي تروي هذه الخطبة:

عن زيد الشحّام عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن رسول الله ﷺ وقف بمنى حين قضى مناسكها في حجة الوداع فقال: أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم واعقلوه عني فإني لا أدرى لعليّ لا ألقاكم في هذا الموقف بعد عامنا هذا، ثم قال: أيُّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم، قال: فأيّ شهر أعظم حرمة؟ قالوا هذا الشهر، قال: فأيّ بلد اعظم حرمة؟ قالوا هذا البلد، قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: اللّهم اشهد، ألا من كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، فانه لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه، ولا تظلموا أنفسكم، ولا ترجعوا بعدي كفّاراً»[٢٢].

ثانياً: الجماعة، واللقاء، والحوار

هذه ثلاثة عناوين يحبها الله تعالى، وهي أساس التقريب والتفاهم وجمع الشمل وهي:

(الجماعة) و(الاجتماع واللقاء) و(الحوار والتفاهم).

وهذه الثلاثة هي الأداة المفضلة في دين الله لمكافحة الفتن الطائفية، وإزالة التقاطعات، والوصول إلى الانسجام والتفاهم والتعاون.

وسوف نشرح هذه الثلاثة، ونقف وقفات

قصيرة عند كل واحد منها:

الجماعة (الأمّة)

نقصد بالجماعة: الأمّة الإسلامية الواحدة، وتتميز هذه الأمّة من سائر الأمم في العقيدة والشريعة والرسالة، ورسالتها التعاون والتضامن الاجتماعي على أداء هذه الرسالة والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾[٢٣].

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٢٤].

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ﴾[٢٥].

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢٦].

هؤلاء، جماعة هذه الأمة، يحملون هماً واحداً، ومسؤولية واحدة، هي الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم أُسرة واحدة، متعاونة ومتفاهمة ومتعاطفة (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ)، وهم يؤمنون جميعاً بالله ورسوله، ويطيعون الله ورسوله، فأن الدعوة إلى الله ورسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون إلا مع الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله.

إذن هذه الجماعة تحمل ثلاث خصال:

١ ـ الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله.

٢ ـ الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة..

٣ ـ التفاهم والتعاون والتعاضد والتواصي بالحق والصبر فيما بينهم.

﴿ إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[٢٧].

وعليه فأن مفهوم (الجماعة) بهذا التوضيح يلتقي مفهوم (الأمة).

وهذه الأمة أمة واحدة، وليست أمماً شتى، لا ريب في ذلك.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾.

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾.

وهذه الأمة بعرضها العريض أمّة واحدة، لها عقيدة واحدة وشريعة واحدة ومنهاجاً واحداً، ودعوة واحدة، وسبيل واحد، ورسالة واحدة، يؤدّونها مجتمعين.

وهذه الوحدة والاجتماع في الأداء، وتحمّل المسؤولية، والعقيدة والشريعة والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي التي تجعل من هذه الأمة جماعة واحدة.

وقد ورد التأكيد على هذا الاجتماع والوحدة في الأداء والوحدة في الموقف والعمل في آيات عديدة من القرآن.

منها قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا ﴾ فان الآية الكريمة تحمل معنيين:

الاعتصام بحبل الله، وهذا هو المعنى الأول، وان يكون هذا الاعتصام من قبل الجميع (جميعاً) وهذا هو المعنى الثاني.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[٢٨].

والآية الكريمة كذلك تحمل معنيين:

١ ـ الدخول في السلم.

٢ ـ وان يكون هذا الدخول من قبل الجميع، (كافة).

وقد ورد التأكيد في أحاديث كثيرة متضافرة على لزوم الجماعة منها ما رواه الفريقان عن رسول الله ﷺ في الخطبة التي خطبها في مسجد (الخيف) بمنى عام حجة الوداع، واليك هذا الخطاب النبوي الشريف:

« نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، وبلغها من لم تبلغه، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لائمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون أخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواه، يسعى بذمتهم أدناهم »[٢٩].

وهذا خطاب شريف يتضمن ثلاث دعوات، وأية دعوات؟

١ ـ الإخلاص في العلاقة بالله.

٢ـ والنصيحة في العلاقة بأئمة المسلمين

وأولياء الأمر عليهم السلام.

٣ ـ واللـزوم لجماعـة المسـلمين فـي العلاقة بالأُمة.

وسـلامة الفـرد والمجتمـع بسـلامة هـذه العلاقات الثلاثة:

١ ـ العلاقة بالله.

٢ ـ والعلاقة بأئمة المسلمين.

٣ ـ والعلاقة بجماعة المسلمين.

فإذا سـلمت علاقـة الفـرد بهـذه المحـاور الثلاثة يسلم الفرد وتسلم الأمة.

اللقاءوالاجتماع

ورد في النصوص الإسلامية التأكيد على اللقـاء والاجتمـاع والنهـي عـن الاخـتلاف والتفريق والتقاطع داخل الجماعة المسـلمة، والنهي عن الخروج عن جماعـة هـذه الأمـة والشذوذ عنها.

عن رسـول اللـه صلى الله عليه وآله: «عليكم بالجماعـة وإياكم والفرقة»[٣٠].

وعنه صلى الله عليه وآله: «اثنان خير مـن واحـد وثلاثـة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة. فعليكم بالجماعة، فـان يـد اللـه مـع الجماعـة، ولـم يجمع الله أمتي إلا علـى هـدى، واعلمـوا أن كل شيطان (: البعيد من الحـق) هـوى فـي النار»[٣١].

وعنه أيضا صلى الله عليه وآله: «لا يجمع الله أمـر أمتـي على ضلالة أبدا، اتبعوا السواد الأعظـم، مـن شذّ في النار»[٣٢].

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «الزمـوا السـواد الأعظم، فان يد اللـه مـع الجماعـة، وإيـاكم والفرقة، فـان الشـاذ مـن النـاس للشـيطان، كما أن الشاذ من الغـنم للـذئب، فـلا تكونـوا أنصاف الفتن، وأعلام البدع، والزموا ما عقـد عليـه حبـل الجماعـة، وبنيـت عليـه أركـان الطاعة»[٣٣].

وعن الإمـام الصـادق عليه السلام انـه قـال: «إن قوماً جلسوا عن حضور الجماعة فهـمّ رسـول اللـه صلى الله عليه وآله أن يشـعل النـار فـي دورهـم حتـى خرجوا وحضروا الجماعة مع المسلمين»[٣٤].

وقد جعل اللـه تعـالى فـي لقـاء المـؤمنين رحمة وبركة وخيراً، وجعل اللقاء والحوار مـن منازل رحمته وبركاته...

كما أن الشيطان يجعل من التباعد سـبباً للنفور والقطيعة والخلاف.

واللقاء لا يتمّ من غير حوار عـادة، فهمـا

متلازمان من ناحية اللقاء. وقد رأينا بركات كثيرة في اللقاءات الأخيرة المعاصرة التي تمت في إيران بعد قيام نظام الجمهورية الإسلامية... بين المذاهب الإسلامية فقد كانت هذه اللقاءات مصدر خير كثير في حياة هذه الأمة، تعارف خلالها بعضهم على بعض، وتحابوا، ووجدوا فرصاً واسعة للتفاهم والتعاون، لم يكونوا يعرفوها من قبل... في هذه اللقاءات إرتفع كثير من اللبس والغموض الذي كان ينظر من خلاله بعضهم إلى بعض من قبل، واكتشفوا مساحات مشتركة واسعة جداً في الفكر والثقافة والمعرفة، كانوا يعدونها من قبل مما ينفرد بها بعضهم عن بعض.

(الجماعة) و(الجمعة)

إن اجتماع المؤمنين واللقاء بينهم أمر يحبّه الله تعالى، وما يحبّه الله يجعل فيه البركة والخير، ويجعله من منازل رحمته.

وهذا اللقاء، وما يستتبعه من الحوار يدخل في صلب التشريع.. فقد شرَّع الله في هذا الدين للمسلمين (الجماعة) و(الجمعة) و(الحج)..

ويدخل في (الجمعة) صلاة العيدين الفطر والأضحى.

وهذه الثلاثة (الجماعة، والجمعة، والحج) تجمعات إسلامية ثلاثة تجمع المسلمين من مختلف المذاهب والاتجاهات والاجتهادات.. ولاشك أن الحالة العبادية والذكر جزء لا يتجزأ من هذه الثلاثة... إلا أن حالة اللقاء والاجتماع أمر مقصود في هذه التشريعات الثلاثة من دون شك.

ورغم أن الإنسان يُقبل على صلاته في الخلوات أكثر من الإقبال عليها في الاجتماعات... مع ذلك كله يفضّل الإسلام إقامة الفرائض اليومية جماعة على الانفراد، وذلك نظراً لأهمية التقاء المؤمنين وتواجدهم في ساحة واحدة.

وقد بلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أن رسول الله ﷺ هدد أقواماً كانوا مقاطعين لصلاة الجماعة في المدينة بان يحرق بيوتهم، كما في الرواية.

روى الشيخ الطوسي في التهذيب عن الصادق عليه السلام: أن أناساً كانوا على عهد رسول الله ﷺ ابطئوا عن الصلاة في المسجد، فقال رسول الله ﷺ: ليوشك قوم يدعون

للصلاة (يَدَعون الصلاة ظ) في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم النار فنحرق عليهم بيوتهم »[٣٥] .

وكذلك الاهتمام بأمر (الجمعة) في الإسلام وتحشيد المؤمنين من كل منطقة في جامع عام لإقامة الجمعة، وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام :

« صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإنّ ترك رجل من غير علة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض، من غير علة إلا منافق »[٣٦] .

واجتماع الحج هو الاجتماع الأوسع للامة كلها، تجتمع في موعد واحد ومكان واحد، لإقامة هذه الفريضة، وهو أوسع اجتماع يعرفه الناس على وجه الأرض.. يقيمه المسلمون في كل عام تلبية لأذان أبيهم أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾[٣٧] .

الجماعة والجمعة تجمعان كل الشرائح والمذاهب

وقد حرص الإسلام أن يحضر المسلون بكل مذاهبهم واتجاهاتهم هذه الاجتماعات الثلاثة لأداء الفريضة اليومية وصلاة الجمعة وفريضة الحج مجتمعين.

وكان أئمة أهل البيت يؤكدون لشيعتهم حضور الجماعات والجمعات لأهل السنة.

عن الإمام الصادق عليه السلام : « من صلّى خلفهم كان كمن صلّى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام : « إذا صليت معهم غُفِرَ بعدد من خالفك في قراء البسملة وحضر الصلاة في المسجد ».

وذلك أن الأحناف من أهل السنة يلغون البسملة في القراءة، على خلاف مذهب أهل البيت في اعتبار البسملة جزءً من كل سورة، إلا سورة التوبة.

ويشكو أحد الرواة إلى الإمام الصادق عليه السلام حاله في حضور صلوات جماعة أهل السنة يقول: إن لنا إماما مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم، فقال عليه السلام : « ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لانت أحق بالمسجد منه، فكن أنت أول داخل وآخر خارج، واحسن خلقك مع الناس، وقل خيراً ».

ويقول الإمام الصادق لإسحاق بن عمار: «يا إسحاق أتصلي معهم في المسجد؟ قال: قلت نعم، قال صلّ معهم فان المصلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله».

* * *

إن من الضروري تعبئة الجماعات والجمعات بحضور الشرائح الإسلامية المختلفة من كل المذاهب والطوائف الإسلامية، وكسر الحواجز الطائفية والمذهبية فيهما.

ومن الضروري أن يكون خطاب أئمة الجمعات والجماعات خطاباً تقريبياً وحدوياً توحيدياً، يكسب كل الفرق والطوائف الإسلامية، ولا يفرّقهم ولا يُنَفِّرُهم.

ومن الضروري تعبئة الحج بالحوار الهادف الموجه بين المسلمين في شؤونهم السياسية والثقافية والاقتصادية.

مساحات اللقاء والحوار

أهم مساحات اللقاء والحوار هي المساحة الثقافية والمعرفية والمساحة السياسية والمساحة الاقتصادية.

أ. المساحة الثقافية والمعرفيّة

اللقاء، والحوار الموجّه في شؤون الثقافة والمعرفة يؤدي إلى تقريب وجهات النظر من المذاهب الإسلامية في شؤون المعرفة والعلم، كالفقه وأُصول الفقه والكلام والتفسير.

ويؤدي إلى اكتشاف مساحات مشتركة بين المذاهب الإسلامية في مختلف أبواب المعرفة، ويتبين لهم أن الخلاف في ما بين المذاهب الإسلامية في هذه المسائل لم يكن إلا خلافاً لفظياً، وهم متفقون على جوهر هذه المسائل.

كما يؤدي إلى التكامل والتلاقح العملي لدى الجميع.

وقد كانت هذه الطريقة مألوفة لدى العلماء وطلبة العلوم من المذاهب الإسلامية المختلفة في التردد على المدارس والحوزات العلمية المختلفة لتلقي العلم، رغم اختلاف المذاهب.. وكان لهذا الترافد العلمي والثقافي أثر كبير في إثراء المعرفة والثقافة الإسلامية وتكامل العلوم والمعارف لدى المسلمين.

ب.المساحة السياسية

المساحة السياسية مساحة واسعة... وهذه المساحة اليوم أصبحت مساحة لهواة السياسة والإنتهازيين واللاعبين الدوليين في السياسة، وأن للسياسة لاعبين، يلعبون في هذه الساحة كما يلعب اللاعبون من هواة الشعبذة والمسرح.. ويقيسون العمل السياسي ويفهمونه ويقيّمونه بنفس المقاييس التي يفهم فيها الناس العاب التمثيل السينمائي والشعبذة.. يكذبون ويُكَذّبون حتى يصدقهم الناس، ويستخدمون بيوت أموال المسلمين بسخاء لكسب آراء الناس، ويبطلون الحقائق، ويحققون الزيف والكذب والباطل، بأدوات الكذب والتضليل والتغرير.

وللأسف أن الساحة السياسية في العالم اليوم تحكمها هذه العصابات، إلا ما ندر وشذّ، ولا نطيل في هذا الحديث، وسوف يطول موقفنا بين يدي الله تعالى يوم السؤال الأكبر والمحاسبة الكبرى ﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** ﴾[٣٨] تجاه هذه القضية.

فقد عرف الناس الظالمين، وسكتوا منهم، وجاروهم وتعاونهم معهم، ولم يحركوا ساكناً، ولم يزعجوهم بموقف أو كلمة، وتركوهم يمرحون ويلعبون بمصالح هذه الأمة وقضاياها الكبرى، وينهبون ثرواتها، ويمكّنون أنظمة الاستكبار العالمي من بلاد المسلمين، إلا القليل النادر، الذين نهضوا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجابهوهم بكلمة الحق، وكسروا كبريائهم وأذلوا غرورهم.. وهؤلاء قلة في هذه الأمة، ولكنّها قلة مباركة.

والسبيل الوحيد إلى طرد هذه العصابات السياسية الانتهازيّة من الساحة الإسلامية السياسية هو حضور جمهور المسلمين في هذه الساحة، حضور إيمان ووعي وعطاء.

إنّ حضور الجمهور في الساحة يغيّب هذه العصابات، ويسلب منهم الأضواء التي يتألّقون بها، وتكشفهم وتعرّيهم.

وهذا الحضور عبادة، بحكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّه يطرد حملة المنكر من الساحة، ويفتح المجال للمعروف والعاملين به.

هذا الحضور عبادة، كما أن الصلاة والصيام عبادة، وهو من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

شريطة أن يكون هذا الحضور عن وعي

وبصيرة، وليس حضوراً غوغائياً انفعالياً، وبشرط أن يحمل هذا الحضور خصلة المقاومة والعطاء، وليس حضوراً واهياً ضعيفاً انفعاليّاً تفرّقه طلقات من الرصاص والغازات المسيلة للدموع.

وبشرط أن يكون هذا الحضور حضوراً وحدوياً، تتجسّد فيه وحدة الصف.

ويتم الحوار فيه على أساس مصلحة الإسلام الكبرى، ويتعامل الجمهور في هذه الساحة من منطلق (الأمة الواحدة)، ويتفقون فيها على موقف واحد ورأى واحد.

إنّ مثل هذا الحضور واللقاء والحوار عندما يعمّ الساحة الإسلامية وينتشر في العواصم والحواضر والمراكز الإسلامية، يكون له دور كبير في توجيه قضايانا السياسية... ولست أريد أن أَشُطَّ في الخيال وأقول: أن حضور الناس في المساحة سوف يؤدي إلى تغيير شامل لأوضاعنا السياسية الفاسدة في العالم الإسلامي، ولكنني أقول أنّ هذا الحضور الواحد الشامل سوف يُعدّل كثيراً من قرارات الأنظمة السياسية الكبرى، مثل قرار (التطبيع)، وتبادل السلام بالأرض في فلسطين، والموقف من الإحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان والموقف من المسألة النووية الإيرانية، والموقف السلبي الذي اتخذته الأنظمة العربية من (حماس) في خلافها مع (منظمة التحرير الفلسطينية)، تبعاً للموقف الأميركي - الاوربي - الإسرائيلي، والموقف من التأييد الأمريكي لإسرائيل والرفض الأمريكي للمقاومة الإسلامية في لبنان وفلسطين (حزب الله وحماس والجهاد)، والتفكيك بين (المقاومة) و(الإرهاب)، واحترام الأول وتبنّيه ونبذ الثاني ورفضه...

إنّ مثل هذا اللقاء والحوار في الساحة الإسلامية العريضة من أهم ضرورات المرحلة، شريطة أن نحصّن هذا اللقاء والحوار من نفوذ الأنظمة واختراقاتها، فان الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي، تملك من وسائل اختراق الساحة ما يهدّد وحدة الساحة ووعيها، ويؤدي إلى تفريقها وتضليلها، وقد شاهدنا في حياتنا السياسية المعاصرة نماذج كثيرة من هذا الاختراق والتضليل والتجهيل والتفريق.

شروط اللقاء والحوار

ولكي يكون هذا اللقاء والحوار نافعين يجب أن يتوفر فيهما الشروط التالية:

١. تقديم مصلحة الإسلام العليا..

فقد تتدافع الأطراف الإسلامية فيما بينها، ولا يصلون إلى قناعة مشتركة، عند ذلك يجب عليهم أن يقدّموا المصلحة الإسلامية العليا على كل مصلحة.. وقد كان أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قدوة لكل المسلمين في ذلك.. يقول عليه السلام فيما جرى عليه من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في تقديم الآخرين عليه في أمر الولاية والخلافة وتنحيته عن حقه في هذا الأمر:

« فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي أن العرب تُزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته، ولا أنهم مُنحّوه عني من بعده، فما راعني إلاّ انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي (عن البيعة)، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يّدْعُون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إنْ لم انصر الإسلام وأهله إن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة بها عليّ أعظم من فوت ولايتكم »[٣٩].

٢. حسن الظن في التعامل والحوار

إن سوء الظن إذا استولى على الناس في علاقة بعضهم ببعض أفسد اللقاء، وكانت نتائج اللقاء سلبية.. وإن سوء الظن آفة كل لقاء وحوار وعمل مشترك... وقد نهانا الله تعالى عن سوء الظن في دائرة العلاقات التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، بقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾[٤٠].

إن تعاطي سوء الظن في العلاقة يفسد العلاقة ويلغيها.

٣. العقلائية في اللقاء والحوار:

عندما نكون في منعطف تاريخي حساس، كالمنعطف الذي تعيشه الأُمّة الإسلامية اليوم.

وعندما تكون الأمة الإسلامية ناهضة، وتخوض صراعاً مريراً في مواجهة الأنظمة المرتبطة بعجلة الاستكبار العالمي وأنظمة الاستكبار العالمي التي تقف خلف هذه الأنظمة.

وعندما تُحشّد أنظمة الاستكبار العالمي كل إمكاناتها لمواجهة التيار الإسلامي العظيم الذي يعم كل العالم الإسلامي.

وكان الموقف بيننا وبين الاستكبار العالمي موقفاً تاريخياً مصيرياً فاصلاً...

أقول عند ذلك فإنّ من أفدح الأخطاء في ظروف صعبة وعسيرة مثل هذه الظروف أن تغلب العاطفة والانفعال والشعار على مواقفنا السياسية ولقاءاتنا وخطابنا لجماهيرنا وحواراتنا المتبادلة داخل البيت الإسلامي الكبير.

إن لغة العاطفة والانفعال والشعار، كما هو نافع في إثارة الهمم وإنهاض الجمهور يُمكنُ أن يتحول في بعض الحالات إلى ألغام سريعة الانفجار تُحَوّل الساحة إلى ساحات للسجال والجدال العقيم الضار.

ونتمنى، لو أن طرفاً أو جهة أو شخصاً أراد أن يستخدم هذه اللغة في إثارة التشنج في صفوف المسلمين، ويعكر صفو العلاقات الإسلامية داخل الصف الإسلامي... نتمنى أن يواجهه الآخرون بالعقلانية الإسلامية والدعوة إلى ما يأمرنا الله تعالى به من الاعتصام بحبل الله ﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ** ﴾ والنهي عن التفرقة ﴿ **وَلاَ تَفَرَّقُواْ** ﴾.

٤. الوعي السياسي

إن الحالة السياسية والإعلامية في العالم، والعلاقات السياسية والاقتصادية بين أنظمة الاستكبار العالمي، والأنظمة التابعة لها في العالم الإسلامي، والعلاقة بين السياسة والإعلام... حالات معقدة شديدة التعقيد، ويدخل في تكوينها عوامل غير مرئية كثيرة، وما يظهر على السطح من التصريحات والعلاقات لا يعبّر عن كل شيء...

اذكر في المصالحة التي تمت بين نظام عربي وإسرائيل بالوساطة الأمريكية وتصافح زعيما الطرفين أمام أضواء الكاميرات في حضور الرئيس الأمريكي فاجأ الرئيس الأمريكي المسؤول العربي بالسؤال التالي:

منذ كم كانت لكم علاقة وارتباط ولقاءات مع المسؤولين في إسرائيل؟

فقال المسؤول العربي الكبير مأخوذاً بهذه المفاجأة ممتعضاً من هذا الإحراج: منذ عشرين عاماً.

إن هذا السؤال والجواب يكشف عن الاحتقار الأمريكي لجملة من زعماء الأنظمة العربية الذين تحميهم أمريكا نفسها، ويحمون مصالحها، كما تكشف عن عمق الفساد السياسي في طائفة من الأنظمة العربية.

منذ عشرين عاماً يتعامل مع إسرائيل،

ويتعاطى معها، ويلتقي بقادتها في لندن وواشنطن.. ولا يعرف الناس على سطح الإعلام السياسي عنه إلاّ لغة الشجب والتهديد لإسرائيل..!!

إن هذه الأنظمة السياسية، بين الواقع والتصريحات التي يقدمونها للإعلام، تشبه الكتل الثلجية العائمة على مياه البحار تسع أعشار منها غاطسة في الماء لا تُرى وعُشْرٌ منها فقط تظهر على سطح الماء...

إنّ هذه الأنظمة بين واقعها الغاطس في مستنقع العلاقة بأنظمة الاستكبار العالمي، والشطر الظاهر المسموع والمرئي منها في الإعلام تشبه هذه الكتل الثلجية.. ومن افدح الخطأ أن نتعامل مع هذه الأنظمة من خلال الإعلام المرئي والمسموع، ومن خلال الخطب والتصريحات السياسية التي يطلقوها بين حين وآخر.

إن لقاءاتنا السياسية وخطابنا السياسي يجب أن يمتلك خلفية غنية من الوعي السياسي والإحاطة بالظروف السياسية المعقدة، والمعرفة بالخلفيات السياسية التي تقع خلف المواقف والقرارات والتصريحات السياسية.

ومن دون هذا الوعي السياسي سوف يقع جمهورنا وساحتنا في تخبّط سياسي واسع... ونحن قد تحدثنا عن ضرورة الوعي السياسي وأهميته الكبيرة في هذه المرحلة... وعلى علماء المسلمين وخطبائهم ومثقفيهم والحركات الإسلامية إشاعة الوعي السياسي ونشره في الأوساط الإسلامية الشعبية.

١.٥ الحوار بالتي هي احسن

قد ينقلب الحوار إلى جدال عقيم، بل ينقلب إلى عائق يعيق حركة الأمة، وحجاب يحجب المسلمين بعضهم عن بعض، وقد يكون الحوار جسراً للتفاهم والتعاون والتلاقي في المساحات المشتركة السياسية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمة، وذلك عندما يكون الحوار بالأسلوب الذي علّمنا الله تعالى بـ(التي هي أحسن)، وأقوم للعلاقة الحسنة والتفاهم بين المسلمين، يقول تعالى: ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[٤١].

ويقول تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ** ﴾[٤٢].

ولا سبيل لدفع (نزغ الشيطان) في العلاقة بين أطراف هذه الأمة إلا أن يخاطب

بعضنا بعضاً بأحسن ما نستطيع عليه من القول.

٦. تحصين اللقاء والحوار:

إن علينا أن نحصّن هذه اللقاءات والحوارات الإسلامية من نفوذ الأنظمة التي تقع تحت سلطان أنظمة الاستكبار العالمي واختراقها، فإنّ هذه الأنظمة تملك من وسائل الإعلام والاستخبار ما يمكّنها من اختراق هذه اللقاءات والحوارات، وإحباطها وإفسادها... ولكي نتمكن من تفعيل هذه اللقاءات واستثمارها يجب علينا أن نحصّن هذه اللقاءات من نفوذ هذه الأنظمة واختراقاتها.

أحاديث أهل البيت في ضرورة اللقاء والحوار

كان أهل البيت يوجهون شيعتهم واتباعهم دائماً إلى اللقاء والاجتماع بأهل السنة، والحضور معهم في جوامعهم، واجتماعاتهم، ومجالسهم، وندواتهم، وينهونهم عن الابتعاد عنهم، ويؤكدون لهم بضرورة التواجد في الساحة الإسلامية العامة، وحضور الجمعات والجماعات، وتوحيد المواقف في الحج، ولم يردنا ـ ولا حديث واحد ـ عن انفراد أئمة أهل البيت في موقف من مواقف الحج عن الموقف العام الذي كان يحدده الحكام في تلك البرهة، لعامة المسلمين.

وقد تصدى بعض المنحرفين عن أهل البيت للدسّ في أحاديثهم لعزلهم وعزل شيعتهم عن الوسط الإسلامي الكبير.. وكانت هذه الأحاديث على أنحاء، منها أحاديث الغلو، ومنها أحاديث التحريف، ومنها أحاديث فيها تخليط في الفقه، ومنها أحاديث فيها انتقاص وتسقيط لأهل البيت، ومنها أحاديث في الطعن واللعن على خصومهم.

وكانوا يعملون لإشاعة هذه الأحاديث عنه وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المعنى: «إنا أهل بيت صادقون، لا نخلو من كذّاب يكذب علينا، فيسقط صدق كلامنا بكذبه»[٤٣].

وعنه عليه السلام أيضاً: «إن المغيرة بن سعيد دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي، فاتقوا الله، ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبيّنا»[٤٤].

وروي عن يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: « إن أبا الخطاب كذّب على علي بن أبي طالب عليه السلام. لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب، يدسّون من هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبدالله عليه السلام فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن »[٤٥].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث إلى ابن أبي محمود: « يابن أبي محمود، إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا، جعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا، ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا »[٤٦].

وقد كان أئمة أهل البيت يعملون لكسر هذا الطوق عنهم وعن شيعتهم بتكذيب هذه الأحاديث وفضح الوضّاعين الذين كانوا يضعون عليهم من الحديث ما لم يتحدثوا به والتأكيد على رفض كل حديث يروى عنهم يخالف القرآن.

فكانوا يقولون: « فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبينا »، « فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن »[٤٧].

وكانوا يطلبون من فقهاء شيعتهم ورواة أحاديثهم أن يتحرّوا الأحاديث الصادقة المروية عنهم ويحذروا ما وضعه النواصب والمنحرفون عنهم عليهم من الأحاديث المنتحلة، وكانوا يضعون لهم الأصول والقواعد العلاجية لمعرفة الأحاديث الصادقة، وكانوا يدعون شيعتهم للتعايش مع سائر الطوائف الإسلامية، والانفتاح عليهم، والتعاطي العلمي والثقافي معهم وحضور اجتماعاتهم وصلواتهم.

وكانوا لا يرضون لشيعتهم أن يعتزلوا الوسط الإسلامي العام، فهم جزء من هذه الأمة الكبيرة، واختلافهم عن أهل السنة في بعض الفروع والأصول، ومقاطعتهم للحكام الظلمة الذين كانوا يحكمون المسلمين في العصر الأموي والعباسي لم يكن يحمل معنى الاعتزال عن الساحة والانقطاع عنها.

وقد كان أئمة أهل البيت يعيشون معهم وفي أوساطهم، ويجتمع إليهم المسلمون من كافة المذاهب والاتجاهات، ويحضرون مجالسهم، ويأخذون منهم العلم، ولو أحصينا أهل العلم الذين أخذوا العلم عن

الإمام الباقر والصادق عليهما السلام لوجدناهم أُمة كبيرة من أهل العلم، وكانت مجالسهم ومحاضرهم عامرة بفقهاء المسلمين وحملة الحديث النبوي وأهل العلم من كل اتجاه ومن كل بلد... وهذه الحالة يعرفها جيداً من يعرف حديث أئمة أهل البيت وسيرتهم، وهي تعبّر عن حالة الانفتاح والتعايش المذهبي الإيجابي السليم لكل الاتجاهات والمذاهب الإسلامية. في الوقت الذي كان أهل البيت يرسمون ويوضحون لشيعتهم وللمسلمين عامة الخط الفكري الصحيح في الأُصول والفروع بوضوح وصراحة وبشكل دقيق.

وفي أحاديث أهل البيت دعوة واضحة وصريحة إلى هذا الانفتاح مع المسلمين والتعايش الإيجابي والتواصل والتعاطف والتعاون معهم، وإليك نماذج من أحاديث أهل البيت في هذا الشأن:

روى محمد بن يعقوب الكليني بسند صحيح في الكافي عن أبي أُسامة زيد الشحّام قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «أقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم، ويأخذ بقولي السلام، أوصيكم بتقوى الله عزّوجلّ والورع في دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله. وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.

صِلُوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فَيسُرّني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر، والله لحدثني أبي عليه السلام إنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة عليّ فيكون زينها، أدّاهم للأمانة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، واليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان أنّه ادّانا للأمانة وأصدقنا للحديث»[٤٨].

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال عليه السلام «تؤدون الأمانة إليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم،

وتشهدون جنائزهم »[٤٩].

وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت له (الصادق عليه السلام): كيف ينبغي أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ومن ليسوا على أمرنا فقال: « تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون فوالله انهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم ويؤدون الأمانة لهم »[٥٠].

وفي رواية أُخرى للكليني في الكافي بسند صحيح عن حبيب الحنفي قال: سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: « عليكم بالورع والاجتهاد واشهدوا الجنائز وعودوا المرضى، وأُحضروا مع قومكم مساجدهم، وأحبّوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حقّ جاره »[٥١].

وبسند صحيح عن مرازم قال: قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: « عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، انه لابد لكم من الناس، أن أحداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لابد لبعضهم من بعض »[٥٢].

ج. في المساحة الاقتصادية

إن عملاً واسعاً يجري اليوم لإلحاق أسواق العالم الإسلامي ومصادر ثرواته الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية، وهو أمر حاصل بالفعل، ولكن الحركة التي تقوم بها الأنظمة في العالم الإسلامي هي إلحاق أسواقنا في العالم الإسلامي وثرواتنا الطبيعية بشبكة العولمة الاقتصادية بشكل كامل.. وهذا الأمر إذا تم يجعل من حركتنا الاقتصادية حركة تابعة لاقتصاد الدول الصناعية الكبرى، وتجعل من أسواقنا معرضاً ومحلاً لاستهلاك ما تنتجه المصانع في الدول الصناعية الكبرى، وتجعل مصادرنا الطبيعة للثروة مثل النفط والكبريت والصلب والحديد والقطن وقصب السكر والمطاط والتمور مصدراً لتموين المعامل والمصانع في الغرب.

ونتحول من موقع الإنتاج والاكتفاء الاقتصادي إلى مركز لتموين المصانع في الدول الصناعية الكبرى بالمواد الخام التي تحتاجها هذه المصانع ومحلاً لاستهلاك ما تنتجه هذه المعامل.

وهذه العاقبة أسوأ عاقبة، اقتصادية للعالم الإسلامي، وتؤدي هذه التبعية الاقتصادية

إلى تبعية سياسية خالصة، وانهيارات اقتصادية واسعة كما حصل لجنوب شرق آسيا قبل سنين، وتفقدنا حالة الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد، بشكل كامل.

وكما يستخدم الغرب الآلة الصناعية والاقتصادية في تحقيق (التبعية السياسية) في العالم الإسلامي، بشكل واسع، كذلك يستخدم الغرب المقاطعة الاقتصادية والحظر الاقتصادي لإخضاع أنظمة العالم الإسلامي لإرادتها السياسية، كما حصل ذلك لإيران وليبيا وسوريا والسودان... عندما امتنعت من تنفيذ إرادتها.

وقد كان بوسع العالم الإسلامي أن يستخدم الآلة الاقتصادية، مثل تصدير النفط في تعديل بعض المواقف الغربية المتطرفة عموماً والأمريكية خصوصاً تجاه العالم الإسلامي، مثل الجنوح المتطرف إلى جانب إسرائيل، والوقوف إلى جانب إسرائيل في كل مراحل عدوانها على فلسطين ولبنان. والتشديد على إيران بسبب محاولاتها لتخصيب اليورانيوم والوصول إلى مرحلة استخدام الطاقة النووية لإنتاج الكهرباء وسائر الغايات السلمية، والسكوت عن إسرائيل ومفاعلاتها النووية وترساناتها التي تختزن ٢٠٠ رأساً نووياً جاهزاً للتفجير والعدوان، كما يقول بعض المؤسسات العسكرية.

لو أن المسلمين كانوا يستخدمون الآلة الاقتصادية في تعديل المواقف السياسية الغربية المتطرفة تجاه العالم الإسلامي لتغير وجه العلاقات الإسلامية ـ الغربية، ولم يتمكن الغرب من أن يمارس هذا النفوذ الواسع في العالم الإسلامي، ولم يسع الغرب أن يستهتر بهذه الصورة بكل القيم الدبلوماسية والسياسية في علاقاتها بالعالم الإسلامي.

ولكن ما الحيلة إذا كان حكام العالم الإسلامي في الغالب لا يجرءون على التطوّل على الإرادة السياسية الغربية، وبشكل خاص الإرادة السياسية الأمريكية، ولا يمتلكون الشجاعة الكافية لاتخاذ أي قرار سياسي أو اقتصادي يعارض مصالح أنظمة الاستكبار العالمي، ويتجاوز الخطوط الحمراء المرسومة لهم.

إن حركة غاصبة عفوية قامت بها جماهيرنا في مقاطعة البضائع الدنماركية، عندما أساءت صحيفة دانمركية إلى رسول الله ﷺ، وامتنعت الدانمارك من الاعتذار إلى

المسلمين ومعاقبة الصحيفة، كان لها تأثير كبير في تعديل موقف الحكومة الدانمركية والحكومات الاسكندنافية، التي وقفت إلى جانب الدانمارك في حينه.

إن الموقف الصحيح في هذه المسألة الخطيرة هو الحضور المليوني الموحّد في الساحة، والهتاف بمقاطعه العولمة الاقتصادية الزاحفة إلى العالم الإسلامي، والمطالبة باستخدام الآلة الاقتصادية في قضايانا السياسية الأُم، والمناداة بتحرير أسواقنا من سيطرة البضاعة التي تصدرها إلينا الدول الصناعية الكبرى. والدعوة إلى تحرير مصادرنا الطبيعية للثروة وإنتاجنا الزراعي والحيواني من نفوذ الدول الكبرى، والمناداة بالوصول إلى حالة الاكتفاء الذاتي، والتشهير بالأنظمة والحكام الذين يستخدمون مواقعهم في الحكم لتمكين النفوذ الاقتصادي الغربي والشرقي (الاستكباري) من أسواقنا ومصادرنا الطبيعة، ودعوة الجمهور إلى استخدام المقاطعة الاقتصادية عندما يتطلب الأمر، ويتقاعس الحكام ويجبنون عن اتخاذ القرار الاقتصادي المناسب.

إن الحضور الواعي القوي للأمة في الساحة الإسلامية، في كل المراكز والحواضر والعواصم الإسلامية يؤدي بالضرورة إلى تعديل قرار كثير من الأنظمة والحكام الذين يحكمون العالم الإسلامي، كما يؤدي إلى تعديل القرارات الاقتصادية والسياسية لدول الاستكبار العالمي تجاه العالم الإسلامي وتخفيف الضغوط السياسية والاقتصادية عليه.

ثالثاً: الأعمال والمشاريع المشتركة

قرأنا فيما سبق أن النقاط الثلاثة التالية من أفضل المناهج لمكافحة الفتنة الطائفية.. وهذه الثلاثة هي:

١ ـ الوعي والخطاب.

٢ ـ اللقاء والحوار.

٣ ـ العمل المشترك.

وقد تحدثنا فيما مضى عن النقطة الأولى والثانية، وها نحن نتحدث إن شاء الله عن النقطة الثالثة، وهي العمل المشترك، سواءً كان العمل في المجال العملي والثقافي أم في مساحة العمل السياسي، أم في المساحة الاقتصادية.

والتجارب العديدة التي مارسها المسلمون

في الآونة الأخيرة في المشاريع الاقتصادية والفقهية تؤكد هذا المعنى.

ونظراً للتحديات العظيمة التي يواجهها المسلمون اليوم لابد من مواجهة هذه التحديات بالمشاريع الإسلامية السياسية والاقتصادية والثقافية التي يشترك فيها عامة المسلمين من كل المذاهب والشرائح الإسلامية. فلم تعد الأعمال الفردية والتي تقوم بها طائفة من المسلمين كافية لمقابلة هذه التحديات، فإن التحديات التي تواجهنا في ساحتنا أكبر من أن نقابلها بمثل هذه المشاريع.

إن مشاريعنا السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية يجب أن تكون بحجم الأمة كلها.. عندئذ تكون يد الله مع هذه المشاريع، وعليها، إن شاء الله تعالى.

وعندئذ تكون هذه المشاريع والأعمال قادرة على مقابلة التحديات القويّة التي تواجهنا في ساحة عملنا.

جدلية الشرعية والواقع

وسوف أتحدّث عن واحدة من هذه التحدّيات التي تواجهنا في حياتنا السياسية والثقافية، ولا يتأتّى لنا مقاومتها وإحباطها إلاّ ضمن مشروع سياسي وثقافي كبير، وبتضامن إسلامي واسع على قدر سعة هذه الأمة.

أمامنا قضيتان متخالفتان ومتقاطعتان، في ساحة حياتنا ويتوجّب علينا أن نتعامل معها بالضرورة، وليس بوسعنا التشكيك في أي منهما، وليس بوسعنا الإعراض عن أي منها أو كليهما ومقابلته باللامبالاة.

القضية الأولى: وحدة الأمة الإسلامية

وليس بوسع أحد أن يشك في هذه الحقيقة، وقد تلوت عليكم قريباً قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** ﴾.

وهذه حقيقة من حقائق الوحي.

ووحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها من غير شك ولا ترديد، وإذا تعددت الولاءات والبراءات تتعدد الأمة، ولا تبقى الأمة واحدة، كما تخبرنا بها سورة (الأنبياء) و(المؤمنون).

ولا يمكن فصل القيادة السياسية والنظام والقرار السياسي عن مسألة الولاء.

كما لا يمكن فصل التقاطعات والصراعات السياسية والعسكرية بين الأنظمة عن مسألة البراءة...

أقول إنّ وحدة الأمة بوحدة ولائها وبراءتها، فان الولاء للقيادة السياسية الصالحة للأمة تأتي في امتداد الولاية لله ولرسوله ولأولي الأمر.. يقول تعالى: ﴿ **أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[٥٣].

ووجود ولائين أو أكثر من ذلك ـ في عرض بعض ـ ينافي وحدة الأمة... فضلاً عما إذا كانت هذه الولاءات متعارضة فيما بينها، كما هو حاصل عادة في الأنظمة السياسية المتعددة الواقعة على خطوط سياسية متعددة.

فلا يمكن أن يتصّف ولي أمر المسلمين بالولاية والطاعة لمجموعة من الأمة، ولا يكون كذلك لمجموعة أخرى من أمة واحدة، وتجب على طائفة من الأمة طاعته ولا تجب طاعته على طائفة أخرى.

أما الولاءات السياسية الطولية (التي يقع بعضها في امتداد بعض) فلا تنافي وحدة الأمة مهما تعددت وكثرت.

إذن لهذه الأمة، طبقاً لهاتين الآيتين الكريمتين من سورتي الأنبياء والمؤمنون قيادة واحدة صالحة.. وهذه هي الحالة الشرعية التي نطلبها في نظام الحكم والقيادة السياسية للعالم الإسلامي.

هذه هي القضية الأولى (: الشرعية).

القضية الثانية: قيام أنظمة متعددة من الحكم في طول العالم الإسلامي وعرضها...

وهذه الأنظمة ـ في الأغلب ـ لا تمثّل الحالة الشرعية لأنها غير صالحة، وغير مؤتمنة على دين الناس ودنياهم، وغير منتخبة من قبل الناس، وإنما تُفرض على الناس بآليات عسكرية، أو عبر وسائل أنظمة الاستكبار العالمي... وهذه الأنظمة تفرض طاعتها والالتزام بقراراتها على الناس بالنار والحديد والعنف.. والتغرير والتجهيل الإعلامي.

ولابد للناس من الالتزام بقرارات هذه الأنظمة: وهذا هو (الأمر الواقع)

اللاشرعي.

وبين هذا (الأمر الواقع) و(الشرعية) تقاطع شديد ولكل منهما ثقافة، وسياسة، وقوانين، وأنظمة، وآليات، وقوة للتنفيذ.

هذه هي الجدلية القائمة بين (الشرعية) و(الأمر الواقع).

ما هو تكليف المسلم تجاه هاتين القضيتين (الشرعية المحظورة) و(الواقع المفروض).

(فلا يجوز) الاستسلام للأمر الواقع المفروض، وإلغاء الحالة الشرعية، و(لا يمكن) تجاوز الأمر الواقع المفروض بالقوة من قبل الأنظمة..

هذه هي الجدلية بين (ما لا يجوز) و(ما لا يمكن) وهي جدلية قديمة في التاريخ الإسلامي.

فما هو موقف (الفقه الإسلامي) تجاه هذه الجدلية الصعبة.

منهج أهل البيت الفقهي

إن منهج أهل البيت الفقهي تجاه هذه الجدلية في الفترة الطويلة التي عاشوها في العصر الأموي والعباسي، تتلخص في ثلاث نقاط:

١ ـ النهي عن إسناد هذه الأنظمة ودعمها، وتحريم (التعاون مع الظلمة)، فلا يجوز للمسلم أن يقوم بأي عمل فيه إسناد ودعم لهذه الأنظمة غير الصالحة بأي شكل، ولو كان ذلك بإعداد ليقة دواة للحاكم الظالم.. وقد وردت روايات كثيرة عن أهل البيت في هذا المعنى. (راجع أبواب حرمة التعاون مع الظلمة في مباحث المكاسب المحرمة). وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في وسائل الشيعة وسائر كتب الحديث والفقه.

٢ ـ الأمر بمعايشة الواقع السياسي الاجتماعي لأن الانفصال عنه بمعنى الخروج من ساحة الحياة والانتحار السياسي والاقتصادي.

ولا مناص للمسلمين من أن ينتظم أمر معاشهم ومعادهم ضمن هذا الواقع ولا مناص لهم، من أن يعايشوا هذا الواقع لتستقيم لهم أمور معاشهم ودينهم.. حتى لو يتطلب الأمر أن ينضمَّ المؤمنون إلى مواقع المسؤولية من هذه الأنظمة الفاسدة، ولكن لا لغاية إنعاشها ودعمها، وإنما لغاية تحقيق الضمان لمعيشة المؤمنين وخدمة الناس في

معايشهم ومكاسبهم. (راجع الروايات الواردة في مستثنيات التعاون مع الظلمة وأبواب التقية).

فلا يستغني الناس عن المدارس والجامعات وجهاز الشرطة والمستشفيات والمؤسسات الخدمية وغيرها وكل هذه المؤسسات مؤسسات قائمة ضمن هذه الأنظمة الفاسدة... لا حيلة للناس عنها فيجوز الدخول في هذه المؤسسات لخدمة الناس ويجوز الاستفادة من هذه المؤسسات، ومن دون ذلك تتعطل حياة الناس، والله تعالى لا يريد تعطيل حياة الناس.

وبين الأمر الأول (المحظور) والأمر الثاني (السائغ) فرق واضح.

٣ ـ العمل على تحويل هذا الواقع الفاسد إلى نظام صالح وقيادة صالحة وقوانين وتشريعات صالحة.

وهذه النقطة الأخيرة تختلف من مجتمع إلى مجمع فقد يتم ذلك عن طريق ثورة مسلحة، وقد يكون ذلك عن طريق الترحيل الثقافي والتبليغي للناس، وقد يكون بالوسائل الديمقراطية الحديثة، التي تمكّن الأكثرية الصالحة من الوصول إلى مواقع الحكم وتغيير الحكم إلى نظام صالح وقيادة صالحة، بصورة سليمة، أو غير ذلك من الوسائل والآليات. (راجع روايات باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبواب الجهاد)

وهذه ثلاثة مشاريع عمل إسلامية سياسية تتطلب مشاركة عامة من المسلمين، من كل المذاهب والفرق والشعوب الإسلامية التي تعاني من سلطة الحكومات الظالمة.

١ ـ مقاطعة الأنظمة الفاسدة وتحريم دعمها وإسنادها، ووجوب عزل هذه الأنظمة عن الأمة والتشهير بها وتسقيطها.

٢ ـ المشاركة الإيجابية في كل مسالك الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والنفوذ إلى مواقع مختلفة من الحكم بهذه الذهنية ولهذه الغاية.

٣ ـ مشاريع اسلمة الأنظمة وإقامة الدولة الإسلامية على أسس شرعية وترحيل الحالة السياسية إلى قيام حكومة عالمية إسلامية صالحة، كما وعدنا الله تعالى في كتابه.. وهذا المشروع يختلف من بلد إلى بلد ومن حالة سياسية إلى حالة أخرى، ولا يخضع

لوصفة سياسية أو حركية واحدة.

المشروع السياسي الإسلامي

الأنظمة في العالم الإسلامي ـ في الغالب ـ غير صالحة، ولا يمكن الاعتماد عليها في تقرير الموقف الإسلامي من القضايا السياسية الكبرى في العالم الإسلامي.. ومن الواضح أن المواقف الرسمية للأنظمة تجاه القضايا الكبرى تبقى خاضعة لتأثير الدول الكبرى، وليس بوسع هذه الأنظمة أن تتجاوز الخطوط الحمراء التي ترسمها دول الاستكبار العالمي...

نعم هناك مساحات صفراء يتحرك عليها هؤلاء الحكام.. وقد تكون هذه الحركة مخالفة لقرارات الدول الكبرى...

أما الخطوط الحمراء، فليس بوسع هذه الأنظمة تجاوزها، مهما كان الثمن الذي تدفعها هذه الأنظمة.. مثل النفط، فليس بوسع هذه الأنظمة أن تستخدم «النفط» في قضايا الأمة السياسية، والعكس حاصل فعلاً، فان الدول الكبرى ومجلس الأمن يستخدمان العامل الاقتصادي سلاحاً قاطعاً في قراراتها السياسية، وفي عقوبة الأنظمة التي تتجاوز الخطوط الحمراء، في حين لا يجرأ حكامنا، أو لا يملكون، في أكثر مناطق العالم الإسلامي تجاوز الخطوط الحمراء، فيما يتعلق بأنظمة الاستكبار العالمي.

ومهما يكن السبب، فان الساحة الإسلامية الواسعة لا تمتلك اليوم مقومات القرار والموقف السياسي الراشد الإسلامي، إلا ما يصدر بصورة عفوية من مواقف وقرارات يتبناه جمهور المسلمين في مختلف أقاليم العالم الإسلامي، كما رأينا ذلك في التعاطف الشديد لمواقف المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان (حزب الله)، من جانب جماهير المسلمين في كل أقاليم العالم الإسلامي، وفي المهاجر الغربية، ورغم أن الأنظمة العربية ـ في الغالب ـ كانت ممتعضة من انتصار المقاومة وما سجلتها من انتصارات باهرة خلال ٣٣ يوماً إلا أن تيار التضامن والتعاطف الإسلامي مع حزب الله كان أقوى من أن تعاكسها الأنظمة وأدواتها الإعلامية المسخرة لخدمة مواقفها

السياسية... ولكن هذه الأنظمة تمكّنت أخيراً من إبراز كراهيتها لانتصار حزب الله في الاصطفاف الواسع الذي قامت به إلى جانب فؤاد السنيورة وجعجع والحريري وجنبلاط في إفشال مشروع حكومة الوحدة الوطنية التي دعت إليها المعارضة.. وفي مقدمتهم حزب الله. ولولا التصرف العقلائي لحزب الله في هذا الموقف المعارض لاستئثار الأقلية بالحكم في لبنان، لكانت العاقبة حرباً أهلية واسعة في لبنان، إلا أن (حزب الله) آثر ممارسة الاعتراض، بصورة سلمية، حتى عندما كانت الحكومة تقابل المعارضة بالعنف.. وكفى الله اللبنانيين القتال.

ومهما يكن من أمر فلابد للساحة الإسلامية الكبرى من أدوات نابعة من إرادة الأمّة ومن عمق الساحة لتنضيج القرار السياسي الذي يهم الأمة ـ كلها ـ ولتوحيد الرأي والموقف السياسي في القضايا الكبرى، وتعميمها على كل الساحة الإسلامية وتحشيد الرأي العام الإسلامي لإسناده والوقوف إلى جانبه، وتفعيله في الساحة من خلال المسيرات والاحتجاجات والهتافات والإعلاميات والآليات المشاعة التي يمتلكها الشارع للتعبير عن موقفه ورأيه واعتراضه واحتجاجه وحبه وبغضه.

ومن دون وجود مشروع سياسي ـ مثل هذا المشروع ـ ينضّج الرأي السياسي الراشد الناضج الموحّد، تبقى الساحة معرضة لأمواج الفتن السياسية، وضغوط وسائل الإعلام الرسمية التي تجعل من الحق باطلاً ومن الباطل حقاً، وتقرّب البعيد، وتبعّد القريب.

وتبقى الساحة الإسلامية تتخبط بين اختلاف الآراء والمواقف، والفتن، والضغوط الإعلامية.

ولكي تسلم الساحة الإسلامية الكبرى من هذا التخبّط لابد من مشروع سياسي إسلامي كبير، خارج حوزة نفوذ هذه الأنظمة، تمارس هذه المسؤولية في تنضيج القرار والموقف الإسلامي وتوحيده وتعميقه وتفعيله في الساحة.

ولابد أن يمثّل هذا المشروع السياسي

كل الشرائح والمذاهب والأقاليم الإسلامية تمثيلاً صادقاً حقيقياً، ليكون لرأي هذا التجمع الإسلامي، النفوذ والتأثير الفعلي على كل الساحة الإسلامية.

ويكون مركزاً لتنضيج القرار الإسلامي الراشد الذي تتبناه الساحة الإسلامية كلها، في المسائل الأم الكبرى في العالم الإسلامي، مثل قضية القدس والمسجد الأقصى، والقضية الفلسطينية، والاحتلال الإسرائيلي لأجزاء واسعة من أراضي الوطن الإسلامي من سورية ومصر والأردن ولبنان، ومثل المشكلة الصومالية، وتدخل القوى المتعددة الجنسيات في دارفور، والمشروع الإيراني النووي السلمي. والاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق، والموقف الأمريكي المعادي للقضية الفلسطينية، والداعم لإسرائيل، والموقف البريطاني، بل الاتحاد الأوروبي من دعم المرتد سلمان رشدي، والموقف الروسي المتعنت من الولايات الإسلامية كالشيشان، وقضية الصحراء المغربية، واضطهاد الأنظمة في العالم الإسلامي لأبناء الحركة الإسلامية، كما في الجزائر وتونس ومصر، وكما في العراق في عهد الطاغية، ومثل الصراع الفلسطيني ـ الفلسطيني بين حماس وفتح، والدعم الإسرائيلي والأوربي والأمريكي والعربي لفتح، وتضييق الحصار على غزة وحماس إقتصادياً وسياسياً وعزل حماس عزلاً سياسياً كاملاً... وأمثال ذلك، والتخريب الواسع الذي قامت به إسرائيل للبنان، انتقاماً لانتصار حزب الله عليها في الحرب التي دارت بينها وبين حزب الله في جنوب لبنان، وسكوت الدول الغربية ـ الأوروبية والأمريكية برمتها تجاه هذا العدوان السافر على لبنان ودعم الموقف الإسرائيلي بشكل مطلق بكل أشكال الإسناد والدعم... وأمثال ذلك.

وقد يتساءل أحد عن الصيغة العملية لهذا المشروع السياسي... فأقول: إنني لست بصدد عرض صيغة محددة لهذا المشروع السياسي... يمكن أن يكون على هيئة مؤتمر دوري لأهل الحل والعقد من المسلمين، ويمكن أن يكون بصيغة أخرى... وأيّاً ما تكون الصيغة العملية لهذا

المشروع، فهو مركز سياسي، يمثل الأمّة الإسلامية، بعرضها العريض، في تنضيج القرارات والتوصيات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، وبلورتها وتقديمها، في الأمور التي تهمّ الأمّة، ويكون هذا المركز في مقابل مراكز القرار الرسمية للأنظمة، يعبّر عن إرادة الناس وانتمائهم وهويتهم الإسلامية... وهو أمر قائم، فعلاً، في بعض الحدود، ولكن يحتاج إلى تثبيت، وتطوير، وتوسعة، وتعديل، وتقنين، وتبني من قبل المسلمين.

تساؤلات حول هذا المشروع

وقد يثير أحد حول هذا المشروع التساؤلات التالية:

١ ـ أين يمكن إقامة هذا المشروع السياسي المستقل عن الإرادة الأمريكية ـ الغربية، وأمريكا تقول اليوم للسحاب أينما تذهبين فانك تمطرين في مساحة نفوذي وسلطاني.

٢ ـ ما جدوى رأي هذا المركز السياسي إذا كان لا يملك آلية التنفيذ في مقابل قرارات الأنظمة التي ينفذها أصحابها بالإرهاب والإعلام.

٣ ـ وكيف يمكن عزل رأي هذا المركز أو توصياته عن تأثير ونفوذ الأنظمة ودول الاستكبار العالمي، في هذه الدنيا المتشابكة المتداخلة.

والجواب عن السؤال الأول:

إن ارض الله واسعة ونحن لدينا مناقشات جوهرية في صدقية النفوذ الأمريكي الكوني المطلق، ليس هنا مجال بسط الكلام فيها.

وعن السؤال الثاني:

أقول إن رأي هذا المشروع وتوصياته يكون مدعوماً بالرأي العام الإسلامي، وسوف يكون له دور واضح في تعديل القرارات السياسية للأنظمة إن لم تكن قادرة على إلغائها.

وعن التساؤل الثالث: لا ننفي إمكانية نفوذ الأنظمة ومن ورائها أنظمة الاستكبار العالمي إلى صلب هذا المركز وآرائه وتوصياته، ولكنه على كل حال إمكانية محدودة وليست مطلقة، ولا يمكن أن يحقق أي مشروع سياسي في هذه الدنيا المتداخلة المتشابكة غايته بصورة مطلقة.

وبعد فإننا نرى أن أمثال هذه المشاريع طموحات سياسية واقعية، يمكن أن نسعى إليها وليست ضرباً من الأحلام في واقعنا السياسي المعاش.

المرجعية السياسية للعالم الإسلامي:

نحن اليوم أمة فاعلة قوية على وجه الأرض. ولهذه الأمة ثقل كبير في المعادلات السياسية، وحضور واسع في القضايا السياسية ذات الشأن بالحالة الإسلامية خصوصاً، وبالحالة الكونية عموماً.

ورغم أن أكثر الأنظمة الحاكمة على العالم الإسلامي تعمل لتشتيت هذه القوة الكبرى على وجه الأرض، لكن تبقى الأمة الإسلامية التحدي الأكبر للغرب. والذين يقرءون التاريخ والمستقبل من المنظّرين في الغرب يفهمون هذه الحقيقة، وينذرون أنظمة الاستكبار الغربي من هذا العملاق الذي بدأ ينهض من سباته في القرن العشرين.

وفي ضوء هذا الفهم نقول:

١ ـ إن الحقائق المتقدمة في نهضة الأمة بعرضها العريض لا يمكن أن تخفى على مراكز الرصد الاستكباري في الغرب.

٢ ـ ولابد أن تلقى هذه الأمة تحديات صعبة من ناحية الغرب لإحباط المشروع الإسلامي الكوني الكبير.

٣ ـ ولا تخصّ هذه التحديات إقليما أو قوماً ومذهباً من المذاهب وإنما تعم الأمة الإسلامية برمتها لأن هذه الأمة هي التربة الصالحة للمشروع الكوني الذي يخبرنا به الله تعالى في كتابه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون) والذي يتنبّأ به المنظرون في الغرب.

٤ ـ إذن المسلمون جميعاً في مواجهة صراع حضاري وعسكري وسياسي وثقافي، قاس، من أقسى ما يعرفه تاريخ الإنسان من الصراعات الحضارية السياسية، والعسكرية، شئنا ذلك أم أبينا.

والمطالبة بالمعايشة السلمية وشجب الحروب والصراعات لا يعفينا من هذه المعركة.. ولسنا نحن الذين ندفع الغرب إلى

مثل هذا الصراع، وإنما العكس هو الصحيح، الغرب هو الذي يدفعنا إلى مثل هذه المعركة... فان الكيانات السياسية والعسكرية والثقافية في الغرب يرون أنهم قد وصلوا إلى نهايات التاريخ، والعاقبة التي آل إليها أمر الاتحاد السوفيتي ليس ببعيد عنهم، والقوانين والسنن التي آلت إلى سقوط الاتحاد السوفيتي هي التي تؤول بهم إلى تلك العاقبة. وهم يدافعون عن أنفسهم في معركة مصيرية بالنسبة لحضارتهم وكيانهم الاقتصادي والسياسي والعسكري، ومن الطبيعي أن يكون هذا الصراع أشرس صراع يعرفه الإنسان، لأنه صراع على الموت والحياة.

٥ ـ ومن أفدح الخطأ أن ندخل هذا الصراع من غير الإعداد المكافئ لهذه المعركة الحضارية، ومن غير الإعداد لآليات هذا الصراع.. والدخول في مثل هذه المعركة من غير الإعداد المكافئ لها يعادل الفشل والهزيمة فيها... يقول تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾[٥٤] وليست القوة كلها السلاح وإن كان السلاح من مقومات ساحة القتال إلا أن دائرة الإعداد الذي يأمرنا به الله تعالى أوسع من السلاح.

٦ ـ ومن أهم الآليات التي تُعِدُّ هذه الأمة لدخول مثل هذه المعركة التي نتوقعها كل حين، بل نعايشها اليوم، دون أن ننتبه لها.. في مقدمة هذه الآليات (: المرجعية السياسية الواحدة للأمة الإسلامية)... فليس من الممكن أن تدخل هذه الأمة صراعاً سياسياً وحضارياً واسعاً، وتواجه تحديات كثيرة، دون أن تمتلك الأمّة (مرجعية سياسية)، توحّد قرارها وموقعها وصفّها.

إن وحدة الأمة ووحدة القرار السياسي لا تتحقق إلا من خلال الآليات التي أعدّها الله تعالى لذلك، وفي مقدمة هذه الآليات المرجعية السياسية التي يسميها الفقهاء بـ (ولاية الأمر).

يقول تعالى: ﴿ **أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾.

٧ ـ و(الموقع الأول) و(الموقع الثاني) الذين تحدّثنا عنهما مؤسستان إسلاميتان

للأمـة الإسـلامية كلهـا تتكـاملان ، يـؤدي الأولى دور الشورى وتنضيج القـرار السياسـي الـذي تشـير إليـه آيـة الشـورى ﴿ **وَأَمْـرُهُمْ شُـورَى بَيْـنَهُمْ** ﴾[٥٥] وتقـوم الثانيـة بـدور (الولاية السياسية) فـي حيـاة المسـلمين .. تنفيذاً لقوله تعالى :

﴿ **أَطِيعُـواْ اللّـهَ وَأَطِيعُـواْ الرَّسُـولَ وَأُوْلِـي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ .

﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُـولُهُ وَالَّـذِينَ آمَنُـواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّـلاَةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَهُـمْ رَاكِعُونَ** ﴾[٥٦] .

الهوامش

(١) المائدة : ٥٥ .
(٢) آل عمران : ١٠٣ .
(٣) التوبة : ٧١ .
(٤) الحجرات : ١٠ .
(٥) الأنفال : ٤٦ .
(٦) النساء : ٥٩ .
(٧) الأنفال : ٧٢ .
(٨) صيح مسلم ٤ : ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ كتاب فضائل الصحابة .
(٩) صحيح البخاري ٤ : ١٥٨١ ح٤٠٩٤ وصحيح مسلم ١ : ٩٥ كتاب الإيمان ح١٥٥ عدى الجملة الأخيرة .
(١٠) صحيح البخاري ٤ : ١٥٨١ ح ٤٠٩٤ ومسند احمد ٤ : ١٠ ـ ١١ .
(١١) بحار الأنوار ٦٨ : ٢٤٢ .
(١٢) مشكاة المصابيح ج١٢ ـ ١٤ .
(١٣) المحاسن : ٢٨٥ ، وبحار الأنوار ٦٨ : ٢٤٣ .
(١٤) الكافي ج٢ ص٢٥ ، وبحار الأنوار ٦٨ : ٢٤٨ .
(١٥) مسند أحمد بن حنبل ٣ : ٤٧٢ .
(١٦) المحاسن : ٢٨٤ ، بحار الأنوار ٦٨ : ٢٨٢ .
(١٧) سنن الدارمي ٢ : ٢١٨ ، ورواه بلفظ قريب منه عن رسول الله ' البخـاري فـي ١ : ٥٧ مـن الصـحيح فـي فضل استقبال القبلة ، وأبو داود في السنن ٢ : ٤١ ـ ٤٢ باب على ما يقاتل المشركون ، واحمـد بـن حنبـل

في المسند ٣ : ١٩٩ ، و٢ : ٤٤٥ ، ٣ : ٣٣٩ ، و٤ : ٨ ـ ٩ ، وابن ماجة في السنن ٢ : ١٢٨٥ ـ ١٢٨٦ ، والنسائي في السنن ٨ : ١٠٩ .

(١٨) بحار الأنوار ٧٥ : ١٥٠ .

(١٩) صحيح مسلم ١ : ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢٠) الحرقات بضم المهملة والراء وقاف بعدها من جهينة ، هم بنو حميس بن عمرو بن ثعلبة بن مودوعة بن جهينة ، كما في جمهرة ابن حزم : ٤٤٦ .

(٢١) صحيح مسلم ١ : ٦٧ .

(٢٢) روى هذه الخطبة جمع غفير من الحفاظ والمحدّثين من الفريقين ولشهرتها نعرض عن ذكر مصادر الخطبة .

(٢٣) يوسف : ١٠٨ .

(٢٤) آل عمران : ١٠٤ .

(٢٥) آل عمران : ١١٠ .

(٢٦) التوبة : ٧١ .

(٢٧) العصر : ٣ .

(٢٨) البقرة : ٢٠٨ .

(٢٩) بحار الأنوار ٢٧ : ٦٩ ح٧ .

(٣٠) ميزان الحكمة ١ : ٧٦٥ .

(٣١) كنز العمال ١ : ٢٠٥ ح١٠٢٥ .

(٣٢) ميزان الحكمة ١ : ٤٠٦ .

(٣٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٢٧ .

(٣٤) مستدرك الوسائل ٦ : ٤٥٠ .

(٣٥) التهذيب ٣ : ٢٥ ، ووسائل الشيعة ٥ : ٣٧٦ ، نقلاً عن ميزان الحكمة ٥ : ٤١٠ .

(٣٦) وسائل الشيعة ٥ : ٤ نقلاً عن ميزان الحكمة ٥ : ٤٢٦ .

(٣٧) الحج : ٢٧ .

(٣٨) الصافات : ٢٤ .

(٣٩) نهج البلاغة : كتاب رقم ٦٢ .

(٤٠) الحجرات : ١٢ .

(٤١) النحل : ١٢٥ .
(٤٢) الإسراء : ٥٣ .
(٤٣) رجال الكشي : ٣٠٥ الرقم ٥٤٩ .
(٤٤) رجال الكشي : ١٩٥ ترجمة المغيرة بن سعيد .
(٤٥) رجال الكشي : ٢٢٤ الرقم ٤٠١ .
(٤٦) عيون أخبار الرضا ١ : ٣٠٣ .
(٤٧) بحار الأنوار ٢ : ٢٥٠ ح٦٢ .
(٤٨) وسائل الشيعة ٨ : ٣٩٨ ، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة ، الباب الأوّل ، ح١ .
(٤٩) وسائل الشيعة ٨ : ٣٩٨ ، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة ، الباب الأوّل ، ح٢ .
(٥٠) وسائل الشيعة ٨ : ٣٩٩ ، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة ، الباب الأوّل ، ح٣ .
(٥١) وسائل الشيعة ٨ : ٣٩٩ ، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة ، الباب الأوّل ، ح٤ .
(٥٢) وسائل الشيعة ٨ : ٣٩٩ ، كتاب الحجّ آداب أحكام العشرة ، الباب الأوّل ، ح٥ .
(٥٣) النساء : ٥٩ .
(٥٤) الأنفال : ٦٠ .
(٥٥) الشورى : ٣٨ .
(٥٦) المائدة : ٥٥ .

أ . جعفر عبد الرزّاق
باحث وكاتب من العراق

منهجية الحوار في الإسلام
مقاربات وإفادات في بناء حوار قرآني

بدأ الحوار قبل وجود البشرية، ففي اللحظة التي أعلن فيها سبحانه وتعالى أنه سيخلق بشراً استفسرت الملائكة عن هذا المخلوق الجديد. استجابت لأمر اللّه فسجدوا كلهم إلاّ إبليس رفض الانصياع للأمر الالهي، وهنا بدأ حوار آخر بين اللّه وإبليس. نقاش واحتجاج انتهى بتأجيل العقاب الالهي حتى يوم القيامة.

هنا يمكننا أن نقارن بين الإله الجبّار يبدو مستعداً للحوار والجدال والمناظرة، وبين هذا الإنسان العاجز الذي يرفض الحوار مع الآخر. القوى مستعد للحوار والضعيف يرفضه، وهذا بداية مسار البشرية الذي اختطه الأنبياء عليهم السلام.

ما هو هدف الحوار؟ هل هو مجرد إيصال الأفكار المختلف عليها إلى رؤية واضحة، من أجل إيجاد قناعة مشتركة حولها، ثم توحيد المواقف تجاهها؟ أي هل يقتصر الحوار على أداء

الجانب الفكرى أو العقائدى من القضية ؟ أم يتضمن جوانب أخرى ؟ الحوار هو الإلتقاء بين طرفين لهما وجهات نظر مختلفة وقناعات متباينة . وقد يحمل كل طرف عقدة تجاه الآخر بسبب الأجواء المشحونة بالتعصب والعداء . فالحوار يجعل كلاً منهما يلتقى الآخر ، يحاوره ، يطرح أفكاره عليه ، بذل جهوده لإقناعه . هذه العملية تساهم فى تقليص حدة التوتر والتعصب تجاه أحدهما للآخر حين يلتقون على مفاهيم مشتركة تبعث مشاعر الود والطمأنينة .

الحوار فى الإسلام يحمل صفة تأسيسية تطغى على مجمل النشاطات الفكرية والعقائدية . فالحوار أسلوب حضارى يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة وفى تغيير القناعات الخاطئة باتجاه التكامل والحق . والحوار أسلوب عملى فى حركة الصراع فى القضايا الفكرية والسياسية والإجتماعية لأنه أفضل وسيلة يستطيع الإنسان بوساطتها التعبير عن أفكاره وآرائه فى رفضه أو قبوله لأفكار الآخرين ، فى موقع الإختيار والحرية .

والقرآن الكريم كتاب حوار ، ينفتح على المشركين والملحدين والمنافقين وأهل الكتاب وكل (الآخر) المغاير لنا فى الدين أو المذهب أو الاجتهاد . لذلك يجب أن نعمل على ايجاد مجتمع الحوار الذي ينفتح فيه الإسلام على كل الأفكار المضادة ، وينفتح المجتمع المسلم على المجتمعات الأُخرى . ولا بد من تحصين الحوار بالضوابط التى تمنع استغلاله لأغراض أخرى ، فإن وجود المشاكل فيه لا يعنى إلغاءه ، بل يعنى العمل على دارسة هذه المشاكل ، ليجتمع لنا الحوار والمسؤولية والحرية المنضبطة فى نطاق النظام العام للأمّة .

إننا نواجه الكثير من الإتهامات التى تتحدى الصورة الحقيقية للإسلام فى عقلانيته وموضوعيته وقوته الفكرية فى مواقع الحوار لترسم له صورة الدين الذى يرفض العقل والمنطق . إن الحوار قادر على مواجهة الفكر المضاد والحركة المضادة ، وهو الذى يقرر مصير المواجهة الفكرية والسياسية والفلسفية مع (الآخر) .

إن غياب الحوار كممارسة أصيلة بين أبناء الأمة الواحدة ، بين الحاكم والمحكومين ، أدى إلى نمو الإرهاب الفكرى والإختناق السياسى لدى الشعوب المسلمة . وغياب الحوار يعنى استبداله بالعنف الذى تمارسه الحكومات ، ويؤدى إلى عنف مضاد

للتيارات السياسية والفكرية المحرومة من حق التعبير عن آرائها وأفكارها وموافقها.

إن الذى يرفض الحوار مع الآخر يعانى من ضعف فكرى وعجز أيديولوجى. فهو لا يملك الحجة القوية التى تؤكد رأيه أمام الخصم، أو لا يملك المنطق العقلانى الذى يدحض حجة الرأى المخالف له، فيضطر هذا الضعيف فى فكره وحجته، لتغطية ضعفه بالأساليب التهويلية بإثارة الإتهامات التى لا ترتكز على أساس، أو الإنفعالات العاطفية التى تثير الواقع الشعبى السطحى، وتدفعه إلى اتخاذ المواقف الغوغائية ضد الفكر الجديد.

ولعل من مشاكل حركة الحوار فى المجتمع، تلك العصبية الحادة التى يعيشها الناس فى التزامهم بموروثاتهم الفكرية، وعاداتهم التقليدية، أو فى مواقفهم الحادة فى خطوطهم الإجتماعية أو السياسية بفعل العقلية الحادة التى تواجه الفكر الآخر أو الموقف المضاد بطريقة انفعالية لا بطريقة عقلانية. وهذا ما يعانيه الواقع الإسلامى من فقدان روحية الحوار داخل تنوعاته المذهبية، فى ما يلتزمه هذا المذهب أو ذاك من المفردات المتصلة بتفاصيل العقيدة أو الشريعة، لأن ذلك قد يمثل انتقاصاً من حالة الثبات التى يريدها المذهبيون للخطوط الفكرية أو الفقهية، لأن الحوار قد يؤدى إلى نوع من الإهتزاز الذى يتهدد بالسقوط تحت تأثير الحجة القاطعة التى قد تثبت بطلانها أو ابتعادها عن الحقيقة.

الحوار والجدل

يمثل الحوار المعنى الأشمل للنقاش بين طرفين حول مختلف القضايا. أما الجدل فيتضمن معنى الصراع الفكرى والعقائدى. وردت مفردة (الحوار) ثلاث مرات فى القرآن بصيغة (يحاوره) (الكهف: ٣٤ و٣٧)، وبصيغة (تحاوركما) (المجادلة: ١). أما مفردة (الجدل) فقد وردت ٢٧ مرة. ويعود ذلك إلى طبيعة الواقع الذى عاشه الاسلام، فقد واجه التحديات الفكرية داخل الذات الانسانية من شرك وكفر وضلال ونفاق. كما واجه التحديات الخارجية من القوى الدينية والاجتماعية والسياسية التى كانت تسيطر على حياة الانسان فى المجتمعات التى لم تؤمن بالاسلام

وفى الوقت الذى يؤكد القرآن الكريم على أهمية الحوار؛ يرفض فيه الجدل

على أساس كونه قائماً بذاته، فيتحول محترفه إلى شخص جدلى، لا هم له فى المجال الفكرى إلاّ أن يتغلب على خصمه، أو أن يبقى يلف ويدور لإشغال الفراغ بمجادلات تضيع الوقت وتبتعد عن الهدف. فهذا النوع من الجدل هو المرفوض ﴿ **وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إلاّ جدلا بل هم قومٌ خصمون** ﴾.

إن الحوار الذى يستهدفه الاسلام يتضمن جانبين:

١ـ الدفاع ضد الفهم السيء للاسلام كنتيجة طبيعية للممارسات الفكرية أو السلوكية الخاطئة المحسوبة على الاسلام، أو العرض الخاطئ. ونعانى اليوم فى الاعلام الغربى الكثير من هذا الفهم الخاطئ سواء كان مقصوداً أو عفويا.

٢ـ الدفاع ضد التحديات والإشكالات التى يثيرها الآخرون ضد الاسلام ومعالجته لمشاكل الحياة وقضايا الفكر والعقيدة.

منهج الحوار والجدل

هناك عدة أمور يجب مراعاتها فى الحوار وهى:

١ــ الاتفاق على الفكرة أو الموضوع الذى يرغب الطرفان فى مناقشته، سواء نفيه أو اثباته، لأن الجهل بالفكرة وبتفاصيلها يحول الحوار إلى اسلوب من الشتائم والمهاترات التى يغطى بها كل طرف ضعفه وعجزه عن الوقوف موقف المدافع عن فكرته. بينما تجعل المعرفة كلا منهما واعياً لما يطرح وما يستقبل من فكر ومستعداً له، ومهيئاً أدواته وأسلحته من حجج وإثباتات ونصوص وغيرها (إن الذين يجادلون فى آيات اللّه بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلاّ كبر ماهم ببالغيه فاستعذ باللّه انه هو السميع البصير).

٢ــ الاسلوب السلمى والهادئ فى العرض والنقد بعيداً عن العنف والحدة. (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللّه وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين).

٣ـ الأدب فى الكلام وتحاشى الكلمات التى تجرح الخصم وتسيء إلى كرامته أو شرفه أو تسفّه عقيدته، أو تؤدى إلى سبّه وشتمه. (أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين).

٤ـ عدم التقول على الطرف الآخر وطرح مفاهيم وآراء منسوبة إليه وهو يرفضها أو استخدام نصوص وأحاديث يشك أنها ضعيفة وغير معتبرة فى عقيدته أو مذهبه أو تَوجُهِه السياسى.

٥ـ عدم استخدام مصادر خصوم الطرف الآخر لأنها تتضمن آراء غير حيادية بل عدائية فى الغالب، بل يجب استخدام مصادر الطرف الآخر مما يعتقد أنها صحيحة وموثوقة لديه.

٦ـ عدم احراج الخصم بشكل يضطر معها للعناد حفاظاً على كرامته وموقعه، بل محاولة اقناعه بيسر وسهولة، ومنحه وقتاً كافياً للتفكير والتأمل، فلسنا معه فى حلبة صراع بل مناقشة أفكار.

٧ـ استخدام الأمثلة التى تقرّب الفكرة إلى ذهن الطرف الآخر لتبسيط القضايا المعقدة.

٨ـ لا يعنى وجود طرفين فى مناظرة أو حوار أن أحدهما يحملكل الحقيقة والآخر لا يحمل شيئاً من الحق، بل هناك حقائقيجب على الطرف الآخر أن يسلّم بها لتكون قاسماً مشتركاً فيالمرحلة الأولى من الحوار، ثم يناقشان ما اختلفا عليه بهدوءوصبر ولين.

أمثلة من الواقع

لمّا كان حضور هذه الجلسة من المثقفين والجامعيين فقد ارتأيت أن أعرض بعض الأمثلة فى أساليب الحوار أو مناقشة فكر الآخر ونقده، بما تحمله تلك الأساليب من ايجابيات وسلبيات، من خلال بعض المؤلفات التى عرضت فكر الآخر أو انتقدته لتتبع مدى الدقة والموضوعية والمنهج العلمى الذى ندعو إليه.

أولاً: نقد النظريات المادية

وأبرز المؤلفات فى هذه المحاور هما كتابا الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) (اقتصادنا وفلسفتنا) حيث يعرض السيد فى الأول المذاهب الاقتصادية للرأسمالية والماركسية ثم يقارنها بالأُطروحة الاسلامية فى الاقتصاد. يتميز عرض السيد بالدقة والموضوعية معتمداً المصادر المعروفة لهذه النظريات، مثلاً قد اعتمد على الترجمة العربية للمؤلفات المتعلقة بالماركسية التى

كانت تصدرها دور النشر السوفييتية . كما أنه اعتمد على عدة ترجمات لكتاب رأس المال (بعضها مترجم من الألمانية وهى اللغة الأصلية للكتاب) .

لقد بلغت دقة السيد وموضوعيته فى عرض الماركسية حتى أن الكثير من الشيوعيين العراقيين كانوا يوصون أتباعهم بقراءة ما عرضه السيد للماركسية فى كتاب (اقتصادنا) دون قراءة الجزء المتعلق بالرد عليها . لأن الكثيرين من الماركسيين لم يفهموا الماركسية بالدقة التى فهمها السيد الصدر (قدس سره) وعرضها فى كتابه . ثم يردّ السيد على جميع مفردات الماركسية ردّاً علمياً هادئاً ، يعترف فيها أحياناً بالإنجاز العلمى لبعض المفكرين رغم أنه كان مشغولاً بهدمها ، لكنها الأمانة العلمية . ويمتاز السيد بالتركيز على الطرح الاسلامى فى تفنيد النظريات المادية ، وتحاشى التميز المذهبى ، حتى أن بعض الاخوة المغاربة قد أخبرنى أنه حينما درس كتاب اقتصادنا لم يعرف مذهب الكاتب إلاّ بعد أن أطلع على مؤلفات أخرى .

ولا يفوتنى أن أذكر كتاب (قصّة الايمان) للشيخ نديم الجسر ، وهو لبنانى سنى ، قد ناقش بهدوء وموضوعية الأفكار المادية . ولم يمنعنا انتماؤه المذهبى للإستفادة من كتابه ، كما لم يمنع من دراسة مؤلفات غيرهِ من رواد الثقافة الاسلامية .

ثانياً : الرد على أهل الكتاب

سأختار كتابين فى هذا الصدد : الأول لمؤلف شيعى هو كتاب (الرحلة المدرسية) للشيخ محمد جواد البلاغى الذى رد فيه على التوراة والإنجيل وما ورد فيهما من تحريف وتناقضات . هذا الرجل لم ينقل من ردود جاهزة كما يفعل الكثيرون بل تعلم اللغة العبرية وكان يجيد الفارسية والانجليزية ، ودرس كتب العهدين الجديد والقديم ، وراجع عدّة طبعات وبمختلف اللغات كى يتجنب الفهم الخاطئ للنصوص التوراتية والإنجيلية . يناقش الشيخ البلاغى العقائد اليهودية والمسيحية من خلال حوار مصطنع بين (عمانوئيل) الشاب الذى يبحث عن قناعات جديدة لفهم المسيحية ووالده (ابن اليعازر) وبين قسّ يأتى لزيارتهما . يتميز منهج البلاغى بالرد العلمى الهادئ المستند على النصوص المسيحية واليهودية ، والأدب الجمّ فى السؤال

والجواب، دون تشويه أو إساءة، مع طرح المسلّمات العقلية والحجج الجدلية فى مناقشة القضية المعروضة.

والكتاب الآخر هو (المناظرة الحديثة) بين الشيخ أحمد ديدات، وهو سنى من جنوب أفريقيا، والقسّ سواجارت المسيحى الأميركى. وفى هذه المناظرة يحتج ديدات بالكتاب المقدس والطبعة الأكثر وثاقة والتى تدعى (نسخة الملك جيمس) المطبوعة أصلاً عام ١٦١١م. ثم يناقش المخطوطات القديمة للإنجيل والتى يعود تاريخها إلى ٣٠٠ سنة بعد المسيح، حيث يوضح مدى التحريف والحذف الذى تعرضت له بعض عبارات الإنجيل. وكان القسّ سواجارت قد أعلن أنه (إذا احتوى النص على كلمة محرفة أو كلمة فى غير موضعها، فالواجب يقضى بإهمال الكتاب كله) وهذا ما لم يفعله رغم أن الشيخ ديدات أورد له عدداً كبيراً من الكلمات المحرفة.

يؤكد ديدات فى مناظراته دائماً (أن هذا الإنجيل هو من طباعتكم، فلم نطبعه نحن أو ننشره، كما أنه لم يطبعه اليهود) أى أن المصدر الذى يعتمد عليه فى مناظرته هو مصدر موثوق لدى الطرف الآخر. فحين يحتج على القسّ بما ورد فى الكتاب الموثوق لديه، فإما أن يقتنع بما ورد فيه ثم يذعن للحق، أو يدعى أن هذا الكتاب غير صحيح أو غير موثوق لديه.

ثالثاً: الردود بين السنّة والشيعة

وهذا الأمر ذو حساسية خاصة نظراً لثبوت القاسم المشترك بين المذاهب الاسلامية بالايمان بالتوحيد والنبوة والمعاد والقرآن والقبلة الواحدة ومصادر التشريع والصوم والصلاة والحج والزكاة والخُمس، رغم وجود اختلافات جزئية فى التفاصيل. وقد كان للصراعات الطائفية فى العهود الماضية دور فى تأليف الكثير من كتب الردود المذهبية والكلامية التى تتميز بالحدة والعصبية والتسفيه والشتم وغيرها. وللأسف جاءت الأجيال المعاصرة لتنظر إلى تلك المؤلفات بقدسية وأنها من التراث الإسلامى العريق، ليس لمحتواها العلمى بل لقدمها وسمعة مؤلفيها التاريخية، فصارت جزءً من متبنيات المسلمين. وأخذ البعض يكرر ما ورد فيها، وينتهج نفس الأساليب الممجوجة التى تسخر من الآخر وتتهمه بشتى الاتهامات.

سأتطرق لبعض المؤلفات المنصفة وغير المنصفة التى كتبها السنّة عن الشيعة وبالعكس كى نتعرف على مكامن الخلل. ولا يسعنا عرض العديد من المؤلفات، فهذا غير يسير، لذلك سأنتقى بعض المؤلفات التى توضّح الفكرة.

١ـ يعرض الدكتور فهمى الشناوى، وهو مصرى سنى، فى كتابه (الفكر السياسى عند الشيعة) لمفردات الفقه السياسى الشيعى فى قضايا الحكم والحاكم والامام والحكومة والمجلس التشريعى والدستور الاسلامى والانتخابات وغيرها. ويتميز كتابه بالموضوعية والعرض الصحيح للفكر السياسى الشيعى من مصادره. ولا يخفى الكاتب اعجابه بالموضوع حيث يعبر عن نفسه فى نهاية بحثه وكما جاء فى مقدمته (فأنا أشبه بالمستشرق الذى يكتب عن الاسلام دون أن يكون من أهله مع اختلاف كبير، هو أننى عندما انتهيت من دراسة فكر الشيعة السياسى، وجدت أنه هو الفكر السياسى الاسلامى، حتى أننى أقرر أنه من الظلم أن يحمل هذا الكتاب عنوان الفكر السياسى عند الشيعة، والأحق أن يكون اسمه الفكر السياسى الاسلامى).

٢ــ ألف السيد مرتضى العسكرى مجموعة كتب تتطرق لقضايا الخلافات المذهبية من وجهة نظر تاريخية وعقائدية، ومن بين كتبه كتاب (عبداللّه بن سبأ وأساطير أُخرى) أثبت فيه أن هذه الشخصية مجرد أسطورة ولا وجود تاريخياً لها، وأنها من مختلقات سيف بن عمر التميمى، ثم يتابع مسيرة هذه الأُسطورة فى كتب التاريخ المعتبرة القديمة (الطبرى، ابن عساكر، أبو الفداء، الذهبى، ابن الأثير، ابن كثير وابن خلدون) أو المتأخرين (محمد فريد وجدى، البسانى، أحمد أمين، حسن ابراهيم حسن) والمستشرقين (فان فلوتن، نيكلسون، دونالدسن، ولهاوزن، ودائرة المعارف الاسلامية). وتبلغ الدقة العلمية عند السيد العسكرى بأن يضع مخططا يتابع فيه انتقال الرواية من مؤرخ إلى آخر، وكيف ينقل أحدهم عن الآخر دون تمحص أو روية، حتى تنتهى الرواية بالطبرى الذى يرويها عن سيف بن عمر، ليستدل بها فى النهاية أنه الراوى الوحيد لها.

بعد ذلك يخطو السيد العسكرى خطوة أخرى حين يتتبع ترجمة سيف بن عمر فى كتب الرجال السنّية أمثال « لباب

الأنساب» لابن الأثير، و« الاشتقاق» لابن دريد، و« تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلانى وغيرها، ثم يقيم أحاديث سيف من وجهة نظر حديثية، حيث يتابع ما قاله عنه مؤلفو الأسانيد والصحاحات والتواريخ وكتب الرجال من المتقدمين من السنّة، والتى يجمعون فيها على أن سيف بن عمر هو كذاب، متروك الحديث، ليس بثقة، ضعيف، يروى الموضوعات وينسبها للثقاة، أُتهم بالزندقة، إذن هذا الرجل بشهادة أهل السنّة وضاع للروايات والقصص.

ثم يتابع السيد العسكرى الروايات التى وضعها أو غَيرها سيف بن عمر والتى وردت فى كتب الطبرى وابن عساكر، وقارن بينها وبين الروايات التى وردت بطرق أخرى غير سيف بن عمر وبين ما فيها من وضع واختلاق واختلاف.

وهكذا نجد السيد العسكرى يلتزم بمنهج علمى صارم يتابع الحدث التاريخى فى بطون الكتب، ويحقق فى رواته ودرجاتهم فى الجرح والتعديل، كى يصل بالنهاية إليه رد هذه الأُسطورة بشكل لم يجرؤ أحد على رده رغم مرور ٤٥ عاماً على صدور أول طبعة له. ويورد السيد العسكرى فى نهاية الجزء الأول بعض الردود العلمية النزيهة التى جاءته ثم يرد عليها بهدوء وبنفس المنهج.

٣ـ قام الدكتور حسن حنفى بتأليف كتاب قيم من خمسة مجلدات، استغرق تأليفه عشر سنوات، وهو سلسلة (من العقيدة إلى الثورة) يتطرق فيه إلى علوم الكلام والتوحيد والفقه، ومناهج الفِرق الاسلامية التى تناولت موضوعات العلم والعقائد والنظريات الفلسفية، ومفاهيم الوجود والعدم وصفات اللّه، والتجسيم والتنزيه والعدل والقضاء والقدر ودور العقل والقبيح والحسن، والوحى والنبوة والمعجزة، واعجاز القرآن، والمعاد والقيامة والروح، واليوم الآخر والجنة والنار، وقضايا الحكم والامامة وجوبها وثبوتها.

والدكتور حنفى أُستاذ جامعى وله دراسات وندوات ومؤتمرات فى العالم. والكتاب جهد كبير بذله الكاتب فى تتبع الآراء والنظريات للفِرق الاسلامية أثناء استقصاءه لكل مفردة اسلامية. ورغم أنه اعتمد على مصادر كل فرقة اسلامية كالأشاعرة والمعتزلة إلاّ أنه لم يعتمد على مصدر شيعى واحد، رغم أنه غالباً ما يورد آراء الشيعة فى المسائل التى يتعرض لها فى

دراسته القيمة وينسب تلك الآراء إلى الشيعة. لقد خالف الدكتور المنهج العلمى الذى يؤكد على الاستشهاد بأقوال علماء المذاهب أنفسهم ومن خلال مؤلفاتهم الموثقة التى يؤمنون بها، لكنه اعتمد على كتب أعدائهم وخصومهم الذين ما فتئوا ينسبون إليهم كل شبهة أو ضلالة أو كفر أو مروق عن الدين. ترى لماذا أنصف المعتزلة وهم فِرقة بائدة لا وجود لها اليوم ولم ينصف الشيعة المعاصرين له. هل كان السبب عدم توفر المصادر الشيعية لدى الكاتب؟ فهذا بعيد عن الواقع لأن كتب الشيعة متوفرة فى المكتبات فى أنحاء العالم. إن الكاتب كان متعمداً أن لا يعتمد على الكتب الشيعية فى نقل آراء الشيعة لأنه يذكر ذلك صراحة فى نهاية الجزء الخامس ص ٥٥٥ ما نصه (ولم نعتمد على العقائد الشيعية ونصوصها لأنها لا توجد فى وعينا القومى كجزء من التراث الحى ولغلبة الاتجاهات الصوفية والفلسفية عليها).

إذن القضية قومية، وهو ايحاء أن الشيعة ليسوا من العرب، كما أنه منهج اقصائى فى تغييب الآخر المخالف مذهبياً حتى عن البحث العلمى والأكاديمى، وكيف يمكن أن تعبر عقائد المعتزلة عن (التراث الحى) وهى فِرقة منقرضة، بينما لا يعبر المذهب الشيعى عن هذا التراث وهو المنتشر بين أكثر من ١٥٠ مليوناً من البشر، بين العرب وغير العرب؟

لقد التقيت الدكتور حسن حنفى فى ندوة فكرية عقدت فى ٣٠ مايس ١٩٩٧ فى روتردام، وقد طرحت عليه ذلك الإشكال وقلت له: كيف يمكنك وأنت رجل أكاديمى أن تعتمد آراء الشيعة من كتب البغدادى والشهرستانى والأشعرى وابن حزم وهم خصوم الشيعة؟ فأجابنى بهذا الجواب الدبلوماسى: أنا كالنخلة، فإذا وجدت في اعوجاجاً قوّمنى. أكتب أنت الجزء السادس للسلسلة للرد على حسن حنفى. فقلت هذا لا يبرر الخطأ الذى ارتكبته، وكيف تقوّم النخلة المعوّجة. فغير الموضوع قائلاً: أنا كتبت مقالاً خاصاً عن المفكر الاسلامى السيد محمد باقر الصدر (قدس سره)، وزرت ايران...

٤ـ هذا المنهج الخاطئ فى عدم اعتماد كتب الطرف الآخر حين مناقشته، مازال باقياً للأسف بين الأكاديميين. فهذا

اكاديمى سعودى اسمه نـاصر بـن عبداللّه القفارى ، يؤلف رسالة دكتوراه تقدم بها إلى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بعنوان (أصول مذهب الشيعة الامامية الإثنى عشرية ، عرض ونقد) (الطبعة الثانية ١٩٩٤) . وقد عاهد الكاتب نفسه بالمنهج العلمى بقوله (قد عمدت فى بداية رحلتى مع الشيعة ألا أنظر فى المصادر الناقلة عنهم ، وأن أتعامل مباشرة مع الكاتب الشيعى حتى لا يتوجه البحث وجهة أخرى . وحاولت جهد طاقتى أن أكون موضوعياً ضمن الإطار الذى يتطلبه موضوع له صلة وثيقة بالعقيدة كموضوعى هذا . . . والموضوعية الصادقة أن تنقل من كتبهم بأمانة ، وأن تختار المصادر المعتمدة عندهم ، وأن تعدل فى الحكم ، وأنـ تحرص على الروايات الموثقة عندهم أو المستفيضة فى مصادرهم ما أمكن) . إذن الزم المؤلف نفسه بنقل آراء الشيعة من مصادرهم ، فهل التزم بهذا الأمر فى كتابه ؟ للأسف كلا . ففى موضوع (التجسيم) (ج ٢ ص ٥٢٧ ــ ٥٢٨) ينقل (الشيعة أربع ضلالات) ، ١ ـ الغلو فى الإثبات وما يسمى بالتجسيم ، ٢ ـ تعطيل الحق جل شأنه من أسمائه وصفاته ، ٣ـوصف الأئمة بأسماء اللّه وصفاته ، ٤ ــ تحريف الآيات بدافع عقيدة التعطيل للأسماء والصفات . ثم يبدأ بنقل آراء منسوبة « للروافض » (والأجدر أن يقول الشيعة الامامية ولا يستخدم إسماً يلمز من الطرف الآخر) ينقلها عن (منهاج السنة) لابن تيمية ، و(مقالات الاسلاميين) للأشعرى ، و(الفَرق بين الفرق) لعبد القاهر البغدادى وكل من خصوم الشيعة . هكذا ولم يذكر أى مصدر شيعى مع أنه يذكر فى مقدمته أنه قرأ كتاب (الكافى) للكلينى الذى يتضمن الفصل الأول منه واسمه (كتاب التوحيد) الرد على المجسمة وإبطال الرؤية والنهى عن الجسم والصورة وتفاصيل أخرى تبين موقف الشيعة بهذه القضايا .

وهناك أمر آخر ينزلق إليه الكاتب وهو اجتزاء الرواية الشيعية بالقدر الذى يخدم أهدافه . فلكى يثبت موضوعيته وأنه يأخذ من مصادر الشيعة يورد سطراً واحداً من رواية جاءت فى كتاب (التوحيد) للشيخ الصدوق حين سأل أحد أصحاب الامام الصادق عليه السلام ، اسمه أبو بصير : هل يرى المؤمنون اللّه عزوجل يوم القيامة ؟

فقال ﷺ: نعم. إلى هنا ينقل الأكاديمى هذه الرواية التى يوحى هذا الجزء المقتضب منها بالرؤية العينية فى حين أن بقية الرواية تشير إلى الرؤية بالبصيرة والعقل. كل ذلك من أجل أن يثبت المؤلف أن الشيعة أيضاً وأئمتهم يؤمنون بالرؤية البصرية للّه عزوجل. وهذا خلاف الأمانة العلمية والنقل الصحيح من مصادرهم.

٥ـ وقد نثير مشاعر البعض حين نتطرق إلى الكتب العدائية المليئة بالحقد والتعصب الأعمى، والتى تدعمها بعض الجماعات السنّية التى لا هم لها إلاّ محاربة المذهب الشيعى ولو بالافتراء والكذب والبهتان. خذ مثلاً كتاب (مختصر التحفة الإثنى عشرية) الذى ألفه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوى (الهندى) واختصره السيد محمود شكرى الآلوسى (العراقى) الذى قدمه هدية للسلطان عبد الحميد الثانى. ومازال الكتاب يطبع ويوزع مجاناً فى المساجد والمكتبات. فى الباب الأول (فى ذكر فرق الشيعة وبيان أحوالهم وكيفية حدوثهم وتعداد مكايدهم) يذكر فيه ثلاثاً وثلاثين فرقة شيعية، كثير منها لم يسمع بها أحد كالسبئية والمفضلية والسريغية والبزيغية والكاملية والجناحية والبيانية والمنصورية والغرابية والذبابية والدَّمية والمقنعية بل وحتى البهائية. وبعضها مجرد رأى أو مقولة منسوبة إلى شخص يدعى أنه شيعى ليصبح هذا الفرد فرقة شيعية لها أتباع وأنصار ومؤيدون!! وأما الآراء التى ينسبها لهذه الفرق المختلقة فهى عقائد غريبة وقبيحة وفيها شرك وغلو تجعل القارئ ينفر من كل ما له صلة بالشيعة، فهذا هو الغرض الرئيسى للكتاب.

ولا يكتفى الكاتب بنسبة تلك العقائد الباطلة إلى الشيعة بل يفترى عليهم حين يتحدث عن (سورة الولاية) التى (يزعمون أنها سورة طويلة قد ذكر فيها فضائل أهل البيت)، بل وينشر صورة لهذه السورة المزعومة يقول أنها وردت فى كتاب (فصل الخطاب) للطبرسى وقد أخذها الدهلوى عن مجلة الفتح التى أخذتها عن المستشرق دايفز براين والمستشرق الألمانى نولدكه. وقد نقل هذه الصورة الكاتب محب الدين الخطيب فى كتابه (الخطوط العريضة للأسس التى قام عليها دين الشيعة الامامية الإثنى عشرية) والذى ترجم إلى الانجليزية.

ومـن الكتّـاب المتعصـبين الباكسـتانى إحسان إلهى ظهير الـذى ألـف كتاباً بعنـوان (الشيعة والسـنة) رداً علـى دعـوات الوحـدة الاسـلامية، تلـك الـدعوات التـى (كثـر استعمالها حتـى كـاد أن ينخـدع بهـا السـذّج مـن المسلمين لو مـا عرفـوا مـا وراءهـا مـن كيد ودس ودهاء. فليست هـذه الكلمـة، إلاّ كلمة حق أريد بها باطل) (المقدمـة). وفـى الصفحة الأولى يطالعنا هذا الكاتب بمنهجـه الذى يصف فيه الشيعة بأنهم (ربيبة اليهود، وفصيلتهم فى بلاد الاسـلام... يريـدون أن يترك المـسلمون عقائـدهم ومعتقـداتهم فـى اللّه وفى رسوله وأصحابه الذين جاهدوا تحت رايته، وأزواجه الطاهرات اللائى صاحبنه فـى معروف، وفى الكتاب الـذى أنزلـه اللّـه عليـه من اللوح المحفـوظ، نعـم يريـدون أن يتـرك المسـلمون كـل هـذا، ويعتنقـوا مـا نـسجته أيـدى اليهوديـة الأثيمـة مـن الخرافـات والترهـات فـى اللّـه) ص ٦. وهـدف الكاتـب كما يقول كاتبـه: (وقـد أثبتنـا فـى مختصـرنا هذا أن الشيعة ليست إلاّ لعبة يهودية، ناقمة علـى الاسـلام، وحاقـدة علـى المسـلمين، وعلى رأسهم رسول اللّه) ص١٤.

هـذه هـى الموضوعية، وهـذا هـو الأدب الـذى علّمنـاه القـرآن الكـريم، وهـذه هـى المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة. وهـذا هـو الحكـم المسـبق علـى مـذهب اسـلامى عريق بأئمتـه عليهم السلام وتاريخـه وعلمائـه وفقهائـه ومؤلفاته وتصانيفه واجـتهاداته، والإدانـة قبل المحاكمـة، والشـتائم والسـباب بـدل النقـد الهادئ المؤدب.

ولا نريد أن نـدخل فـى القضـايا الخلافيـة فـى العقائـد لكننـا نشـير إلـى قضـية تأريخيـة واضحة ينكرها إلهـى ظهيـر حيـث يـدعى أن (أكثر أهل فـارس فـى الشـيعية لمـا يجـدون فيها التسلية بـالسباب عـلـى الصـحابة، عمـر وعثمان، فاتحى ايران ومطفئى نار المجوسية فيها) ص ٥٦، ناسـياً أن ايـران بقيـت لأكثـر من ألف سنة سنّية المذهب، وبـرز فيهـا كبـار فـقهاء وعـلماء السـنة الـذين يرجـع إلـيهم الكاتب أمثـال البخـارى ومسـلم النـيسابورى وأبـو داود السجسـتانى ومحمـد بـن عيسـى الترمـذى وأبـو عبداللّـه النسـائى وابـن ماجـة القزوينى وأبو حنيفة النعمان والطبرى والرازى المفسـر وغيـرهم، ممـا لا يـسع المـجال لذكـرهم، ولم تدخل ايران مذهب التشـيع إلاّ فـى القـرن السـادس عشـر المـيلادى بعـد وصول الصفويين إلى السلطة.

إذن كانت ايران أكثر من ثلثى تاريخها سنّية المذهب. بينما يتصور إلهى ظهير أنها دخلت التشيع منذ صدر الاسلام، ويبنى على هذا الرأى الخاطئ استنتاجاته وتأويلاته التى ينقلها من المستشرق الانجليزى جورج براون ص٥٧.

٦ــ قبل تسعين عاماً سافر السيد عبد الحسين شرف الدين العاملى إلى مصر والتقى شيخ الأزهر آنذاك سليم البشرى، وتداولا أمور الأمة الاسلامية والخلافات المذهبية، وأنه لا داعى لتلك الخصومة المستمرة. واتفقا على معالجة الخلاف بأُسلوب علمى رصين من خلال أسئلة خطية يطرحها الشيخ البشرى ويجيب عليها خطياً السيد شرف الدين على أن يدعم أجوبته بالعقل وبالنقل الصحيح عند الفريقين. تجمعت تلك القصاصات وسمى بالمراجعات وعددها ١١٢ مراجعة، والتى بدأت فى ٦ ذى القعدة ١٣٢٩ (٢٩ تشرين الأول / اكتوبر ١٩١١) وانتهت فى ٢ جمادى الأولى ١٣٣٠ (١٩ نيسان / ابريل ١٩١٢).

كشف العالمان الجليلان عن قمة فى أدب الحوار وخلق المناظرة الاسلامية، فتتعجب من عبارات الإطراء والثناء كل واحد للآخر وهما يخوضان قضايا تاريخية وعقائدية حساسة، فى رحلة مشتركة بحثاً عن الحقيقة. وهذه المناظرات تمثل قدوة لكل من يريد خوض غمار الجدل مع الآخرين. ويتكامل منهج العالمين الجليلين بالإحتجاج بالأدلة القوية من المصادر الموثوقة لدى الطرفين، فلا اسفاف ولا تهريج ولا كتمان حق، ويبحر السيد شرف الدين برفيقه فى بحار العقائد والتفاسير والتواريخ وكتب الرجال وغيرها حتى يوصله إلى شاطئ الهداية. وفى الختام يعبر الشيخ سليم البشرى عن إعجابه بالسيد وفضله عليه، فيقول فى المراجعة رقم ١١١ (أشهد أنكم فى الفروع والاصول، على ما كان عليه الائمة من آل الرسول، وقد أوضحت هذا الأمر فجعلته جلياً، وأظهرت ما كان خافياً، فالشك فيه خبال، والتشكيك تضليل... وكنت ـ قبل أن أتصل بسببك ـ على لبس فيكم لما كنت أسمعه من ارجاف المرجفين، واجحاف المجحفين، فلما يسر اللّه اجتماعنا أويت منك إلى علم هدى ومصباح دجى، وانصرفت عنك مفلحاً منجحاً، فما أعظم نعمة اللّه بك على) !.

٧ــ انتشر كتاب المراجعات بصورة واسعة فى العالم الاسلامى، واستبصر

الكثيرون بعد قراءته ، لما تضمنه من منهج علمى وحوار هادئ يمس شغاف القلب والعقل معاً . ولم يرق لبعض الدوائر التى تريد للتوتر أن يحدد مسار العلاقة بين السنة والشيعة ، وللتعصب والحقد أن يحل بدلاً من الوحدة والتآلف أو على الأقل عدم التعرض للآخر ، فقام أحدهم ، محمود الزعبى ، بتأليف كتاب يرد فيه على كتاب المراجعات سماه (البينات فى الرد على أباطيل المراجعات) عام ١٩٨٦ . وجاء فى مقدمته التى تعبر عن نفسية حاقدة مريضة حيث يقول : (يعتبر كتاب المراجعات من أهم كتب الرافضة التى عرض فيها مؤلفه عبدالحسين الموسوى مذهبه ـ مذهب الرفض ـ بصورة توهم الكثير من أهل السنة بصدق ما جاء فيها ، لا سيما اولئك الذين لم يسبق لهم معرفة عقيدة الرافضة وأساليبهم الماكرة ، والتى تركز على الأدلة الكاذبة الموضوعة ، والتلاعب بالأدلة الصحيحة سواء بالزيادة فيها أو الإنقاص منها ، أو بتحميلها من المعانى ما لا تحتمله . كل هذا يفعلونه نصرة لمذهبهم ، وتأييداً لباطلهم) ص ٥ .

ويذهب الزعبى أكثر من ذلك حين يزرع الشك فى حدوث هذه المناظرات بين السيد شرف الدين والشيخ سليم البشرى . فقد آلمه أن يؤيد شيخ الأزهر هذه الحقائق ، وليس باستطاعته الطعن فى علمية وكفاءة أحد شيوخ الأزهر الكبار ، لذلك لجأ إلى هذا الادعاء دون أن يعرض أدلته ، كما أقلقه تأثر البعض من أهل السنة واهتداؤهم إلى التشيع ، حيث يقول : (ولما كانت هذه المراجعات لا أصل لها من الصحة ، بل هى محض كذب وافتراء ، ولما مر على ظهور هذا الكتاب قرابة ثلاثين عاماً ولم نجد أحداً من علماء السنة قد ردّ على هذه المراجعات المكذوبة جملة وتفصيلاً . ولما كان هذا الكتاب قد أثر فى بسطاء المسلمين وعامتهم ، جهلاً منهم بعقيدة الرافضة ، وأُصولهم المخالفة لأُصول الاسلام الثابتة فى الكتاب والسنة الصحيحة ، وظناً منهم بصدق هذه المراجعات غير مدركين تدليس وكذب صاحبها حيث أظهر موافقة شيخ الأزهر على كل ما عرضه من أدلة مكذوبة وفى الوقت نفسه لم يجدوا من يكشف لهم كذب هذه المراجعات ويبين لهم ما أشتملت عليه من زيغ وضلال . ولما كان تحذير المسلمين من عدوهم وفضح كل

الطوائف والفرق الخارجة عن الاسلام أمراً واجباً على كل داعية، بل هو من أعظم القربات إلى اللّه حيث يميزون الخبيث من الطيب ويبينون سبيل المجرمين) ص ٦ .

فالدافع والهدف واضحان وهما تكذيب ما ورد فى المناظرات، وتكفير الشيعة باعتبارهم خارجين عن الاسلام. وبذلك نخلق حاجزاً نفسياً وعاطفياً وعقائدياً جديداً بين المسلمين، ولتواصل حملات العداء والكراهية والتفرقة والبغض.

واعتمد الكاتب أسلوب عرض أصل الكتاب أى المراجعات ثم يعلق على بعض القضايا والأُمور فى الهامش. ويفتقد الكتاب للمنهج العلمى فى الرد والنقد بل يعتمد أسلوب التقول، وأن السيد يقصد كذا وكذا. فرغم أنـ السيد يذكر فى المراجعة رقم ٤ أنه (لا يرتاب فى اجتهاد أئمة المذاهب الأربعة، ولا بعدالتهم وأمانتهم ونزاهتهم وجلالتهم علماً وعملاً) ، لكن الزعبى يقول (كلام المؤلف فى هذه المراجعة يوحى (لاحظ استخدامه كلمة يوحى) بأن أئمة المذاهب الأربعة يناصبون أئمة أهل البيت العداء، ويسيرون على غير مذهبهم، وهذا غير مسلّم) ص ٢٤ .

وفى مكان آخر يقول الزعبى رداً على عبارة لشرف الدين (وفى قوله اشارة واضحة إلى أن الجمهور (وهم أهل السنة) قد خالفوا الائمة من آل محمد ! ولم يتمكنوا من تحصيل نية القربة للّه فى عملهم على مذهبهم ! يا للّه ! ما هذه الجرأة التى جعلته يجازف بهذا الحكم، فيحرم أهل السنة ومجتهديهم حتى من أجر النية) ص ٢٥ .

ويستمر فى هذا النهج الذى يحاول اكتشاف ما فى نفس وذهن الطرف الآخر، وليس على ما يرد لسانه أو ما يخطّه قلمه. إنه يجتهد فى ترصد الخصم من أجل صيد كلمة أو عبارة يحاول تأويلها وتفسيرها فى الاتجاه الذى يريده هو بعيداً عن المعنى المقصود منها. فينتقى ما يشاء من القضايا المطروحة ويترك ما يشاء. مثلاً يهرب الزعبى من الحديث عن فتح باب الاجتهاد لدى السنة فيدفع بها إلى التاريخ، ويكتفى بالقول (وهى قضية خلافية ليس بين السنة والشيعة، بل بين أهل السنة أنفسهم، ولكل

من مؤيدى فتح باب الاجتهاد، أو اغلاقه، آراؤه وأدلته، وكلا الطرفين لا يقولون برأى من غير تمحيص، بل القضية مبحوثة ومتكلّم فيها فى كتب الأصول قديماً وحديثاً) ص ٣١.

ويحاول الزعبى بشتى الوسائل تكذيب أدلة السيد شرف الدين فتراه يكذب صحة نسبة كتاب نهج البلاغة للامام على بن أبى طالب عليه السلام بل يدعى أن الشريف الرضى هو الذى ألفه ص ٣٦. هكذا فالأمر ميسور هو إنكار كل ما يدعم أدلة الخصم دون أن يأتى سوى بدليل من فرقته حيث يعتمد على ما ذكره كتاب (ميزان الإعتدال)، وكتاب (المنتقى من منهاج الإعتدال) لمحب الدين الخطيب، و(الفتاوى الكبرى) لابن تيمية.

ويقوده منهج الإنكار إلى نفى الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فتراه يتهم السيد شرف الدين، العلامة الفقيه المحقق بوضع روايات منسوبة للامامين الباقر والصادق عليهما السلام. ففى معرض تفسير شرف الدين لآية (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه) وآية (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)، حيث يذكر أن الباقر والصادق عليهما السلام يقولان: الصراط المستقيم هنا هو الإمام، ولا تتبعوا السبل أى أئمة الضلال، فتفرق بكم عن سبيله ونحن سبيله. وهنا يحتج الزعبى بنفس أسلوب الإنكار فيقول: (من أين الدليل على أن قول الباقر والصادق هنا صحيح؟ وأهل السنة والجماعة يعتقدون أن هذا من الكذب على الباقر والصادق رضى اللّه عنهما. وحبذا لو ذكر المؤلف سند هذه الرواية، لكنه يعلم أنها غير مقبولة فلعله أسقطها أو أن الكلام مجرد تفسير بالهوى منسوب زوراً للباقر والصادق!) ص ٨٨ لقد كان بإمكانه الاكتفاء بالمطالبة بسند الرواية وهذا أمر لا غبار عليه، ولكن اتهام السيد شرف الدين بأنه أسقط السند لأنها غير مقبولة أو يتهمه بنسبة الرواية لأئمة أهل البيت عليهم السلام زوراً، فهذا غير لائق، كما لا دليل عليه أيضاً إلاّ سوء النية التى على الباحث أن يتجرد منها ليحافظ على موضوعيته وحياده وأمانته. هذا اضافة إلى أن السيد شرف الدين غالباً ما

يحيل سند الرواية فى الهامش إلى الكتب المعتبرة، لتجنب الإطالة فى المراجعة.

ورغم منهجه الباطل فى التهميش والحواشى فقد أحسن الكاتب إذ طبع لنا كتاب المراجعات كله ليطلع ذوى العقول على منهج السيد شرف الدين وأدلته القوية من القرآن والسنّة، فيكون بذلك قد أسدى خدمة للتشيع دون أن يعلم.

٨ـ يميل بعض الغربيين إلى اعتناق الاسلام، وخاصة فى السنوات العشر الأخيرة، لما فيه من ميزات وصفات ينفرد بها عن الديانات الأخرى، ويدخل هؤلاء الاسلام من خلال الباب المذهبى الذى فتح أمامهم، فلو كان من أقنعهم بالاسلام سنياً أصبح الغربى مسلماً سنياً، وإن كان من أقنعه بالاسلام شيعياً صار هو شيعياً أيضاً، لأن المسلم الغربى الجديد لا يملك فكرة، فى الوهلة الأولى، عن المذاهب الاسلامية أو ليست من اهتماماته فى تلك المرحلة المبكرة. ولكن ما أن يبدأ تعلم الاسلام عقيدة وأحكاماً وتاريخاً يبدأ بتلقى الفوارق والاختلافات بين المذاهب. وتعتمد نظرته للمذاهب الأخرى، عدا مذهبه، حسب المعلومات التى تلقاها من مشايخ مذهبه. فإذا كانت معلومات متوازنة وموضوعية، عاش حالة التوازن والوعى الحقيقى، وأما إذا تلقاها بأُسلوب التكفير والتفسيق والاتهام بالضلالة، فستعتبر كل ما تلقاه صحيحاً تجاه الآخرين، على الأقل فى الفترة الاولى من تلقيه تلك المعلومات. بالطبع قد يملك هذا المسلم الغربى عقلاً نيراً ووعياً يجعلانه يبحث عن تلك المذاهب بطرق غير التى قيلت له أو وصلت عبرها معلوماته عن تلك المذاهب الاسلامية. وهذه حالة نادرة إلاّ إذا تهيأت له فرصة جيدة وامكانات قوية.

على أية حال يبقى هؤلاء المسلمون الجدد متأثرين بمشايخ وكتب مذهبهم الاسلامى، وينظرون للآخرين من خلال مواقف هؤلاء المشايخ أو مؤلفات المذهب. وهذا الأمر بحاجة إلى دراسة مستفيضة لكننى أشير إلى قضية واحدة:

مراد هوفمان سفير ألمانيا فى المغرب، اعتنق الاسلام، ودافع عنه، وانتقد الحضارة الغربية، ألف عدة كتب منها

مـذكراته التى يـذكر فـيها كـيفية اسـلامه ، ومنها كتابه الشـهير (الاسـلام هـو البـديل) الصادر فى ١٩٩٣ . يبدأ الكاتب مقدمته بقول لأميرالمـؤمنين عليه السلام يقـول فيـه : « الانـسان عـدو ما يجهله .

يتنـاول الكتـاب عـدة قـضايا فـكرية وعـقائدية وقـانونية واجـتماعية . وفـى فصـل (جـمهورية أم مـلكية ؟ ـ سنّة مقابل شـيعة) يقع الكاتب فيما حاول أن يحتـرس منـه ، ألا وهو الجهل ! ورغم أنه يؤمن بأن (عـلياً كـان بـلا شك أقرب الناس إلى شخصية الانسـان الكامل) وأنـه المـرشح الأفـضل للخـلافة بـعد النـبى صلى الله عليه وآله حيث يقول (فلو كان لعلى أن يكون أول خليفة للمسلمين ، لكـان لـه كثيـر مـن الأسـباب الجليـة التـى تثبـت شـريعة خلافتـه ، بمـا فيهـا الأقدميـة فـى الاسـلام والفضل والمناقب) لكـنه مع ذلك يعتقد (أن انتخابه كان سيؤسس للمبدأ « الملكـى » فـى الاسلام) ص١٣٠ .

ويعتقد بأن (الرسول صلى الله عليه وآله لـم ينصـح أمتـه بخليفة محدد له ، وذلك لتجنب عـدم تكـافؤ الفرص بين المرشحين لذلك المنصب) ص ١٣٣ . وانطلاقاً من الديمقراطية التى يـعيشها مـراد هوفمان ، لا يستطيع تفادى اسـقاطاتها على فكره ووعيه ، لذلك يقول : (فقـد حـافظ الاسلام السنى ، وذلك بفضل اختيار أبى بكر وعمـر وعثمـان للخلافـة ، علـى قدرتـه علـى إحياء المبدأ الديمقراطى الشـمولى وتثبيتـه) ص ١٣١ . وهــذا يــعكس ســطحية فــى التفكير وكيفية قـراءة التـاريخ ، بـل ويـناقض الواقع التاريخى لأن الخليفة الثانى عمـر بـن الخطـاب اسـتلم الخلافـة عبـر ولايـة العهـد حيث أوصى له بـها الخـليفة الأول أبـو بكـر الصديق والذى (كانت بـيعته فـلتة وقى اللّـه المسلمين شرها) . ورغم انتقاده لعشيرة بنـى أميـة الارسـتقراطية التـى كانـت مـن أكثـر القبائل التى حاربت محمداً صلى الله عليه وآله وأكثـرت فـى أذيته ص ١٣٤ ، لكن مـراد هـوفمان يعتقـد أن مطالبـة علـى عليه السلام بالخلافـة كانـت تعنـى تكريساً وتثبيتاً للحكـم الملكـى الـوراثى . ثـم يضيف (وقد أضفى الشيعة على أئمتهم طابع العصـمة المطلقـة أخلاقيـاً وعقائـدياً ، وهـم يكونون بذلك قد رفعـوهم منزلـة تعلـو منزلـة الرسول صلى الله عليه وآله نفسه . ص ١٣٥ .

هكذا ينسب الرأى دون وعى أو مصدر يعتمد عليه بل هو مما تعلمه أو قرأه فى مصادر خصوم الشيعة . ويمضى هذا الدبلوماسى المثقف فى تشنيعه على الشيعة ، لا لهدف إلاّ ارضاءً لنزعة العداء التى تعلمها ، وقد يعتقد أنه يتقرب إلى اللّه تعالى بسب الشيعة والنيل منهم ، فيقول (لقد نشأت لدى الشيعة فى هذا السياق العقيدة العجيبة ، إن لم نقل الدهشة ، عما يسمى بالامام الثانى عشر (المستتر) الذى غاب عن الأنظار عام ٨٧٣ م ص ١٣٥ . ويقول أيضاً (يعتقد الشيعة بأن لعلماء الدين أو الفقهاء أن يقرروا الأخذ بظاهر القرآن أو الأخذ بباطنه . وهذا ما قد يشجع على انتشار الفهم النخبوى المتخم بالسرية والصوفية للقرآن ، ويساعد على نشوء رجال دين يذكروننا بالمزدكية) ص ١٣٦ . هكذا يطرح آراءه ـــ دون دليل أو مصدر أو حديث أو تفسير ، بل مجرد سماع من بعض المشايخ أو ترديد لكتب الخلافات الطائفيه .

الشيخ مرتضى الترابى
أستاذ في حوزة قم المقدّسة

القواعد الفقهية
المفهوم والمميزات والتطور التاريخي

القواعد الفقهية هى جزء من علم الفقه، تمتاز عن سائر المسائل الفقهية بالاستيعاب والشمول؛ فان كل قاعدة منها ضابط تضبط الفروع المتعدّدة وتجمع شتاتها تحت حكم واحد، فدراستها وضبطها موجب للاستغناء عن حفظ الجزئيات الكثيرد، يحقّق الاشراف على المسائل الفقهية، ويعين الفقيه على استنباط الأحكام الشرعية للمسائل والوقايع المتجدّدة؛ لأن تطبيقها على مصاديقها فى مختلف الأبواب يوجب الوقوف على المسائل ومعرفة العلاقات المنطقية القائمة بين المصاديق وبين القضايا الكلية.

القاعدة بحسب مفهومها اللغوي هي الأصل والأساس

قال الخليل: القواعد: أسّس البيت، الواحدة قاعد، وقياسه قاعدة بالهاء

و قال ابن منظور: القاعدة: أصل الأس، والقواعد: الأساس، وقواعد البيت أساسه. وفى

التنزيل: ﴿ **وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾، وفيه: ﴿ **فأتى اللّه بنيانهم من القواعد** ﴾، قال الزجّاج: القواعد أساطين البناء الّتى تعمده. وإلى هذا المعنى تؤول"قواعد الهودج"و هى خشبات أربع معترضة فى أسفله تركب عيدان الهودج منها و"قواعد الحساب"و هى أصولها المعترضة فى آفاق السماء شبهت بقواعد البناء.

فقواعد كل شيء أسسه وأصوله الّتى يبتنى عليها، سواء أكان ذلك الشيء حسيا كما فى الأمثلة السابقة أو غير حسي، كما تقول قواعد الدين أو قواعد العلم.

أما القواعد من النساء وهنّ الكبيرات السن اللواتى قعدن عن الحيض والولد، أو قعدن عن الازواج، فإنّ مفردها القاعد لا القاعدة، فالظاهر أنّها مأخوذة من القعود بمعنى الجلوس وعدم القيام، لا القاعدة بمعنى الأساس كما توهمه بعض.

أما المفهوم الاصطلاحى للقاعدة الرائج فى العلوم المختلفة كالنحو والصرف والمنطق والفلسفة والفقه وغيرها، فهو: القضية الكلية الّتى تنطبق على جزئياتها.

قال الطريحى: القاعدة فى مصطلح أهل العلم الضابطة، وهى الأمر الكلي المنطبق على جميع الجزئيات، كما يقال: كلّ إنسان حيوان وكلّ ناطق إنسان ونحو ذلك.

و قال الشريف الجرجانى: قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها.

و قال فخر المحقّقين: القواعد جمع قاعدة وهى أمر كلّى يبنى عليه غيره ويستفاد حكم غيره منه، فهى كالكلّى لجزئياته والأصل لفروعه.

و تستعمل بهذا المعنى فى العلوم المختلفة ومنها الفقه؛ لأن لكلّ علم قضايا كلّية يعرف منها حكم مصاديقه. والمراد بالأمر الكلّى الّذى ورد فى بعض التعريفات كتعريف الطريحى وتاج الدين السبكى وغيرهما هى القضية الكلّية لا المفهوم الكلّى المفرد الّذى لا يمنع من الشركة لأنّ النظر فى القواعد إلى الموضوع والمحمول والنسبد بينهما لا الموضوع فقط كما هو واضح.

اختلاف فى الحكم لأمور خفية اعتبار وجود نكتة ثبوتية فى تأسيس القاعدة: ذكر المحقّق الشهيد، السيد محمّد باقر

الصدر ﷺ أن القاعدة سواء الأصولية أو الفقهية أو غيرهما انّما تتقوم بوجود نكتة ثبوتية واحدة فيها، بحيث يكون ترتب الحكم فيه على الموضوع بملاك واحد حقيقة ـ سواء أكان الملاك هو نفس العنوان المأخوذ فى الموضوع أو غيره ـ فلا يكفى فى تكونها تجميع الأحكام المتعدّدة بحسب الجعل تحت عنوان جامع وابرازها بمبرز واحد، ما لم يكن لذلك العنوان دخل فى ترتب تلك الأحكام على موضوعاتها. قال ﷺ: فانّ المعنى الفنى للقاعدد يتقوم بأن تكون القاعدة أمرا كليا، وذات نكتة ثبوتية واحدة بحيث ترجع إلى حقيقة واحدة، فان كانت القاعدة من المجعولات التشريعية كحجية خبر الثقة أو قاعدة من غير المجعولات كقاعدة الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدّمته، فوحدتها بوحدة تقرّرها الثبوتى بوصفها حقيقة واحدة ثابتة فى نفس الأمر.

ثمّ مثل لما ليس بقاعدد حقيقة لعدم وجود نكتة ثبوتية واحدة فيها بقاعدة لا ضرر، بناء على التفسير المشهور لها وقال ﷺ: مفاد لا ضرر ليس الا مجموعة من التشريعات العدمية جمعت فى عبارة واحدة، فقصر وجوب الوضوء بغير حالة الضرر، وقصر وجوب الصوم على غير حالة الضرر مثلا، ليسا مجعولين بجعل واحد وثابتين بتقرر واحد، بل الأوّل ثابت بتقييد جعل وجوب الوضوء بغير حالة الضرر، والثانى ثابت بتقييد جعل الصوم بغير حالة الضرر، غاية الأمر ان الشارع جمع بين هذه التشريعات العدمية المتعدّدة بجعولها فى مبرز واحد؛ إذ لا يوجد أمر كلّى وحدانى يكون دخيلا فى اثبات كل واحد من هذه التشريعات، بل هى جميعا تثبت فى عرض واحد بدليل واحد، فهذا من قبيل أن يقال: كل ما ثبت للرجل فى المعاملات فهو ثابت للمرأة، فان هذا ليس قاعدة، بل هو تجميع لجعول وأحكام متعدّدة تحت عنوان ثانوى مشترك وابرازها بهذا العنوان...

اقول ما ذكره ﷺ من تقوّم القاعدة بوجود ملاك واحد يدور الحكم مداره فى القاعدة صحيح، لا غبار عليه، وهو المفهوم من قولهم فى تعريف القاعدة: هى"قضية كلّية"أو"الأمر الكلّى"؛ لأنّه من الواضح ليس المراد من القضيد الكلية أو الأمر الكلى مجرّد تجميع الموارد المشابهة فى عبارد واحدة من دون أن يكون بين جزئياتها

اشتراك حقيقى يوجب ترتب حكم واحد عليها، ومن هنا يعلم أن جمع الأحكام المشابهة تحت عنوان واحد، الّذى قد يعبّر عنه بالأشباه والنظائر، لا يوجب تكوّن قاعدة فقهية، ما لم يرجع إلى استنباط قضية كلية ذات نكتد ثبوتية واحدة.

هذا ولكن يرد على كلامه ﷺ أن ما ذكره من الأمثلة لبيان ما ليس له نكتة ثبوتية واحدة غير تام؛ فانّه ﷺ مثل لها بقاعدة لا ضرر، واشتراك المرأة مع الرجل فى أحكام المعاملات، وفى انطباق كلا هذين المثالين على ما ذكره اشكال؛ لأنّه لا مانع من أن يكون نفس ثبوت الضرر هو الملاك فى رفع الأحكام الثابتة فى الشريعة لو لاه، فيكون هناك تشريع واحد وهو رفع الأحكام الالزامية بملاك واحد وهو تحقّق الضرر فى مواردها.

و كذلك الأمر فى المثال الثانى الّذى ذكره وهو قوله: "كلّ ما ثبت للرجل فى المعاملات فهو ثابت للمرأة"؛ فانه ـ بناء على ثبوته ـ يرجع إلى ملاك واحد وهو اشتراك الرجل والمرأة فى التكليف، بمعنى: أنّ الملاك فى ثبوت أحكام المعاملات.

هو البلوغ والعقل، ولا دخل للرجولة والأنوثة فى ذلك، ولا شك أنه أيضا بيان لتشريع واحد بملاك واحد.

نعم، يمكن التمثيل لما ذكره من التجميع لجعول متعدّده من دون أن يكون هناك نكت ثبوتية واحدة، ببعض ما ذكر من القواعد فى فقه غير الامامية، كقولهم: « من استعجل الشيء قبل أو انه عوقب بحرمانه »، أو قولهم: « البقاء اسهل من الابتداء »، ونحوهما إذ الظاهر أنها مجرّد تجميع لأحكام متشابهة مع عدم كون الجعل فيها مرتكزا على نكتة ثبوتية واحدة.

القاعدة الفقهية

القاعدة الفقهية هى: أحكام شرعية كلية ذات استيعاب وشمول تستفاد من تطبيقها أحكام شرعية أخرى كلية أو جزئية.

والظاهر أن المراد من "الأحكام" المأخوذة فى تعريف الفقهاء المتعرضين لها بقرينة تقييدها بالشرعية هو: الأحكام التكليفية كالوجوب والحرمة، والأحكام الوضعية كالصحة والبطلان والضمان والجزئية والشرطية للعبادات ونحوها، وليس المراد منها كل حكم ثبت من طريق الشرع تأسيسا أو امضاءا وإن لم يكن

منهما، فلا تشمل القضايا الواردد فى الفقه فى بيان الموضوعات العرفية كبيان معنى العمد والخطأ أو الغنى والفقر أو الصيد البرى والبحرى ونحوها؛ لانها لا تتضمن احكاما شرعية متعلقة بعمل المكلفين، بل انما يرجع اليها لمعرفد موضوع الحكم الشرعى وذلك كالرجوع إلى أهل اللغة فى ذلك عند فقدها.

نعم، ما ورد فى الشرع لبيان الموضوعات المخترعة من قبل الشارع كالعبادات، هو من الأحكام الشرعية الوضعية؛ لأن العبادات مجعولة من قبل الشارع موضوعا وحكما، فيعد بيان موضوعها أى: بيان كون شيء شرطا فيه أو جزءا، كبيان حكمه من الصحة والفساد، حكما شرعيا.

فالقضايا الواردة لبيان الموضوعات العبادية داخلة فى القواعد الفقهية ان توفر فيها سائر عناصر القاعدة وهذا بخلاف بيان الشرائط الدخيلة فى تحقق معنى عرفي كالبيع أو الاجارة أو العمد والخطأ ونحوها؛ فانها ليست حكما شرعيا تكليفيا ولا وضعيا، فلا تسمّى القضايا المتعلقة بها قواعد فقهية.

فالأحسن تسمية هذا النحو من القضايا ان كانت لها كلية وشمول ضوابط لا قواعد؛ لأن الضابط يستعمل فى الاصطلا فى المقياس الّذى يكون علامة على تحقق معنى من المعانى، كما يقال: ضابط العمد: أن يكون عامدا فى فعله وقصده ونحوه.

الاستيعاب والشمول في القاعدة الفقهية

لا شك أن أكثر الأحكام الشرعية أحكام كلية، وما ورد من الأحكام الجزئية كالاحكام الخاصة ببعض الأماكن والذوات المقدسة، مثل أحكام بيت اللّه الحرام، أو مختصات النبى ﷺ، والائمة عليهم السلام قليل بالنسبة إلى باقى الأحكام؛ إذ أكثر الأحكام صيغت على نحو القضايا الكليد.

و على هذا فكلية الحكم وحدها غير كافية فى تسميته قاعدة فقهية، بل لابد أن يكون له شمول واستيعاب بحيث ينطبق على مصاديق كثيرة وتتفرغ عليه فروع متعدّدة، وهذا هو العنصر الأصلى فى تسمية حكم شرعى قاعدة فقهية، نعم لا فرق فى ذلك بين كونها جارية فى باب واحد أو أبواب متعدّدة.

و ما اصطلح عليه بعض من تخصيص

مـا يجـرى مـنها فـى بـاب واحـد بـاسم الضـابطة، وتسـمية مـا يجـرى فـى أبـواب مـتعدّدة بـالقاعدة، لا موجب لـه، بعـد تـوفر الملاك فيهما معا، وهـو الشـمول والسـعة، مما يـخرجه عـن كونه مسألة فقهيـة فرعيـة، والأحسـن مـا ذكرنـا مـن تخصـيص اسـم الضـابطة الفقهيـة بمـا ورد فـى الفقـه مـن النـصوص أو تصريحات الفقهاء حول تحديد الموضوعات العـرفية.

مـن الواضـح: أنـّه ليـس معنـى الاستيعاب فـى القـواعد الفقهية هو اطرادها بحيث لا يوجد لها مستثنيات، فليست هـى كالقواعد العقليـد الّتـى لا تقبـل التخصـيص والاستثناء، بـل هـى قـواعد أغلبية حتّـى أن الـبعض أخـذ قيـد الأغلبيـة فـى تـعريف القـواعد الفـقهية وجـعل كـونها أغلبيـة هـو الفارق بينها وبن القواعـد الأصـولية، فقـال: إن القاعدة عنـد الفقهـاء غيرهـا عنـد النحـاة والأصـوليين؛ إذ هـى عنـد الفقهـاء: حكـم أكثرى لا كلـى، ينطبـق علـى أكثـر جزئياتـه لتعرّف أحـكامها.

ولكن جعل ذلك فارقا بينها وبين القواعـد النحوية والأصـولية غيـر وجيـه كمـا سـيأتى؛ لأن القواعـد النحويـة والأصـولية أيضـا لهـا مستثنيات كما هـو معلـوم لأهـل التحقيـق، نعـم هنـاك فـرق فـى كيفيـة الاسـتثناء والتـخصيص فـى البـابين؛ فـان مـلاك التخصـيص فـى القواعـد الأصـولية بـل والنحوية على أساس أمور ارتكازية وملاكـات عرفية، وهذا بخلاف القواعـد الفقهيـة؛ فـإن التخصيص فيها فى الغالـب يسـتند إلـى أمـر تعبدى محض، وسـيأتى التـعرض له.

الفـرق بـين القواعـد الأصـولية والفقهية:

قـد ذكـر الفقهـاء فـي بيـان الفـرق بـين القواعد الأصولية والفقهية وجوها:

منها: ان القاعـدة الفقهيـة تشـتمل علـى حـكم شـرعي عـام، يسـتفاد مـن تطبيقهـا الحـصول عـلى أحكـام شرعية جزئيـة هـى مصاديق لذلك الحكم العـام، بينمـا المسـألة الأصولية تسـتبطن حكمـا عامـا يسـتفاد منـه استنباط أحكام مغايرة لذلك الحكم العام.

قال السـيد الخـوئى ﵀:

استفادة الأحكام الشـرعية الإلهـية مـن المسـألة"الأصـولية"مـن بـاب الاسـتنباط والتوسـيط، لا مـن بـاب التطبيـق، (أي:

تطبيق مضامينها بنفسها على مصاديقها) كتطبيق الطبيعي على أفراده ، والنكتة في اعتبار ذلك (أي الاستنباط) في تعريف علم الأصول ، هي : الاحتراز عن القواعد الفقهية ؛ فإنها قواعد تقع في طريق استفادة الأحكام الشرعية الإلهية ، ولا يكون ذلك من باب الاستنباط والتوسيط ، بل من باب التطبيق ، وبذلك خرجت عن التعريف .

و يرد عليه : أن مجرّد القول بأن أحد الموردين من باب التطبيق والآخر من باب الاستنباط ، لا يجدي في بيان الفرق بينهما ؛ وذلك لما تقرر في محله من أن عملية الاستنباط والاستدلال عبارة عن تطبيق القضية الكبري على مصاديقها ، فكل عملية استنباط تطبيق ، وكل عملية تطبيق استنباط ، وكون المصداق كليا أو جزئيا لا يؤثر فى ذلك ، وانما يحتاج إلى الاستنباط لأجل ازاحة الابهام والاجمال ؛ فإن الانسان كثيرا ما يعرف الحكم الكلى ويعرف أن حكمه جار فى مصاديقه أيضا ، ولكن لا يعرف المصداق بعينه ، فعملية الاستنباط تعينه فى رفع هذا الاجمال .

و الصحيح أن يقال فى بيان هذا الفرق - و لعل هذا هو مراد العلامة الخوئى ﷺ - : إن القاعدة الأصولية تثبت قيام الحجة على الحكم الشرعى ، بخلاف القاعدة الفقهية ؛ فإنها تثبت نفس الحكم الشرعى لموضوع كلى أو جزئى .

و بعبارة أخرى : أن اثبات نفس الحكم الشرعى من القاعدة الأصولية يحتاج إلى تكثير القياس ، بان يكون هناك قياسان يثبت بأحدهما قيام الحجة على الحكم الشرعى ، ثم بتوسيط النتيجة الحاصلة من هذا القياس فى قياس آخر يثبت نفس الحكم الشرعى ، كما يقال : شرب العصير العنبى إذا غلى مما قام خبر الثقة على حرمته ، وكلّ ما قام خبر الثقة عليه فقد قامت الحجة عليه ، فشرب العصير إذا غلى ممّا قامت الحجّة على حرمته ، وهذا هو القياس الأوّل .

ثمّ يقال : شرب العصير العنبى إذا غلى مما قامت الحجة على حرمته ، وكل ما قامت الحجد على حرمته فهو حرام ، فشرب العصير العنبى إذا غلى حرام ، وهذا هو القياس الثانى .

و هذا بخلاف القواعد الفقهية ؛ فانها تقع فى قياس تكون نتيجته نفس الحكم الشرعى ، كما يقال : المستعير أمين ، وكل

أمين لا يكون ضامنا فى التلف السماوى، فالمستعير لا يكون ضامنا فى التلف السماوى؛ فان عدم ضمنان المستعير يستفاد من قاعدة عدم ضمان الأمين بلا واسطة.

و من هنا ظهر أن الأصول العملية كالبراءة الشرعية وأصالة الاباحة وغيرهما خارجة عن مباحث الحجج فى علم الأصول، وما ذهب إليه بعض من امكان ادخالها فى الحجج بجعل المراد من الحكم الشرعى فى تعريف أصول الفقه أعم من الواقعى والظاهرى غير مفيد؛ وذلك لأنّ مفاد الأصول العملية ليس هو قيام الحجة على حكم، بل مفادها هو نفس الحكم الشرعى، وان كانت تستبطن فى مرتبة سابقة قيام الحجة على مفادها، إلاّ أن ذلك كسائر الإدلّة القائمة على الفروع الفقهية، من وجوب الوضوء وحرمة الخمر وغيرها، ومجرّد استبطانه ذلك لا يوجب كونها أصولية كما هو واضح

نعم، يمكن ادخلها فى الأصول بأخذ قيد زائد فى التعريف كقولهم: أو الّتى ينتهى اليها المجتهد فى مقام العمل.

و منها: إن القاعدة الفقهية هى نفسها حكم كلى الهى، تثبت بها أحكام كلية أخرى، وتكون منظورا فيها، وهذا بخلاف القاعدة الأصولية، فانها قاعدة آلية لا ينظر فيها بالأصالة، بل يمكن أن تقع كبرى استنتاج الأحكام الكلية.

و يرد عليه: أن كون القاعدة آلة لاثبات حكم آخر، مشترك بين القواعد الأصولية والفقهية، كما ذكرنا، فلا يكون مجرّد ذلك فارقا بينهما، نعم ما ذكره من كون القاعدة الفقهية منظورا فيها، أى: مقصودة بالاصالة دون القاعدة الأصولية، صحيح، ولكنه ليس فرقا مستقلا، بل المنشأ لهذا الفرق كالفرق السابق هو: ما تقدم من كون القاعدة الأصولية ما يثبت بها قيام الحجة على الحكم الكلى، بخلاف القاعدة الفقهية؛ فانها يثبت بها نفس الحكم الشرعى، فلذلك كانت القاعدة الأصولية منظورا بها وغير مقصودة بالاصالة.

و منها: ما ذكره المحقق النائينى ﵀ من ان المائز بين المسألة الأصولية والقاعدة الفقهية بعد اشتراكهما فى أن كلا منهما يقع كبرى لقياس الاستنباط، هو: أن المستنتج من المسألة الأصولية لا يكون إلاّ حكما كلّيا، بخلاف المستنتج من

القاعدة الفقهية ؛ فانّه يكون حكما جزئيا ، وان صلحت فى بعض الموارد لاستنتاج الحكم الكلى أيضاً إلا أن صلاحيتها لاستنتاج الحكم الجزئى هو المائز بينها وبين المسألة الأصولية ، حيث انها لا تصلح الا لاستنتاج حكم كلى .

و يلاحظ عليه : أنه قد ظهر ممّا ذكرنا أن المستنتج من القاعدة الأصولية لا يكون حكما أصلا لا كلّيا ولا جزئيا ، انّما المستنتج منها هو قيام الحجة على الحكم الشرعى ، وان كان مراده هو ما يعم الاستنتاج بالواسطة ، فيرد عليه : انه يمكن استنتاج الحكم الشرعى الجزئى بواسطة قياسين من القواعد الأصولية أيضا ، كما يقال : هذا مسكر مايع بالأصالة ، وكل مسكر مايع بالاصالة قام خبر الثقة على حرمته ، فهذا مما قام خبر الثقة على حرمته ، ثمّ يقال : هذا مما قام خبر الثقة على حرمته ، وكل ما قام خبر الثقد على حرمته حرام ، فهذا حرام .

ومنها : أن القاعدة الفقهية تمتاز عن المسائل الفقهيد من ناحية المحمولات ، أى : أن المحمول فى القواعد الفقهية دائما حكم شرعى فرعى ، وهذا بخلاف القواعد الأصولية ، فان المحمول فيها ليس حكما فرعيا ، قال المحقّق السبحانى ـ دام ظلّه ـ :

ان المسائل الأصولية لا تتضمن حكما شرعيا ، خلافا للقواعد الفقهية الّتى تتضمن حكما شرعيا ، وتوضيح ذلك :

ان المسائل الأصوليد تدور حول محاور أربعة :

١ـ تعيين الظهورات ومداليل الألفاظ الّتى يعبّر عنها بمباحث الألفاظ ، كالبحث عن ظهور الأمر فى الوجوب والنهى فى الحرمة .

٢ ـ المباحث العقلية أو ما يعبر عنها بالملازمات العقلية ، كالبحث عن الملازمة بين وجوب المقدمة ووجوب ذيها ، أو وجوب الشيء وحرمة ضده .

٣ ـ مباحث الحجج والأمارات ، كالبحث عن حجّية خبر الواحد .

٤ ـ الأصول العملية الّتى يراد بها تعيين وظيفة الشاك .

و أنت إذا لاحظت هذه المحاور تقف على أن المحمول فى جميعا ليس حكما شرعيا فرعيا ، بل هو إمّا حكم عقلى أمضاه الشارع ، كباب الملازمات ، أو حكم وضعى

كالحجية، فهى وان كانت حكما شرعيا، لكن ليس فرعيا، وهكذا الحال فى تعيين الظهورات والوظائف العملية فالجميع بين حكم عقلى، أو شرعى غير فرعى، وهذا بخلاف القواعد الفقيهية، فانها تتضمن حكما شرعيا فرعيا.

و يلاحظ عليه انّه لم يذكر ملاكا واحدا يكون جامعا بين محمولات المسائل الأصولية الا أن يكون مراده هو رجوع المحاور الثلاثة الأولى المذكور فى كلامه إلى محمول واحد كالحجية، فيرتفع الأشكال.

ومنها: أن القاعدة الفقهية أغلبية، بخلاف القاعدة الأصولية؛ فانّها مطردة وشاملة لجميع مصاديقها. قال الحموى: إن القاعدة هى عند الفقهاء غيرها عند النحاة والأصوليين؛ إذ هى عند الفقهاء حكم أكثرى لا كلى ينطبق على أكثر جزئياته لتعرف أحكامها.

و يرد على ما ذكره أن القواعد الأصولية أيضا لها مستثنيات ومقيدات، وقلّ ما يكون هناك قاعدة فى الأصول تكون مستوعبة لجميع افرادها من دون أن يكون لها مخصص، بل إنّ شطرا من المباحث الأصولية يدور مدار هذه المستثنيات وتشخيص مواردها، فجعل ذلك فارقا بين القواعد الأصولية والفقهية غير صحيح، ولعل مرادهم من ذلك هو: أن القاعدة الأصولية تستند إلى ملاك ارتكازى عقلائى معلوم لدينا، ولذلك يكون هو المستند فى معرفة أحكام جزئياته فى موارد الشك، ما لم يقم دليل على خلافه، وهذا بخلاف القواعد الفقهية، فانها تنشأ من التعبد الشرعى، ولا يعرف المناط فيها غالبا، فلا تجرى الاّ فيما علم دخوله تحتها باطلاق دليل القاعدة ونحوه.

و بعبارة أخرى: أن هناك فرقا فى كيفية الاستثناء والتخصيص فى البابين؛ فان ملاك التخصيص فى القواعد الأصولية على أساس امور ارتكازية عقلائية أو عقلية، فالتخصيص فى القواعد الأصولية على أساس امور ارتكازية عقلائية أو عقلية، فالتخصيص فى المسائل الأصولية مرجعه غالبا إلى التخصيص، أى يوجد فى المخصص ملاك خاص لا يوجد فى سائر الافراد، فيفترق عنها، وهذا بخلاف القواعد الفقهية؛ فان أصل القاعدة وكذلك تخصيصها كلاهما يرجعان إلى امور تعبدية

لا تستطيع العقول العادية ـ غالبا ـ الاحاطة بملاكتها الواقعية، فلا يصح التمسك بالملاك لاثبات شمول القاعدة للموارد المشكوكة، إذا لم يكن هناك اطلاق أو عموم لفظى يثبت الشمول.

ولكن يرد على هذا الفرق بعد قبوله فى الجملة: انه لايتم فى جميع الموارد؛ إذ ملاك بعض القواعد الفقهية كقاعدة امارية اليد على الملكية، ليس تعبديا محضا، بل أمر ارتكازى وعرفى، فيكون شأن التعبد الشرعى فيها هو الإمضا والتقرير، وعلى ذلك يكون جريانها فى مصاديها كجريان القواعد الأصولية، أي: يكون مرجعاً في كل الموارد الّتى تدخل تحتها وعلم تحقق الملاك فيها، الا فيما قام الدليل على خلافه.

مصادر القواعد الفقهية

والمراد بها: ما كانت منشأ للقواعد الفقهية، سواء أكانت هى فى حدّ ذاتها دليلا كنصوص الكتاب أو السنة، أم لا كتتبع الموارد المشابهة.

فتنقسم القواعد الفقهية بملاحظة المصدر الّذى تعتمده إلى قسمين رئسيين:

الأوّل: ما كان مصدره دليلا شرعيا ثابتا حجيته كنصوص الكتاب الكريم أو السنة أو الإجماع أو السيرة المعتبرين الكاشفين عن رأى المعصوم عليه السلام أو الدليل العقلى القطعى، فهو أنواع:

القرآن الكريم:

القرآن هو المصدر الأوّل للقواعد الفقهية، وقد تم استفادة شطر من القواعد الفقهيد منه مباشرة.

و من أمثلة هذا النوع من القواعد: قاعدة"العدل"المستفادة من قوله تعالى: ﴿ **إنّ اللّه يأمر بالعدل والاحسان** ﴾، **وقاعدة "نفى الحرج" المستفادة من قوله تعالى**: ﴿ **وما جعل عليكم فى الدّين من حرج** ﴾، وقاعدة"نفى السبيل"وجوب الوفاء بالعقود" المستفادة من قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾.

كلمات النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام:

فان كثيرا من القواعد اخذت نصوصها أو مضمونها من جوامع كلماتهم؛ لانهم بينوا الأحكام بطريقة يسهل حفظها وفهمها وتفريعها وتطبيقها على مواردها.

و لعل فى قول النبى ﷺ: « وأعطيت جوامع الكلم » اشارة إلى هذا المعنى.

و فى الحديث الصحيح عن زرارة وأبى جعفر وأبى عبد اللّه عليهم السلام، قالا:

« علينا أن نلقى إليكم الأصول وعليكم أن تفرعوا »

و معناه: علينا أن نلقى إليكم أحكامه تعالى بأصول من الكلام يفرع عليها غيرها من متعلقاتها.

فمصدر عدة كثيرة من القواعد الفقيهية والأصولية هو كلمات النبى ﷺ، وأئمّة أهل البيت عليهم السلام الّذين هم باب علم النبى ﷺ، واعلم الناس بعده، والناس مأمورون بالتمسك بهم كما أمروا بالتمسك بالقرآن، كما ورد فى الأحاديث المتواترة. فانهم بينوا قواعد الاستنباط والاجتهاد الصحيح سواء الأصولية كالاستصحاب والبراءة، والاحتياط، والتخيير، أوالفقهية، كقاعدة الطهارة، واليد، والاباحة، والحلية، وما شاكل ذلك مما هو أساس للاستنباط والتفريع، بحيث لا يبقى معها حاجة إلى التشبث بالوسائل الظنية كالقياس والاستحسان فى ساحة الشرع، ولذلك لو قارنا مذهب أهل البيت عليهم السلام بغيره من المذاهب، لرأينا فرقا كبيرا من جهة توفر القواعد الفقيهة والأصولية المأخوذة من أهل البيت عليهم السلام فيه، وعدم توفرها فى غيره.

و على هذا فان المصدر الأصلى للقواعد الفقهية ـ بعد القرآن الكريم ـ هو كلمات النبى ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، نعم بعض القواعد وردت نصوصها فى كلام النبى ﷺ أو الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وبعضها لم ترد نصا فيه، ولكنها مستنبطة من كلامهم.

الاجماع وسيرة المتشرعين

مصدر بعض القواعد هو الاجماع أو سيرة المسلمين؛ فان انعقاد اجماع الفقهاء، أو قيام سيرة المسلمين على أصل شرعى دليل على ثبوته فى الشريعة، وان لم يصل ذلك الينا بدليل لفظى.

سيرة العقلاء

بعض القواعد مأخوذة من السير العرفية والارتكازات العقلائية الممضاة من قبل الشارع. وهذا القسم ينسب إلى الشرع أيضا باعتبار تقرير الشارع وامضائه له.

العقل

ومن القواعد ما تكون مستندة إلى اللدليل العقلى القطعى كالملازمات العقلية القطعية، أما المستند إلى الدليل العقلى غير القطعى كالقياس والاستحسان فليس بحجة عندنا.

القواعد المستندة إلى هذه المصادر الخمسة حجة ودليل شرعى، فيمكن الاستناد اليها فى اثبات الحكم للمصاديق الجديدة بلا اشكال.

و القسم الثانى: ما لم يكن مستندا إلى دليل شرعى، بل تم تأسيسه من استقراء الأحكام الفرعية عى الموضوعات المشابهة وتجريد معنى كلى ئجامع بينها، هذا القسم من لاقواعد لايعوّل عليه فى استنباط الأحكام، وانما يوجب العلم به الاستيناس بالحكم والضبط للموارد المختلفة، فلا يمكن الاستدلال بها لاثبات حكم لموضوع جديد.

أما عدَّ بعض آثار الصحابة والتابعين واقوال بعض الائمة المجتهدين من مصادر القواعد الفقهية فلايتم على مذهب الامامية، ما لم يحرز استناد آثارهم واقوالهم إلى نصّ من النبى صلى الله عليه وآله وأوصيائه عليهم السلام.

وامّا القياس المبينى على مجرّد المماثلة والتشابه بين المسائل، أو المبتنى على تنقيح المناط بالطريقة الظنية، فليس بحجة فى الشريعة عند الامامية، بل يحرم استعماله فيها، فلا تكون القواعد المستندة إليه حجة فى الفقه.

الاستدلال بالقواعد الفقهية على الأحكام:

ظهر مما ذكرنا انه لابد من الفرق بين القواعد المستندة إلى نص شرعي من القرآن الكريم، أو السنة، أو ادلة معتبرة أخرى كالسيرة الممضاة من قبل الشارع، أو الاجماع المعتبر، فانها تكون دليلا شرعيا يستدل بها فى استنباط الأحكام الشرعية، وبين القواعد والأصول الّتى استنتجت بطريقة التتبع واستقراء الفروع المشابهة؛ فانها لا يصح الاستدلال بها على حكم مسألة فقهية، دون أن يكون هناك نص آخر خاص أو عام يشمل تلك المسالة؛ لأن المفروض عدم قيام دليل على حجية عموم القاعدة حتّى يتمسك به لاثبات حكم الموارد المستجدة أو المختلف فيها، فتكون

فـائدتها مـجرّد استيناس بـالحكم بالنسـبة إلى تلك الموارد.

نبـــذة عـــن تـــاريخ تـــدوين القواعد الفقهية

المعـانى الفقهيـة للقواعـد كانـت مـقررة ومـــعلومة عنـد الصـدر الأوّل مـن فقهـاء المسلمين، وقامت اللبنة الاولى للقواعد فـى القرن الأوّل والثانى مـن الهـجرة، حـيث قام بعـض المحـدثين مـن اصـحاب أئمـة أهـل البيـت عليهم السلام بجمـع الاحاديـث فـى كتـب خـاصة، فـكتب الحـديث هى اللبنـة الاولـى للقواعد الفقهية، ثمّ بتوسع الحاجة إلى الفقه قـام الفقهـاء باسـتخراج الأحـكام والقـواعد الفقهية من المصادر الموجودة وتـدوينها فـى كتب تخصها، فتمّ تدوين القواعد الفقهية فى ثلاث مراحل:

المـرحلة الاولى: وهـى مرحلـة اثبـات مـا فـــى كلمـــات النبـــى صلى الله عليه وآله والائمـــة المعصـومين عليهم السلام مـــن القواعـد فـى ضـمن مـصادر الحـديث والروايـة مـن دون توضـيح وبيان.

و بالرجوع لكـتب الحديث يمكن الوقـوف عـلى كـثير من القواعد الفقهيـة مبثوثـة فـــى طـــيات الاحاديـث المنقولـة امـا بنصـها أو بمضـمونها. حيـث قـد وردت بعـض القواعـد مستقلة وعلـى نحـو بـيان الحـكم الكلـى، والبعض الآخر فى مـقام تـعليل حـكم مـن الأحكام.

و نـــذكر هـــنا بعـض تلـك الاحاديـث المـتضمنة للقـواعد الفقهية:

١ ـ قـول رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله: « وحرمـة مالـه (المؤمن) كحرمة دمـه، الّـذى يسـتفاد منـه قاعدة: احـترام مـال المسلم وعمله.

٢ـ وقوله صلى الله عليه وآله: « كـل مـا كـان فـى أصـل الخـلقة فـزاد أو نقـص فهـو عـيب، الّـذى يستفاد منه قاعدة: بنفس التعبير.

٣ ـ وقولـه صلى الله عليه وآله: « لا بيـع الا فيمـا تملـك » المستفاد منه قـاعدة: "لا بـيع الا فى ملك".

٤ ـ وقوله صلى الله عليه وآله: « البـيعان بـالخيار حـتّى يـفترقا، المـستفاد منـه قاعـدة: "خـيار المـجلس".

٥ ـ وقول امير المؤمنين على عليه السلام: « ليس على المؤتمن ضـمان »، الّـذى يسـتفاد منـه قاعدة: "عدم ضمان الأمـين".

٦ ـ وقـول عـلى امير المـؤمنين عليه السلام:

« الصلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحا حرم حلالا أو أحل حراما » ، الّذى يستفاد منه قاعدة : جواز الصلح بين المسلمين .

٧ ـ وقول رسول اللّه ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن الصبى حتّى يبلغ ، وعن النائم حتّى يستيقظ ، وعن المعتوه حتّى يبرأ ، الّذى يستفاد منه قاعدتا : "اشتراط البلوغ والعقل فى التكليف .

٨ ـ وقول الامام أبى عبد اللّه جعفر الصادق عليه السلام : « حلال محمّد حلال ابدا إلى يوم القيامة وحرامه حرام ابدا إلى يوم القيامة ، الّذى يستفاد منه قاعدة : "الاشتراك فى التكليف" .

٩ ـ وقول الإمام أبى عبد اللّه عليه السلام ـ أيضا ـ : « كل شيء فيه حلال وحرام ، فهو لك حلال أبدا حتّى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه ، الّذى يستفاد منه قاعدة : "الحل" .

١٠ ـ وقول الامام أبى الحسن موسى الكاظم عليه السلام : « كل مجهول ففيه القرعة ، الّذى يستفاد منه قاعدة : "القرعة .

١١ ـ وقول الامام الصادق عليه السلام : « الوقوف تكون على حسب ما يوقفها أهلها ، المستفاد منه قاعدة : "بنفس التعبير" .

١٢ ـ وقول الامام الصادق عليه السلام : « لا يكون الربا إلاّ فيما يكال أو يوزن ، المستفاد منه قاعدة : "لا ربا الا فيما يكال أو يوزن .

١٣ ـ وقول رسول اللّه ﷺ : « رفع عن أمتى تسعة : الخطأ ، والنسيان ، وما اكرهوا عليه ، والا يطيقون ، وما لا يعلمون ، وما اضطروا إليه ، والحسد ، والطيرة ، والتفكر فى الوسوسة فى الخلق ، ما لم ينطق بشفة ، وقول الصادق عليه السلام : « ليس شيء مما حرم اللّه الا وقد أحله لمن اضطر إليه » ، المستفاد منه قاعدة : "الضرورات تبيح المحضورات" .

١٤ ـ وقول الامام الصادق عليه السلام : « إذا قصرت افطرت وإذا افطرت قصرت المستفاد منه قاعدة : "التلازم بين الصلاة والصوم" .

١٥ ـ وقول الامام أبى جعفر محمّد الباقر عليه السلام : « لا تعاد الصلاة إلاّ من خمس : الطهور والوقت والقبلة والركوع والسجود » ، المستفاد منه قاعدة : "لا تعاد الصلاة إلاّ من خمس" .

١٦ ـ وقول الامام جعفر الصادق عليه السلام : « كل أجير يعطى الأجر على أن يصلح فهو ضامن الّذى يستفاد منه قاعدة بنفس العبارة .

١٧ـ وقول رسول اللّه ﷺ: « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق الّذى يستفاد منه قاعدة بنفس العبارة.

المرحلة الثانية: وهى مرحلة تمييز القواعد الفقهية والستناد اليها فى الكتب الفقهية. قد تناثرت القواعد فى المصادر الأولية للفقه، اما فى مقام بيان الحكم الشرعى أو الاستدلال عليه، وذلك بعد بدء دور الاستدلال والتفريع فى الفقه، وقد كانت القاعدة تسمى عندهم بالأصل.

فإن الفقهاء الاوائل كانوا يقتصرون فى كتبهم الفقهية بنقل نص الحديث فى كل باب من ابواب الفقه من دون تعرض لكيفية الاستدلال والتفريع عليه؛ ولكن حصل فى أواسط القرن الرابع الهجرى تحول ملحوظ فى الاسلوب الفقهى، وذلك بدخول الاستدلال العلمى بشكل مؤثر لاستنباط الأحكام والفروع الفقهية وإعمال الصناعة العلمية، بديلا عن الاقتصار على نقل النصوص الحديثية، ممّا أدّى إلى الاستناد إلى القواعد الفقهية فى مقام الاستدلال على الحكام الشرعية.

فلنذكر من باب المثال بعض القواعد الّتى تمسك بها هؤلاء الفقهاء فى كتبهم.

١ـ أصل لزوم الوقت فى الواجبات المشروطة بالوقت.

٢ ـ أصل براءة الذمّة.

٣ ـ أصل الاباحة.

٤ ـ أصل الطهارة فى الماء.

٥ ـ أصل الصحّة فى العقد

٦ ـ أصل حقن الدماء.

٧ ـ أصل عدم حرمة مال أهل الحرب.

٨ ـ أصل السلامة من العيب.

٩ ـ أصل عدم ضمان الامين.

١٠ ـ أصل حرمة التصرف فى مال الغير.

١١ ـ أصل عدم الولاء.

١٢ ـ أصل بقاء العقد.

١٣ ـ أصل بقاء الملك

١٤ـ أصل الحرية

المرحلة الثالثة: وهى مرحلة تدوين آثار تخصّ القواعد الفقهية. لم يكن علم الأصول والقواعد الفقهية منفكين عن علم الفقه فى البداية، بل الفقهاء كانوا يستندون فى كتبهم الفقهية إلى الأصول والضوابط

المنبثقة من الحجج والادلة الشرعية فى مقام الاستدلال ويسمونها أصولا ، وأدّى الاهتمام بها إلى البحث عنها مستقلا ؛ لما لها من المدمية للفقه ، ومن هنا تولد علم الأصول فى احضان الفقه حتّى صار علما مستقلاً ؛ أمّا القواعد الفقهية فبقيت جزءا من الفقه ؛ لانها متحدة ماهية مع سائر المسائل الفقهية ؛ لكونها أحكاما شرعية ، نعم لها طابع مقدمى لانها تقع مقدمة وطريقا لاثبات أحكام شرعية أخرى ؛ لأن لها شمولا واستيعابا تندرج فيه مصاديق كثيرة ، فكانت كثيرة الدوران على لسانهم فى الفقه ، ولذا اهتم الفقهاء بها ودونوها فى كتب ورسائل تخصها ، وأفردوها بالبحث والتنقيح ، وبينوا تطبيقاتها واستثناءاتها تسهيلا للتعليم والتعليم .

و من السابقين فى جمع الأصول والقواعد الفقهية على أساس مذهب أهل البيت عليهم السلام السيد ابو القاسم على بن الحسين المعروف بالشريف المرتضى (المتوفى ٤٣٦) فى كتابه الانتصار حيث جمع فيه ٣٢٩ فرعا فقهيا انفردت الامامية بها عن سائر المذاهب فى حكمها ، نعم أكثر هذه الفروع من المسائل الفرعيد ، ولكن فيها ما يعد من الضوابط والقواعد الفقهية أيضا .

ثمّ جاء الفقيه يحيى بن سعيد الحلى (المتوفى سنة ٦٩٨هـ) وألف كتابه نزهة الناظر فى الجمع بين الأشباه والنظائر وهو اول كتاب فى هذا الموضوع ، جمع مؤلفه فيه بين الأحكام المتشابهة تحت عنوان واحد .

و ان لم نقل بدخول هذين النمطين من التأليف فى حقل القواعد الفقهية ؛ لعدم كون جمع القواعد الفقهية هو المقصود بالاصالة من تاليفهما ، فالظاهر أن أبا عبد اللّه محمّد بن مكى العاملى الشهير بالشهيد الأوّل رحمه الله (المتوفى سنة ٧٨٦هـ) هو أوّل فقيه إمامى نهض بهذا المشروع الفقهى بصورة منهجية ، وذلك فى كتابه القيم الجليل القواعد والفوائد قال الشهيد عن كتابه هذا فى إجازته لابن الخازن : « أنه لم يعمل الأصحاب مثله » ، وهذا الكتاب يحتوى ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين قاعدة ، وما يقرب من مائة فائدة ، ويبحث الشهيد هذه القواعد فى كثير من الأحيان بصورة مقارنة بين المذاهب المختلفة ، يستعرض فيها الآراء ويضعها لمناقشة علمية

دقيقة.

ومن أشهر السائرين على خطاه تليمذه الفاضل مقداد بن عبد اللّه السيورى الحلى (المتوفى سنة ٨٢٦ هـ) فقد قام بنظم وتهذيب هذا الكتاب وأسماه بنضد القواعد على مذهب الامامية.

ثمّ جاء محمّد بن على بن إبراهيم الأحسائى المعروف بابن أبى جمهور (المتوفى حوالى سنة ٩٠١ هـ)، وألف كتاب الأقطاب الفقهية على مذهب الامامية، يحتوى هذا الكتاب ٤٦ بابا، ذكر المصنف فى كل باب منه قاعدة من القواعد الفقهية أو تعرض فيه لتعريف بعض الاصطلاحات الفقهية. وبعد ذلك جاء جمع من مشايخنا العظام فالفوا كتبا فى الموضوع وتناولوه بالبحث والتحقيق.

أ. د. صاحب نصّار
أكاديمي وباحث وعميد كلية الفقه

تطور الدرس الأصولي في الحوزة العلمية
السيد محمد باقر الصدر قدس سره أنموذجاً

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمدُ للهِ ربِ العالمين والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ الطيبين الطاهرين.

تمتاز الإمامية عن باقي المذاهب الإسلامية عموماً بمؤسستِها الدينية"المرجعية الدينية"ذلك الكيان الحيوي الفاعل الذي برز دوره بصورة واضحة بعد عصر الغيبة مباشرة، ولكن تبلور كيانه بعد فترةٍ وجيزةٍ أبان إعتلاء الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) لزعامتها علماً وعملاً بتأسيسِ جذورها الفكرية والعقائدية والعلمية والثقافية والإجتماعية وغيرها فضلاً عن المسائل الأساسية للحوزة الشريفة وهي الدراسات الفقهية والأصولية وما يرتبط بهما، فكان يمثلها خير تمثيل في بغداد وبالذات مسجد براثا العتيد فكان يتصدى لكل ما من شأنه بناء ورفعة وبيان

وإلتزام فكان المدافع عن عقائد الإمامية من خلال كرسي الكلام الذي إعتلاه بجدارةِ وعن فكرهِم وأصول دينهِم حتى عدّه المستشرق "مكدرموت" مؤسساً لنظريات علم الكلام بمؤلفه القيّم (نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد) باللغة الإنكليزية الذي تُرجم إلى لغات عالمية كثيرة كالعربية والفرنسية والفارسية والأوردية .

وكذلك جهوده الفقهية المتميزة بكتابه (المقنعة في الفقه) والذي يُعد اللَبنة الأولى في الرسائل العملية للمكلف الإمامي من خلال الكتاب العزيز والسنة الشريفة فضلاً عن المصادر الأصولية الأخرى التي أودعها في تذكرته لتلميذه الكراجكي (ت٤٤٩هـ) والتي تمثل باكورة الرؤية الأصولية التأسيسية لعلم أصول الفقه فضلاً عن كتبه وآثاره التي ناهزت المئتين هذا في المجال العلمي والمعرفي والثقافي أما في المجال العملي فكان له مكانته في ذلك حتى قيل عنه (لكل إمامي عليه منّة) فبرز من طلاب حوزتهِ والمرتضى علم الهدى (ت٤٣٨هـ) والطوسي (ت ٤٦٠ هـ) والكراجكي (٤٤٩هـ) واضرابهم ، وأستمر العطاء العلمي بشتى صنوفه والبناء المرجعي لكيان هذهِ الأمة الذي يُمثل الإمتداد الطبيعي لرسالة الرسول الأكرم ﷺ وأئمتهم عليهم السلام وعلمائهم الأعلام فكان الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) شيخ الطائفة في النجف الأشرف مؤسساً للمرجعية فيها ، وإبن إدريس (ت٥٩٨هـ) والمحقق (ت ٦٧٦ هـ) والعلامة (ت٧٢٦هـ) الحليين وغيرهم ، وكذلك كان الوحيد البهبهاني (ت١٢٠٥هـ) والسيد مهدي وبحر العلوم (ت ١٢١٢هـ) وجعفر كاشف الغطاء (ت١٢٢٨هـ) والشيخ الأنصاري (ت١٢٨١هـ) وأضرابُهم ، وهنا يتحقق مراد الرواية (إن اللهَ يهيء لهذهِ الأمة من يحيها وينشرها على رأسِ كل مائةِ عام) ليستمر العطاء حتى وصل الأمر إلى السيد الخميني (ت ١٤٠٩هـ) مرجعاً وراعياً وناهضاً ومجدداً للحوزة العلمية الشريفة فأوجد لها بُعداً آخر ، ومديات أوسع ، وكيان أرفع للإرتقاء بها ليس على مستوى الكيان الإمامي فحسب وإنما على المستوى العالمي أيضاً فقد منحها ثقلاً يُحسب له حساب وجعلها مؤسسة فاعلة يشار لها بالبنان وقد تزامن مع هذا التحول والتطور بروز فكر ثاقب وعقلية فريدة تميزت بتطوير الحوزة العلمية من خلال الكتابات المتميزة بالخروج إلى محاكاة الرؤى العالمية

الفلسفية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها فضلاً عن المناهج الحوزوية المتعارف عليها في حفظ كيان الإمامية وإستمرارية هذهِ المؤسسة الدينية الرائدة بمرجعيتها المُقدسة وحوزتها الشريفة والتي ظلت وأستمرت قرابة خمسة عشر قرناً من الزمن تصارع المحن والصعاب فأثبتت وجودها بتسديد من الله جلت قدرته وجهود حامل رسالة الإسلام رسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وآل بيته الكرام عليهم السلام وبمراجعها العظام بمؤازرة وإسناد من شيعة آل البيت عليهم السلام عموماً وطلبتها على وجه الخصوص، فكان من أولئك الذين إنعقد البحث لأجله المرجع والمفكر والمجدد آية الله السيد الشهيد محمد باقر الصدر (ت١٤٠٥هـ) قدس سره ولجهوده المتنوعة الفريدة المتميزة.

كان إختيار البحث لجهوده الأصولية لأنها تمثل عقلية ونتاج لفكر واعٍ مرجعي متطور من خلال إستنباط وإستظهار كل ما هو جديد ومستحدث من مسائل وآراء من خلال آليات المجتهد وفق الثوابت الأساسية للكتاب العزيز والسنة الشريفة، وضمن الضوابط والمباديء التي تُقّوم العمل الإبداعي وترصّنه وتفعّله وتجعله مؤثراً وللإيجاز وعدم الإطناب ولتوضيح ذلك وعرضه إنتضمت خطة البحث على فصلين رئيسين، فكان الفصل الأول منهما قد إختص بالمرجعية حقيقتها وأدوارها ومجالات تأثيرها، والفصل الثاني تبنى جهود الشهيد محمد باقر الصدر (قد) الأصولية مستعرضاً لها ومبيناً مكانتها وأثرها في تطوير الدرس الحوزوي وبالتالي يكون له أثر في بناء الكيان المرجعي وترصينه وديمومتهِ بتخريج ثلة من العلماء الأعلام رفدوا المرجعية بعطاءٍ ثر أصيل، لديمومتها وتركيز لبقائها.

ونسأل الله العلي القدير أن يسدد خطانا خدمة لشريعة المصطفى الغراء إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الأول
المرجعية الدينية
"حقيقتها، مكانتها، دورها"

ولبيان ذلك ينتظم الفصل على مبحثين وكما يأتي: ـ

المبحث الأول: الحقيقة اللغوية والإصطلاحية للمرجعية

قبل البدء في البحث وبيان مفاصله علينا توضيح المعنى اللغوي والإصطلاحي للمرجعية لما يرتبط بها من مفردات البحث ومسائله وعلى مطلبين وكما يأتي:

المطلب الأول: المعنى اللغوي لـ(مرجع)

وهو مشتق من الفعل (رجع) يقول: رجع، يرجع، راجعاً، ورجوعاً، ومرجعاً، والمرجع مصدر وهو الرجوع، ومعناه العودة أو الإنصراف[١].

والرجوع نقيض الذهاب[٢] والرجوع أسم مصدر وإضافة ياء النسبة إليه مع هاء السكتة ـ المرجعية ـ يـ هـ ـ وهو مصدر ميمي يدل على المكان المعين لشخص معين.

ويؤكد هذا المعنى ويعضده ما ورد في الكتاب العزيز لقوله تعالى ﴿ **إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى** ﴾[٣] أي الرجوع وقوله تعالى ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا** ..... ﴾[٤] والمراد بهذهِ الآية: إن العبد إذا بعث يوم القيامة، وعرف سوء عمله، يطلب من الله أن يعيده إلى الدنيا ليُحسن عمله أي يرجعه، وفي ضوء هذا المعنى اللغوي والقرآني نستفيد منه بأن المرجعية هي الرجوع والعودة إلى الآخر.

المطلب الثاني: المعنى الإصطلاحي لـ(مرجع):

يمكن أن نعرّف (المرجع) في المصطلح الديني، بأنه: العالم، الفقيه، المجتهد، الذي ترجع إليه الأمة بالحكم الشرعي لحياتها اليومية، كما يقودها إلى منهج الرسالة الإسلامية وتطلعاتها المصيرية العامة.

وبمرور الزمن إتسع هذا المفهوم، نظراً لتوسع مسؤولية المجتهد العامة لشؤون الأمة، حيث أصبح يتصدر المركز القيادي فيها، فأصبح مرجعاً، وأطلق على هذا المجتهد المرجع العام، وهو المتصدي (للمرجعية).

(ولعل إنتزاع عنوان (المرجعية) لهذا الموقع، أستفيد من الحديث الشريف: (وأما الحوادث الواقعة، فإرجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم »[٥]. الذي أستخدم مادة (أرجعوا)[٦].

وقد عُرف المرجع في معجم ألفاظ الفقه الجعفري: (هو المُجتهد الذي يرجع إليه الناس للفتوى في عباداتهم ومعاملاتهم)[٧] ويسمى أيضاً بـ (المُقِلَّد)[٨].

ثم إن المرجعية لم يكن لها هذا الموقع التنظيمي فقط، ولكنها من ناحية أخرى لها بُعدٌ عقائدي وهو: إن المرجعية تمثل النيابة وإمتداداً للإمامة التي هي إمتداد للنبوة وتعبير عن مسؤوليتها فيها ولذا جاءت المقولة المعروفة وهي:

(ولاية الفقيه إمتداد لحركة الأنبياء) وسوف نتعرض لمفهوم (الولاية) في فصل لاحق إن شاء الله.

إن وظيفة المرجعية وظيفة دينية من أجل الخروج عن عهدة التكاليف الشرعية، وبراءة الذمة منها أمام الله عز وجل، وحصول العذر بين يديه سبحانه وتعالى، وقد قامت الأدلة الشرعية على مشروعيتها[٩].

لذا فقد جرت سيرة المسلمين، وبضمنهم أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام على الرجوع للعلماء وسؤالهم عن الأحكام الشرعية العملية في كل عصر، وعُرف في مدرسة النجف الأشرف وفي غيرها وفي كل جيل جماعة ممن يتصدون للفتوى من المجتهدين (مراجع التقليد)[١٠].

المبحث الثاني : (المرجعية مكانتها ودورها ، وأثرها)

ولبيان ذلك ينتظم المبحث على أربعة مطالب وكما يأتي : ـ

المطلب الأول : مكانتها

مكانة المرجعية الدينية في تحديد السبل الهادفة لبناء المجتمع .

للمرجعية الدينية في العالم الإسلامي الشيعي أهمية خاصة وفاعلة ، وللعالم أجمع ، نظراً لإمتدادها العقائدي في مسار الرسالة الإسلامية المحمدية بدءاً من رسولنا الأكرم ﷺ الذي يتلقى التبليغ والإمداد الروحي من الله سبحانه وتعالى بواسطة الوحي ، وتواصلاً بأئمة أهل البيت عليهم السلام بواسطة الرسول ﷺ وإستمراراً إلى نواب الأئمة على طول الإمتداد الرسالي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهم حجج الله على عباده وهم العلماء الأعلام ، ورثة الأنبياء ، والأئمة عليهم السلام .

وتأكيداً لما تقدم فقد ورد ما نصه (ثم إن المرجعية وإن كان لهذا الموقع التنظيمي ، ولكنها من ناحية أخرى لها بُعدٌ عقائدي وهو : إن المرجعية تمثل النيابة وإمتداداً للإمامة التي هي إمتداد للنبوة وتعبير عن مسؤوليتها فيها ولذا جاءت هذه المقولة المعروفة .

وهي : (ولاية الفقيه إمتداد لحركة الأنبياء)[١١] .

وتوثيقاً لذلك ما ورد في الحديث الشريف (في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين ، وإنتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، إلا وإنّ أئمتكم وفدكم إلى الله ، فإنظروا مَنْ توفدون)[١٢] .

وكذلك ورد عن رسول الله ﷺ (العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء ، ورثتي وورثة الأنبياء)[١٣] وورد عن الإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف في جواب لسؤال عن الموقف في صورة غياب الولاية بما نصه : (وأما الحوادث الواقعة ، فإرجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم ، وأنا حجة الله عليهم)[١٤] .

من هذه الأحاديث وغيرها الكثير الكثير التي لا يسع المجال لذكرها فيها دلالة واضحة على إتّباع هذا الخط لما فيه من ضمانة لصيانة الإنسان وحمايته من

الإنحراف، وبناء قويم لكيان المجتمع الإسلامي الذي أراده الله سبحانه وتعالى.

فقد أورد السيد محمد باقر الحكيم ﷺ نصاً بشأن تعيين المرجع وتوضيح مكانته الفعلية بما يأتي:

(قد تم تعيين المرجع من الله تعالى بالمواصفات لا بالشخص، على خلاف التعيين في الأنبياء والأئمة عليهم السلام فإن التعيين فيهم بالشخص بعد إحراز الصفات فيهم من قبله تعالى، كما إن الصفات في الوقت نفسه تمثل أحدى الضمانات المهمة لتحقيق الأهداف وسلامة المسيرة)[١٥].

المطلب الثاني: دورها: (قيادة الأمة الممثلة بالمرجعيات الثلاث الأساسية)

وعليه فإن قيادة الأمة ومرجعيتها الأساسية تمر وفق ثلاث مراتب متوالية، بدءاً من الرسول الكريم ﷺ، لأنه المبلغ والقائد الأول، ومن بعده أئمة الهدى عليهم السلام، من بيت المصطفى ومن بعدهم نوابهم.

نحاول الآن دراستها بإيجاز موضحين القول في المرحلة الثالثة الأساسية وهي نواب الأئمة عليهم السلام ومرجعيتهم وكما يأتي:

المرحلة الأولى: قيادة الرسول الأكرم ﷺ: لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴾[١٦] إن الله بعث إلى الأمة الإسلامية محمد بن عبد الله ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً للعباد، تستنير به الأمة وتهتدي، فكان الحارس والقائد والحافظ لهذه الشريعة الغراء، لذا لم يترك الأمة من بعده في حيرة من دون تحديد المرجع لهم في القيادة الدينية والزمنية.

المرحلة الثانية: قيادة الإمامة والخلافة:

وهي المرحلة التي تلت مرحلة النبوة وأختلف المسلمون في تحديد القيادة بعد ضرورة وجودها فهم على أمرين.

١. المسلمون عدا الإمامية:

قالوا بمبدأ الخلافة وآمنوا بالخلفاء الأربعة ثم من بعدهم بالخلافة الإسلامية، أموية، عباسية، عثمانية... إلخ[١٧].

٢. الإمامية:

فهم يرون إن النبي ﷺ نص على إمامة

علي عليه السلام من بعده والأحد عشر من أولاده المعصومين عليهم السلام، لقوله صلى الله عليه وآله: (إني تارك أو مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي آل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً)[١٨].

المرحلة الثالثة: قيادة نواب الأئمة عليهم السلام:

هذه المرحلة تخص بنواب الأئمة وهم العلماء (المجتهدون) الذين أشار الله سبحانه وتعالى لهم في قوله عز من قائل: ﴿.... **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[١٩]، وقد وضع الأئمة المواصفات والشروط لهؤلاء منها (فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه)[٢٠].

مما تقدم نستطيع أن نستنتج مكانة المجتهد العالم الجامع للشرائط ـ الذي يُمثل المرتبة الرسالية الثالثة، وهي دور (نواب الأئمة) ولهم يُسند منصب (المرجعية) للمسلمين الشيعة في العالم، هذا المنصب الديني الذي لا يرقى إليه إلا من كان مجتهداً ويتمتع بقدرة كاملة على إستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية[٢١].

المطلب الرابع: أثرها في زمن الغيبة:

ولعلنا لا نُجانب الحقيقة إذا أكدنا على أهمية دور المرجعية المتمثلة بكبار المجتهدين الذين عُرفوا بالأعلمية، والمؤهلات الفكرية، والصفات الكمالية، لأنها قيادة عليا وأن حاجة الإسلام والمسلمين لمثل هذهِ القيادة ضمانة لإستمرارية الشريعة، وضمان مسايرتها للظروف المستجدة تبعاً لتطور الحياة.

ومن هنا كانت الحاجة مُلحَة إلى إبقاء باب الإجتهاد مفتوحاً ـ كما هو الحال عند المسلمين الشيعة ـ نظراً لعدم وضوح بعض الأحكام الشرعية في كثير من الأحداث لكل أحد وخاصة منها المستجدة، ضمن التطور الزمني السريع والمُذهل، وإلا لما إحتاج أحد تحديد في الموقف الشرعي إلى عملية الإجتهاد كما كانت الحالة في عصر التشريع وإن إبتعادنا عن عصر التشريع، والغموض الذي يكتنف بعض الأحكام أو نصوصها، إقتضى كل ذلك إلى ضرورة إعمال ملكة الإجتهاد، وعدم غلقه، كما هو الحال عند أغلب المذاهب الإسلامية سابقاً، مما أضطر

أكثر علمائهم اليوم إلى القول بفتح باب الإجتهاد[٢٢].

مما حدا بالمجتهدين ـ الذين يمثلون المرجعية العليا ـ إلى معالجة الأحكام الشرعية وأخذوا الدور الفعلي ومن ذلك موضوعنا المبحوث ـ توسيع وتضييق الموقف ـ والذي كان لهم الدور الفاعل في ذلك، والذي سنحاول إن شاء الله من خلال تسليط الأضواء عليه.

المطلب الرابع: دورها من خلال ولاية الفقيه

وسنوضح دور المرجعية والتي تتبلور صورتها الحقيقية وفاعليتها بمدى سلطتها وتوسع قدراتها من خلال مبدأ الولاية وهي (ولاية الفقيه).

ولتسليط الضوء على ذلك بغية الإلمام بالموضوع والتهيؤ لخوض غماره لذا يتوضح المطلب بتمهيد وعرض لحقيقة الولاية (اللغوية والإصطلاحية) وما يرتبط بها من مفردات وكما يأتي:

التمهيد:

ولتعلق وإرتباط بحث دور المرجعية بالولاية (الولي الفقيه) علينا توضيح موجز للولاية حقيقة وماهية وكذلك بيان مكانة (الولي الفقيه) لدى الإمامية، وذكر تقسيماتها، وعرض لأثرها.

إن فكرة ولاية الفقيه له تأصل في عمق التاريخ الإسلامي، حيث عاصر عملية التشريع والتقنين في الإسلام منذ ولادتها، ولم يكن الحديث عن هذه الفكرة وليد الساعة، ولكن التجربة العملية لواقع وحقيقة ورؤية ولاية الفقيه الفعلية وتطبيقها في حيز العمل.

نحن الآن ليس في مجال التوافق معها أو التضاد وإنما هو عرض لمسائل فقهية بخصوص أثرها في الحوزة الشريفة وما يرتبط بها في ولاية الفقيه، وما لهذهِ الولاية من أثر في ذلك، وهذا ما نستعرضُه إنشاء الله، وللوقوف بصورة علمية واضحة على مفردات البحث علينا مراجعة الولاية لغة وإصطلاحاً وغير ذلك ما يرتبط بالبحث وكما يأتي:

الولاية لغة: الولاية (إنما الولاية لله) بفتح الواو وكسرها، يراد بها السلطة وتولي الأمر، يقال وليّ الأمر وولي عليه: (عليه: (إذا ملك أمر التصرف فيه)، وتأتي بمعنى النصرة أو النصير: يقال وَليَ فلاناً: إذا نصره وأعانه[٢٣]

وكذلك ورد : (كل من ولي أمرَ واحدٍ فهو وَليّه)[٢٤] .

الولاية إصطلاحاً :

إن اللهَ خلق الإنسان أودع فيه خلافة "**Succession**" تؤهلهِ لحمل الأمانة والولاية الإلهية ، وهذه الخلافة هي الخلافة التكوينية حيث جعل اللهُ الإنسان خليفة له في الأرض لقوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً . . . .) وهذه الخلافة العامة يشترك فيها جميع البشر ولذا نطلق عليها الخلافةُ بالمعنى الأعم ، وهناك خلافة أُخرى تُسمى الخلافة التشريعية ، وهي خلافة خاصة خص اللهُ بها بعض عباده ، ولذا أطلقنا عليها الخلافة بالمعنى الأخص ، كما يطلق عليها الولاية الإلهية بالمعنى الأعم ، وهي عبارة عن المناصب القيادية الربانية الثلاثة ـ التي تعرضنا إليها آنفاً ـ (النبوة ، الإمامة ، الولاية بالمعنى الأخص) .

والإمامة أعلى منصب قيادي رباني يتلو منصب النبوة ثم الولاية بالمعنى الأخص وعلى هذا يمكن أن نعرف الولاية بالمعنى الأخص ، إصطلاحاً بأنها :

(منصب قيادي رباني ، خال من الوحي ، خص اللهُ به بعض عباده ، لإدارة شؤون الناس والتصدي لأمورِهم ، وتولي مصالحِهم وفق القوانين الإلهية ، ليقوموا بالقسط)[٢٥] .

فقد ورد تعريف للولاية واضحاً وجلياً عن الشيخ النائيني ، (ت١٣٥٥هـ) ما نصه :

(إنها عبارة عن رئاسة على الناس في أمور دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم)[٢٦] وعليه فالولاية العامة : هي التي تكون لولي الأمر .

الولاية الخاصة : ما كان لمن يوليه الحاكم الشرعي ، وسأحاول توضيح ذلك بصورة موجزة وافية إن شاء الله غير مُخلة وكما يأتي :

(الولاية بالكسر هي الإمارة والسلطنة وهي تارة تكون على الخاصة وهي السلطنة على التصرف بالشيء بنحو خاص كالمتولي على التصرف بمال القصير بنحو الإيجار والإستيجار فقط وتسمى هذه بالولاية الخاصة .

وتارة تكون على جهة العموم وهي السلطنة على التصرف بالشيء بأنحاء التصرفات المشروعة كما لو جعل له الولاية على التصرف بمال القصير بما فيه المصلحة

للمّولى عليه من البيع والإيجار والصلح ونحو ذلك وتسمى هذه بالولاية العامة.

وقد وقع نزاع بين الفقهاء في إن الولاية المجعولة للفقيه الجامع لشرائط المرجعية هي الولاية الخاصة في موارد مخصوصة كالرجوع إليه في الفتيا وقطع الخصومات وكل مورد قام الدليل على ولاية الفقيه بحيث لو شك في مورد إنه له الولاية فالأصل عدمها.

أو إن المجعول للفقيه الولاية العامة بمعنى إن المجعول له هو الولاية العامة المجعولة للإمام بحيث تكون الولاية ثابتة له في كل مورد إلا إذا قام الدليل على عدمها ولا نحتاج في ثبوتها للفقيه في موارد الشك في ثبوتها إلى دليل خاص فيكون الأصل هو ثبوتها في كل مورد شك في ثبوتها فيه، والحق ـ والقائل هو صاحب النور الساطع ـ هو الثاني وإن الفقيه الجامع للشرائط قد جعل الله له الولاية ما جعله للإمام عليه السلام، فيثبت للفقيه الجامع للشرائط في عصر الغيبة المقدار الثابت للإمام عليه السلام، من السلطة الدينية والسلطة الزمنية والولاية العامة لأمور الناس والرياسة المطلقة والزعامة الشاملة فيما يخص تدبير شؤون المسلمين العامة الداخلية والخارجية الدينية والدنيوية وما يرجع لمصالحهم وما يتوقف عليه نظم البلاد وإنتظام العباد ورفع الفساد بالنحو الذي هو ثابت للإمام ففي الموارد التي يكون للإمام الإذن فيها يكون للفقيه الإذن فيها وفي الموارد التي يكون للإمام التصرف فيها يكون للفقيه كذلك، والفقهاء عبروا عن هذه الحيثية للإمام بالولاية، وهي التي من آثارها الإفتاء والقضاء وقبض ما يعود لمصالح المسلمين كأموال الخراج والمقاسمة والأوقاف العامة والنذور والجزية والصدقات ومجهول المالك واللقطة قبل التعريف، وقبض ما يعود للإمام عليه السلام من الأموال كحق الإمام والأنفال وإرث من لا وارث له)[٢٧].

وقد توسع صاحب كشف الغطاء، الشيخ جعفر كاشف الغطاء حتى أعطى الإذن للسلطان (فتح علي شاه) في إيران في أخذ ما يتوقف عليه تدبير المملكة وقد جعله نائباً عنه في إدارة شؤون مملكة إيران[٢٨].

الفصل الثاني
جهود السيد محمد باقر الصدر ﷺ الأصولية

تمهيد:

يمتاز المنهج الإسلامي القويم في التربية والتعليم فضلاً عن الكتابة والبحث في المسائل العلمية والمعرفية بالإبداع والتطوير في كل المجالات وبالخصوص في علم أصول الفقه لمكانةِ هذا العلم وأثره الفاعل والحيوي في إثراء الجانب الفقهي للأحكام الشرعية والمعاملات تحديداً لما يتطلب من رؤية علمية فاحصة للمسائل المستجدة في الواقع العملي ومن الأهمية بمكان بل ومن الضروري لتطور الحياة وإتساع رقعتها وما يتطلبه ذلك من معالجات سريعة وعاجلة وذلك لمواكبة المسيرة الحضارية والتطور التقني والعلمي عموماً، مما يتطلب من المجتهد والمكلف المسلم مسايرة ذلك من خلال معالجة إسلامية وفق الثوابت الأساسية الأصيلة في النصوص الشرعية من النصوص الشرعية كالكتاب الكريم والسنة الشريفة فضلاً عن المصادر الأخرى.

فقد برز علماء أعلام ومفكرون مبدعون وفقهاء مجتهدون مجددون أغنوا الساحة العلمية والمعرفية وواكبوا المسيرة ورفدوا المكتبة العربية الإسلامية بمصنفات وأبحاث أغنت الواقع العلمي وأسهمت إسهاماً واضحاً في بلورته عملياً، من أولئك الأفذاذ: من إنعقد البحث لأجله المُجدّد السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ لجهودهِ في تطوير وتفعيل آليات الإجتهاد ومناهج وأساليب الإستنباط للإرتقاء بعلوم الحوزة العلمية وديمومة كيانها للإستفادة منها عملياً خدمة لشريعة المصطفى الغراء.

فقد تجاوز السيد الشهيد ﷺ إشكالية الصراع بين التراث والمعاصرة بل وعالجَها

علاجاً إيجابياً وذلك بالتفاعل الحضاري مع الجوانبِ الحيةِ من التراث الفكري، ومزجها بالإبتكارات العلمية والتطورات المعرفية المعاصرة إضافة إلى إبداعاتهِ في منهجيةِ البحث العلمي في ذلك.

وخيرُ مثال على ذلك تلك الجهود الفذة التي أودعها في تقريراته لأصول الفقه، ولا سيما منهجيته المتمثلةُ بتبويب الأقوال والأدلةِ، وتبسيط البحث في مسائلهِ المُعقدة والتي يكثر فيها الإلتباسُ والخلط، ومن ثم توضيحها وتحليلُها تحليلاً موضوعياً ومناقشتها نقاشاً علمياً، فقد أودعها في كتابه "دروس في علم أصول الفقه" المعروف بـ (الحلقات).

وقد تميزت جهوده العلمية والإبداعية في أصول الفقه. كالآتي: ـ

١ ـ كتابة الأصول وفق منهج دراسي مُنّظم وبإسلوب علمي.

٢ ـ أطلق على أصول الفقه (منطق الفقه) مما منحهُ بُعداً عقلياً ورياضةً فكريةً.

٣ ـ إعتبر (أصول الفقه) نظرية (والفقه إسلامي) تطبيقاً لها.

٤ ـ أصبحت لأصول الفقه شخصيةً وكياناً وإستقلاليةً بعد أن كان منضوياً ضمن مجموعة من العلوم الأخرى كالقرآن وعلومهِ والحديث وعلومهِ واللغة وعلومها والفقه والمنطق.

٥ ـ أصبح لأصول الفقه مجالات أخرى في الإستفادة منه لفهم علوم الشريعة كافة ولم يكن خاصاً بعلم الإجتهاد وإستنباط الأحكام.

واختم التمهيد بقولٍ للأستاذ الدكتور علي سامي النشار في فكر وأسلوب ومنهج وعلم السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ ما نصه: ـ

(إنك بإزاءِ فكر الصدر أمام أكاديمي من الطراز الأولِ، وعَرْضُهُ للمسائل عرض عالمِ متفتحِ يكشف أوجه الإتفاق والإختلاف، فقد جمع الصدر بين الأصالةِ والمعاصرةِ وبين التقليدِ والتجديدِ)[٢٩].

وسأحاول إن شاء الله عرض ذلك من خلال مباحث ثلاث وكما يأتي: ـ

المبحث الأول: الدرس الأصولي عند الشهيد الصدر ﷺ

ليس بخافٍ على المتخصصين في هذا

المضـــمار وذوي الإلمـــام الواســـع بـــهِ أن المباحث الأصولية عند الشهيد الصدر : ـ

١ ـ غاية الفكر في علم الأصول .

٢ ـ المعالم الجديدة للأصول .

(وكانـت سـمته فـي تلـك الآثـار : تطـوير الممارسة الأصولية في (نطاق اللغة والمنهج والمادة) بـدءاً مـن أبسـط مسـتوياتها متمثلـةً في"ذريعة المرتضى"و عـدة طوسـي"وإنتهـاءاً بأنضـجها متمثلـةً فـي مدرسـة النجـف الأخيرة)[٣٠] .

الأصول علمٌ وجَّه له الشهيد الصدر جلَّ إهتماماتـه وطـوّر مباحثـه ونظّـر الكثيـر مـن طروحاتـهِ وحتـى مصـطلحاته بـل أنـه أطلـق عليـــه"منطـــق الفقـــه"أو النظريـــة والفقه"التطبيق"[٣١] ولَعلَّ له الريادة في ذلك حسب تتبعي المتواضع .

في (غاية الفكـر) بـيّن سـماحتهُ ملامـح مدرسته الأصولية[٣٢] وهـو يبـيّن جـزءاً مهمـاً من دورتهِ الأصوليةِ .

وفي (المعـالم الجديـدة) قسّـم الفتـرات التاريخية لعلم الأصول وتطوره :

١ ـــ العصـــر التمهيـــدي : هـــو العصـــر التأسيسـي لعلـم الأصـول الـذي كـان كبـار رموزه الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) الذي كتـب (مختصر التذكرة بأصول الفقه)[٣٣] .

٢ ـ عصـر العلـم : وفيـه تجسـدت معـالم الفكر الأصولي وقد بان إنعكاسه في المدرسة الفقهية وكان الرائد في هذا المجـال : السـيد المرتضى (ت٤٣٨هـ) فـي ذريعتـه والشـيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) فـي عدتـه والحليّـان : المحقق (ت٦٧٦هـ) في المعـارج والعلامـة (ت٧٢٦هـ) وهو أكثر من ألف فـي الأصـول أبرزها نهاية الوصـول إلـى علـم الأصـول ومـا إلى ذلك .

٣ ـ عصر الكمال العلمي : في هذا العصـر الذي بدأ بحدود أواخر القـرن (١٣هـ) علـى يـد الوحيـد البهبهـاني (ت١٢٠٥هـ) وتـلاه ثلاثة أجيال من تلامذتهِ محمد مهـدي بحـر العلوم (ت١٢١٢هـ) والشـيخ جعفـر كاشـف الغطاء (١٢٢٨هـ) ثـم الجيـل الثـاني الـذي تخرّج على بعضهم وصولاً إلى الجيل الثالث الذي إرتفع بعلـم الأصـول إلـى القمـة وعلـى رأسـهم المحقـق الأنصـاري (ت١٢٨١هـ) الذي إعتبره الصدر : (رائداً لأرقى مرحلة مـن مراحل العصر الثالث)[٣٤] .

إن هذه التقسيمات السـالفة تُعـدّ دراسـة

لتاريخ العلم الأصولي وذلك أهم ما يقرّره المنهج العلمي الحديث وهو مما سارت عليه الدراسات الجامعية وإنها لإضافة رائدة وموفقة.

(وتأليفه موسوعته الأصولية"دروس في علم الأصول"المعروفة في الأوساط الحوزوية بـ(الحلقات) الذي طوّر فيه التبويب منهجاً وأسلوباً وفي المادّة بإضافة أحدث ما إنتهت إليه مدرسة النجف الأشرف من نظريات حديثة في هذا العلم، تجارت تدريسه في الحوزتين الكبيرتين: النجف وقم نجاحه كمقرر دراسي)[٣٥].

ولا بد هنا من الإتيان على التقييم الموضوعي للمتخصصين والأساتذة حول (الحلقات) ولهم تجربة واسعة في هذا المجال:

(إن تجربته موفقَّة بشكل متكامل حيث أنه حاول في كتاب"الحلقات"أن يتغلّب على هذهِ الفجوة وعلى هذا النقص في أصول الفقه)[٣٦].

وعموماً فإن التجديد العلمي في حقل الدراسات الأصولية وقد تصدى فيها إلى مهمة التحقيق والتدريس في جامعة النجف الأشرف كما في الدراسات الأخرى لمدة تزيد على ربع قرن وكان أهم ما تميز به: (الإحاطة والعمق وأن يستوعب تراث الماضين ويسبر غور أفكار المعاصرين، فطوّر منها ما وجده جديراً بالتطوير ونقد فيها ما وجده موضعاً للنقد، وأبدع فيها كثيراً حتى إكتملت من آرائهِ وأفكارهِ مدرسة جديدة متميزة بالنظرة الفاحصة والرأي البديع والنهج الجديد فللسيد الشهيد مدرسة متكاملة سواءً في حقلِ الأصول أو في الحقول الأخرى في بسط ونفوذ أفكارهِ في العقل الحوزوي، وهيمنتها في الدراسات الإسلامية العليا وقد بدأت أفكاره اليوم تمثل مساحات واسعة من أفكار الحوزويين ولا بدَّ أن يشهدَ المُستقبل القريب تربّع المدرسة الصدرية بأفكارِها وإبداعاتها على عالم العقل والتفكير في حوزات العلوم الدينية ومعاهد الدراسات الإسلامية العليا)[٣٧].

المبحث الثاني: منهجية الصدر في علم الأصول

يُعد السيد الشهيد من الرواد الذين جددوا في المنهج الأصولي وأضفوا عليه حُلّة منتظمة أعطتهم بُعداً آخر في العرض

والترتيب (لم يقتصر السيد الشهيد في تغييرهِ الألفاظ والبيان بل غيّر في المنهجية أيضاً فقدّم وأخّر وأوجد في المطالب حيث أورد مبحث القطع في أول كتابهِ الحلقات)[٣٨] .

وهناك إنطباعات للمبرّزين من تلامذته الذين نهضوا بأعباء التدريس ومهمة المباحث في الدراسات الإسلامية ومنهم كمال الحيدري الذي يتحدث عن منهجية أستاذه (الحوزات العلمية لابد أن تبدأ من هنا أي من تحديد الأساس المعرفي ومن هنا فقد إلتفت أستاذنا الشهيد فبدأ البحث من (نظرية المعرفة) وبنى كلَّ جهدهِ العلمي على الأسس المنطقية ونظرية المعرفة ليبني عليها جهده الفقهي والأصولي والمنطقي فرأى إن نسبة كبيرة من نتائج العلوم لا يمكن تفسيرها على أساس المنطق الأرسطي في توالد المعرفة فلذا جاء وبنى أساساً في الأسس المنطقية للإستقراء هذهِ المحاولة التي لا نعرف عنها وعن آثارها كثيراً مع إننا من أبناء هذهِ المحاولة !)[٣٩] .

إن تحديد المنهج بحسب الدراسات الأكاديمية أيضاً من مقومات النجاح في الدراسات والبحوث العلمية . وإجمالاً فإن حلقات السيد الشهيد أحدث فيها تغييراً على نطاق المضمون والمنهج أما المطالب المذكورة فيها هي نفسها الموجودة في الكفاية والرسائل ، ولكن كُتبت بلغةٍ جديدةٍ أسهل وأوضح من اللغةِ الموجودةِ في الكفايةِ وبتبويب منهجي منطقي .

فشخّص السيد الشهيد التداخل الحاصل في عملية الإستنباط الفقهي فيقرر ويميز القاعدة الأصولية عن القاعدة الفقهية وبذلك إنتهى إلى تحديد (الأصول) كعلم مستقل متميّز برغم الموارد الفلسفية والكلامية والفقهية .

المبحث الثالث : نماذج لمنهجية الشهيد الصدر ﷺ الأصولية

لم يتكأ الصدر على المنهج السائد ـ كما أسلفت القول ـ في مدرسة الأنصاري فقد إقترح منهجين لعلم الأصول : ـ

المنهج الأول : ـ بلحاظ الدليلية

المنهج الثاني : ـ بلحاظ نوع الدليل

وفي المنهج المُقترح لبحوث هذا العلم ، أن توضع مقدمة تشتمل على أمرين :

أحدهما : البحث عن القطع وحجيته .

الآخر : البحث عن حقيقة الحكم ، وما

يتصور له من أقسام.

وبعد ذلك تصنف البحوث الأصولية على أساس أحد المقياسين التاليين: ـ

أولاً: التقسيم بلحاظ الدليلية[٤٠]

هو أن يُلاحظ في التقسيم نوع الدليلية من حيث كونه لفظياً أو عقلياً أو تعبدياً وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف المسائل الأصولية: ـ

١ ـ مباحث الألفاظ.

٢ ـ مباحث الإستلزام العقلي، وهي:

أ ـ غير المستقلات العقلية

ب ـ المستقلات العقلية

٣ ـ مباحث الدليل الإستقرائي[٤١]

ويتضمن البحث عن الإجماع والسيرة والتواتر التي تكون دليليتها قائمة على أساس حساب الإحتمالات والإستقراء ويبدأ البحث في هذا القسم بنبذة في شرح حقيقة الدليل الإستقرائي على نحو الإجمال.

٤ ـ الحجج الشرعية.

٥ ـ الأصول العملية العقلية.

ثم تختم بحوث الأدلة بخاتمة في التعارض الواقع بين الأدلة المذكورة على أقسامها وأحكام التعارض المذكور.

ثانياً: التقسيم بلحاظ نوع الدليل[٤٢]

وهو أن يلاحظ في التقسيم نوع الدليل من حيث ذاته وعلى أساسِه تصنيف البحوث الأصولية إلى قسمين رئيسين: ـ

أ ـ الأدلة

ب ـ الأصول العملية

ونوضحها كالآتي: ـ

أ ـ الأدلة: وتقسم إلى قسمين: ـ

القسم الأول: الأدلة الشرعية: ويُصنف البحث فيها إلى ثلاث جهات: ـ

الجهة الأولى: في تحديد دلالات الدليل الشرعي، اللفظي وغير اللفظي[٤٣].

الجهة الثانية: في إثبات صغراه، أي صدوره من الشارع.

الجهة الثالثة: في حجية تلك الدلالات.

القسم الثاني: الأدلة العقلية، ويشمل البحث فيها جهتين:

الجهة الأولى : ـ البحث الصغروي : ـ

أي إثبات القضايا العقلية (المستقلات العقلية وغير المستقلات العقلية)[٤٤] .

الجهة الثانية : ـ البحث الكبروي : ـ

أي حجية الدليل القطعي

ب ـ وكلاهما يشتركان في أمرين : ـ

الأمر الأول : ـ مقدمة تشتمل على الحكم الشرعي وحجية القطع .

الأمر الثاني : ـ خاتمة في التعارض بين الأدلة .

ومن إنجازاته الإبداعية في علم الأصول

١ ــ مسلك حق الطاعة[٤٥] ــ البراءة الشرعية .

مضمونية الحكم الشرعي في (عالم الثبوت) .

فجمع بين الحكم الظاهري والحكم الواقعي تحت عنوان نظرية (التزاحم الحفظي)[٤٦] دون أن يقع في (إجتماع الضدين)[٤٧] أو (إجتماع المثلين) .

٣ ـ حجية القطع :

حيث تدور مدار مولوية المولى لا (ذاتية القطع) .

٤ ــ ورود الترخيص في جميع أطراف العلم الإجمالي .

٥ ـ مباحث السيرة .

فهو أول من أفرد بحثاً لها من الأصوليين وبذلك يُعد بحقٍ مدرسة أصولية ذات منهج متميز جديد فضلاً عن الجوانب العلمية الرصينة التي أودعها في كتبه الأصولية .

أبرز المصادر والمراجع المعتمدة

خير ما نبتديء به القرآن الكريم

١ ــ الإسلام يقود الحياة : محمد باقر الصدر ، مطبعة شريعت ، قم إيران ، عام ١٤٢٤هـ ط٢ .

٢ ـ آفاق حضارية للنظرية السياسية في الإسلام : د . محمد بحر العلوم ، دار الزهراء للطباعة والنشر بيروت ، عام ٢٠٠٣م ط٢ .

٣ ـ كمال الدين وإتمام النعمة : ابو جعفر محمد بن علي الصدوق ، قم إيران ، دار الكتابة الإسلامية ، عام ١٣٨٩هـ ط٢ .

٤ ـ بحار الأنوار : العلامة المجلسي ، طبع مؤسسة الوفاء ، بيروت عام ١٩٨٣هـ .

٥ ـ بحوث في علم الأصول: حسن عبد الساتر، مكتبة الصدر للطباعة والنشر، قم إيران ستارة عام ١٤٢٣هـ ط١.

٦ ـ بحوث في علم الأصول: محمود الهاشمي، مؤسسة دار المعارف، مطبعة فردوين، قم، إيران، عام ١٩٩٦م ط٣.

٧ ـ دروس في أصول الفقه: د. عبد الهادي الفضلي، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، عام ١٤٢٠هـ ط١.

٨ ـ دروس في علم الأصول: السيد محمد باقر الصدر، مطبعة القدس، قم إيران عام ١٤١٩هـ (الحلقة الأولى).

٩ ـ المدخل الفقهي العام: مصطفى الزرقا، مطبعة دمشق، عام ١٩٦٨م.

١٠ ـ موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم: أبو الأعلى المودودي، نشر دار الفكر الحديث، عام ١٩٦٧م ط٢.

١١ ـ موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية الدينية: السيد محمد باقر الحكيم، طبع مؤسسة شهيد المحراب، النجف الأشرف، عام ٢٠٠٥م.

١٢ ـ ميزان الحكمة: محمد الريشهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت عام ٢٠٠١م ط١.

١٣ ـ النور الساطع في الفقه النافع: علي محمد رضا كاشف الغطاء، مطبعة الآداب النجف الأشرف، عام ١٩٦١م ط١.

١٤ ـ وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة: الحر العاملي، مطبعة مهر، قم، إيران، ١٤١٤هـ تح مؤسسة أهل البيت عليهم السلام.

الهوامش:

(١) لسان العرب: إبن منظور، مادة (رجع) ١١٤/٨ + القاموس المحيط: الفيروز آبادي مادة رجع ٩٣٠/١.

(٢) المصباح المنير: الفيومي ٢٢٠/١.

(٣) العلق: الآية /٨.

(٤) المؤمنون: الآية / ٩٩ ـ ١٠٠.

(٥) إكمال الدين وإتمام النعمة: أبو جعفر محمد بن علي الصدوق: ص٤٨٤، وهناك رواية صحيحة عن عبد

الله الحميري الوسائل، ٩/١٨.

(٦) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية : محمد باقر الحكيم، ٢٥/٢.

(٧) معجم ألفاظ الفقه الجعفري : فتح الله، ص٣٨٠.

(٨) م/ن، ص٤٠٤.

(٩) الإسلام يقود الحياة : محمد باقر الصدر : ص١٤٤ ـ ١٤٦.

(١٠) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية : محمد باقر الحكيم، ٢٥/٢ ـ ٣٣.

(١١) م/ن ١١/٢.

(١٢) الإسلام يقود الحياة : محمد باقر الصدر، ص١٤٤ ـ ١٤٦ + موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية : محمد باقر الحكيم، ٢٥/٢.

(١٣) الكافي : الكليني ٣٢/١ ح٢.

(١٤) كنز العمال : المتقى الهندي، ح (٢٨٦٧٧).

(١٥) كمال الدين وإتمام النعمة : أبو جعفر محمد بن علي الصدوق، ص٤٨٤.

(١٦) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية الدينية : محمد باقر الحكيم، ٧٦/٢ ـ ٧٧، قسم دار الكتب الإسلامية، ط٢، ١٣٨٩هـ.

(١٧) المؤمنون / الآية ٤٥.

(١٨) الفرق : البغدادي، ص٩ + تاريخ اليعقوبي : ٨٧/٣ + الملل والنحل : الشهرستاني ٢٤٣/١.

(١٩) الصواعق المحرقة : إبن حجر العسقلاني ص١٣٥ باب وصية النبي ' بهم + المراجعات : عبد الحسين شرف الدين، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، عام ١٩٦٣م ص٥٢.

(٢٠) الأنبياء / الآية ٧.

(٢١) ميزان الحكمة : ري شهري، ٣٥٨/٨.

(٢٢) آفاق حضارية للنظرية السياسية في الإسلام : د. محمد بحر العلوم، دار الزهراء للطباعة والنشر بيروت، ط٢ عام ٢٠٠٣ م ص٨٩ وما بعدها.

(٢٣) آفاق حضارية للنظرية السياسية في الإسلام : د. محمد بحر العلوم ص٩٥ ـ ٩٦.

(٢٤) لسان العرب : إبن منظور في مادة (ولي).

(٢٥) صحاح اللغة : الجوهري، مادة (ولي).

(٢٦) سورة البقرة : الآية /٣٠.

(٢٧) بحوث إستدلالية في ولاية الفقيه : عباس السلامي، طبع إيران في عام ١٤٢٧هـ ص٢٤.

(٢٨) تقريرات بحث النائيني : كتاب المكاسب والبيع، المُقرّر الشيخ آملي، ٣٣٤/٢.

(٢٩) النور الساطع في الفقه القاطع : الشيخ علي محمد رضا كاشف الغطاء، مطبعة الآداب النجف الأشرف عام ١٩٦١م ٣٤٠/١.

(٣٠) كشف الغطاء : الشيخ جعفر الكبير الجناجي المالكي، طبع إيران، قم ٣٣٣/٤ (للإطلاع على المزيد مراجعة هذا المصدر)

(٣١) المشكاة : أ. د علي سامي النشار ص٣٥.

(٣٢) السيد محمد تقي الحكيم وحركته الإصلاحية في النجف : معهد الدراسات العربية والإسلامية، لندن (بحث الدكتور محمود البستاني) ص٢٤٩.

(٣٣) دروس في علم الأصول : محمد باقر الصدر، الحلقة الأولى، ص٣٠ وما بعدها، ط٢ ١٤١٩هـ إيران قم دار العلم.

(٣٤) محمد باقر الصدر المؤسس والمجدد : مجموعة باحثين، مؤسسة العارف ٢٠٠٨م ص٤٥.

(٣٥) وقد طبع عدة مرات منها في بيروت لبنان محقق عام ١٩٨٨م وفي قم، إيران عام ١٩٩١م.

(٣٦) سنوات المحنة وأيام الحصار : محمد رضا النعماني، نشر مكتبة السيد الصدر ص٤٢.

(٣٧) مجلة فقه أهل البيت : العدد الخامس والثلاثين، السنة التاسعة، عام ٢٠٠٤م إيران قم (بحث الدكتور عبد الهادي الفضل) ص١٩٨.

(٣٨) م/ن (بحث الشيخ باقر الإيرواني ص١٨.

(٣٩) الشهيد الصدر ومشروع إحياء الحوزة : الشيخ محسن الآراكي ص٤٥ "التحقيق والحوزة".

(٤٠) مجلة فقه أهل البيت، بحث الشيخ باقر الإيرواني، ص١٨٥.

(٤١) م/ن بحث السيد كمال الحيدري ص٢١١.

(٤٢) بحوث في علم الأصول : محمود الهاشمي، مؤسسة دار معارف الفقه الإسلامي، مطبعة فروردين + مباحث الدليل اللفظي : حسن عبد الساتر الناشر محبين قم إيران ١٤٢٣هـ ١٧٧/١.

(٤٣) الأسس المنطقية للإستقراء : السيد محمد باقر الصدر، المجمع العالمي للشهيد الصدر، ط١، ١٤١٠هـ ص٣٩.

(٤٤) بحوث في علم الأصول : حسن عبد الساتر ١٢٠/١ ـ ١٢١.

(٤٥) بحوث في علم الأصول : محمود الهاشمي، ٥٩/١ــ ٦٠ الشهيد الصدر الفقيه المجدد : مجلة أهل البيت، العدد (٢٠) ص٢.

(٤٦) مجلة أهل البيت، العدد (٢٠) سنة ١٤٢١هـ ص٢٤٥ (بحث حيدر حب الله : معالم الإبداع الأصولي عند الشهيد الصدر).

(٤٧) دروس في علم الأصول : محمد باقر الصدر الحلقة الثالثة ٢/ ٣١٨.

(٤٨) بحوث في علم الأصول : محمود الهاشمي ٢٠٣/٢.

(٤٩) دروس في علم الأصول : محمد باقر الصدر الحلقة الثالثة ٢/ ١٨.

أ. كبرى مجيدي
باحثة وكاتبة من الجمهورية الإسلامية الإيرانية

حقيقة الإيمان في ضوء آيات القرآن
تفسير الميزان نموذجاً

تمهيد

شكّلت مفردة الإيمان مسألة مهمّة في علم الكلام. وهي مسألة جذريّة وأساسيّة مترتّبة على إثبات حاجة العنصر الإنسانيّ إلى وجود متعال. وقد عالج المفكّرون المسلمون مسألة الإيمان ولوازمها. ولعلّ بداية البحث في هذه المسألة لم تكن ذات ارتباط بالبُعد الكلاميّ، بل كان ارتباطها بالبُعد العمليّ. فالإشكاليّة التي كانت محلّ اهتمام المتكلّمين في تلك المرحلة ترجع إلى العلاقة بين الإيمان والعمل، فجماعةٌ كالخوارج، والمعتزلة وأهل الحديث اعتبروا العمل عنصراً مكوِّناً لمفهوم الإيمان. وجماعةٌ كالمرجئة وأغلب متكلّمي الشيعة، عدّوه خارجاً عن مفهوم الإيمان وإن كان من لوازمه.

ولعل أهميّة البحث في هذا العنوان ترجع إلى الدور المحوريّ لمفهوم الإيمان والمعنى المقابل له أي الكفر من بين المفاهيم القرآنيّة والروائيّة. كما أنّ الإيمان والعناصر المرتبطة به من المفاهيم التي لها أهميَّتها لدى علماء الإسلام، ونتعرّض في هذه السطور لهذا الموضوع

من وجهة نظر المفسِّر الكبير السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ.

معنى الإيمان ومفهومه

ذكر المفكّرون المسلمون والغربيّون تفاسير متعدّدة لمعنى الإيمان ومفهومه انطلاقاً من دور تحديد المفهوم في معالجة المسألة. فقد عرّف بعض المفكّرين الغربيّين الإيمان بـ(الارتباط القلبيّ) وفسَّره جماعة من العلماء المسلمين بأنّه التصديق بالأمر القدسيّ. وقد تعرّض العلّامة الطباطبائيّ لتفسير معنى الإيمان خلال تفسيره للآيات القرآنيّة فذكر أنّ: « الايمان، تمكّن الاعتقاد في القلب مأخوذ من الأمن كأنّ المؤمن يُعطي لما آمن به الأمن من الريب والشك ».

كما ذكر العلّامة الطباطبائيّ تعاريف متعدّدة لمعنى الإيمان منها أنّ الإيمان هو بمعنى الإذعان والتصديق بالشيء، أو الالتزام بلوازمه. وبناء عليه فالإيمان بالله في عرف القرآن هو التصديق بوحدانيّته، وبالأنبياء وبالمعاد وبكلّ ما جاء به الأنبياء المقترن بالاتّباع في الجملة لهم. ويرى العلّامة الطباطبائيّ في موضع آخر أنّ محلّ الإيمان قلب الإنسان. بمعنى أنّ الإيمان عقد وحالة في القلب تُعطي المؤمن الأمان. وهو عبارة عن أثر أو صفة تتحقّق في قلب المؤمن الحقيقيّ. وما ينبغي الإشارة إليه هنا هو أنّ العلامة لا يرى الإيمان مجرّد اعتقاد، ويرى أنّ الالتزام بلوازم الإيمان وآثاره العلميّة ضروريٌّ في الإيمان. نعم الطمأنينة والسكون الخاصّ في النفس هو أيضاً من مكوّنات الإيمان وهو بنفسه أثر من آثار الالتزام العمليّ بلوازم الإيمان. ويعتقد في المجموع بأنّ الإيمان بالله لا يكفي فيه أن يَعلم الإنسان ويدرك أنّ الله حقّ، بل لا بدّ من أن يقوم بترتيب آثار ذلك عملاً.

ويرى العلّامة الطباطبائيّ في تعريفه الذي يقدّمه للإيمان بأنّه أمر شهوديّ ويرى أنّ المعرفة مقدّمة للإيمان الحاصل من خلال الشهود. ولا يرى الإيمان أمراً مخالفاً للعقل بل يعتقد أنّه يمكن إقامة البرهان عليه من خلال استخدام الاستدلال العقليّ المحكَم.

ويرى أيضاً أنّ الإيمان أمر معقول وأنّه يعتمد لدى الكثير من الناس على القول والتصديق النظريّ المقترن بالتسليم. ويعتقد بأنّ الإيمان يتحقّق لدى عدد قليل من

الخواصّ عن طريق الكشف والشهود. وهو الكشف التام، والإيمان الحقيقيّ حقيقة تشكيكيّة لها مراتب تقبل الزيادة والنقصان. والإيمان فعل اختياريّ وهو أيضاً من أرقى الفضائل الإنسانيّة التي يمكن للإنسان أن يصل إليها عن طريق العقل مع الإرادة والاختيار. فماهيّة الإيمان أمر نفسانيّ وقلبيّ، وما لم يتحقّق الإنقلاب في باطن النفس الإنسانيّة فلن تترتّب آثار الإيمان ونتائجه ولن تظهر في عمل الجوارح.

أقسام الإيمان

للإيمان أقسامه المتعدّدة بلحاظ ما يتركه من تأثير في المؤمن، ولذا يذكر العلّامة الطباطبائيّ أنّ الإيمان بشكل عامّ واحد ولكنّ له درجات وصفات ومنازل.

المؤمنون متعدّدون ولكنّ الإيمان واحد

أجسامهم متعدّدة ولكنّ روحهم واحدة

فبلحاظ مراتب الإيمان، للإيمان مرتبةٌ تامّةٌ كاملة هي أعلى درجات الإيمان، وللإيمان مرتبةٌ ناقصةٌ واضحة النقصان، وبين المرتبتين مراتب فيها من أهل الإيمان من لم يصل إلى كمال الإيمان ولم يصل إلى هذا النقصان، وبتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله. فغير المؤمنين في هذه الدنيا يتحقّق منهم الإيمان يوم القيامة وهو إيمان إيقان، لكنّهم يدركون أنّ الإيمان يومئذ لا ينفعهم، بل الإيمان النافع هو الإيمان في الدنيا فيتمنّون الرجوع إلى الدنيا ليكونـ ما عندهم من الإيمان كإيمان المهتدين وهم المؤمنون حقّاً المهتدون بإيمانهم يوم القيامة وهذا معنى لطيف، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة، ١٣)، فلم يقولوا فارجعنا نؤمن ونعمل صالحا بل قالوا فارجعنا نعمل صالحا.

ويذكر العلامة أنّ الإيمان الكامل، وهو التوحيد الخالص، عزيز المنال لا يناله إلّا القليل من الناس. وأمّا أكثرهم فليسوا بمؤمنين، ولو حرصت على إيمانهم، واجتهدت في ذلك جهدك، والأقلّون وهم

المؤمنون، ما لهم إلّا إيمان مشوب بالشّرْك فلا يبقى للإيمان المحض والتوحيد الخالص إلّا أقلّ القليل. كما يرى العلامة أنّ من الإيمان ما لا تحرّكه العواصف، ومنه ما يزول بأدنى سبب يعترضه وأوهن شبهة تطرأ عليه.

ويذكر العلامة في موضع آخر الآتي: إنّ كلّ إنسان هو مؤمن لا محالة إمّا إيماناً اختيارياً مقبولا يسوقه إلى سعادة الحياة الدنيا والآخرة، وإمّا إيماناً اضطراريّاً غير مقبول حيثما يرى العذاب الأليم.

فالإيمان طبقاً لرأي العلّامة، على قسمين: اختياريّ واضطراريّ، والإيمان الاختياريّ هو المقبول عند الله وهو الذي يصل بالإنسان إلى سعادته في الدنيا والآخرة، وأمّا في الإيمان الاضطراريّ فحيث يكون مثل هذا الإيمان من باب الاضطرار لا يكون مقبولا عند الله. فالإيمان الاضطراريّ وإن كان يصدر عن الإنسان عن إرادة واختيار، ولكنّه يصدر بلا ميل ولا رغبة، ولمّا كان الإيمان الفعليّ قلبيّاً تختلف درجات المؤمنين باختلافه كان الإيمان بلا ميل وبلا رغبة لا نفع فيه.

الإيمان والإسلام

الإسلام هو دين الفطرة، والطريق إليه هو التسليم لله عزّ وجلّ: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ** ﴾ (آل عمران، ١٩) والإسلام كما يذكر العلامة هو الذي يأمر أتباعه باختيار الإسلام منهجا لحياتهم لأنّ الإسلام لم يترك شيئاً من الحقّ إلّا وقد بيّنه.

ويرى العلّامة أنّنا لو أردنا بيان ارتباط الإيمان بالإسلام، فمرادنا ليس هو إظهار الإيمان والعمل بظاهر الأعمال الدينيّة. كما ورد في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ (**البقرة، ١٢٨**).

ويذكر العلّامة في تفسيره للآية المذكورة أنّ مراد إبراهيم واسماعيل/ من الدعاء ليس الإسلام الظاهريّ حتّى وإن لم يكن مقروناً بالإيمان واليقين القلبيّ، أو أن لا يتجاوز اللفظ والذي قد يقترن بالنفاق. هذا الإسلام هو تمام العبوديّة وتسليم العبد كلّ ما له إلى ربّه، وهو إن كان معنىً اختياريّاً للإنسان من طريق مقدّماته، إلّا أنّه إذا أضيف إلى الانسان العاديّ وحاله القلبيّ المتعارف كان غير اختياريّ بمعنى كونه غير ممكن النيل له ـ وحاله حاله ـ كساير

مقامات الولاية ومراحلها العالية، وكسائر معارج الكمال البعيدة عن حال الانسان المتعارف المتوسط الحال بواسطة مقدّماته الشاقّة، ولهذا يمكن أن يُعَدَّ أمراً إلهيّاً خارجاً عن اختيار الانسان.

ظلّ المعشوق إذا وقع على العاشق فما الذي يحدث؟

نحن نحتاج إليه وهو يشتاق إلينا؟

بل بين الإيمان والإسلام ارتباط لا يمكن أن ينفكّ كما يراه العلّامة، فلكلّ مرتبة من الإسلام مرتبة من الإيمان تابعة لها. وأوّل مراتب الإسلام النطق بالشهادتين والقبول بظاهر الأوامر والنواهي الدينيّة. سواء أكان مع الرضا القلبيّ أو مع عدمه (الحجرات، ١٤) ومع هذا التسليم الظاهريّ تكون المرتبة الأولى من الإيمان أي الاعتقاد والاعتراف القلبيّ بمضمون الشهادتين ومن لوازمه العمل بأكثر الأحكام الفرعيّة في الإسلام. وحيث كان من الممكن أن لا يصل المؤمن إلى كافة المعتقدات الدينيّة الصحيحة فمن الممكن أن يختلط إيمانه بالشّرك. كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (يوسف، ١٠٦)

وأمّا المرحلة الثانية من الإسلام فهي عبارة عن التسليم والانقياد القلبيّ بحقيقة الألوهيّة والمعتقدات الحقّة، ويلزم منه أداء العمل الصالح. وقد ورد التصريح بهذه المرتبة في الآيتين ٦٩ من سورة الزخرف، و٢٠٨ من سورة البقرة. وفي موازاة هذا الإسلام تأتي المرتبة الثانية من الإيمان أي اليقين بالله وبما يرتبط به.

وأمّا المرتبة الثالثة من الإسلام فهي بعد أن يتزيّن المؤمن بزينة الأخلاق الإلهيّة حيث يكون التسليم من سائر قواه الحيوانيّة ويكون في ظلّ العبوديّة الإلهيّة. بنحو يعبد الله وكأنّه يراه: «يا أبا ذر اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

وفي هذه المرحلة من التسليم قد تشمل العناية الإلهيّة الإنسان ويرى عياناً أنّه لا تأثير في هذا الكون لأحدٍ سوى الله عزّ وجلّ. ومثل هذا الأمر هو فيض إلهيّ لا يرتبط بإرادة الإنسان. وفي المرتبة الرابعة تشمل هذه الحالة الوجود الإنسانيّ بتمامه، وهنا تكون الطمأنينة التامّة للإنسان في كلّ شؤون حياته: ﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ (يونس، ٦٢ـ ٦٣). وطبقاً لمفاد

الآية الثانية فإنّ أصحاب الطمأنينة هم أصحاب اليقين بعدم استقلالهم وبارتباطهم وبأنّه ليس في الوجود إلّا الله، وأنّ تأثير الأسباب كافّة بيد الله، ولذا لا يحزنون لما يقع لهم.

وبعد أن يتعرّض العلّامة لهذا الارتباط بين الإيمان والإسلام يشير إلى الفارق بينهما فيذكر أنّ الإيمان حقيقة تقوم في القلب وأمّا الإسلام فهو حقيقة تقوم بالجوارح.

الإيمان والعقل

لا بد قبل التعرّض لعلاقة الإيمان بالعقل من التعرّض لنقاطٍ مهمّة تتناول الاتّجاهات الموجودة في تحديد العلاقة بين الاثنين في تاريخ الفلسفة: النزعة العقليّة الإفراطيّة، النزعة العقليّة النقديّة، والنزعة الإيمانيّة.

طبقاً للاتجاه الأوّل فإنّ مقبوليّة نظام المعتقدات الدينيّة تتوقّف على إمكان إثبات هذا النظام بنحو يكون التصديق به شاملاً لجميع العقلاء إلى حدٍّ ما. ويتبنّى هذا الرأي أمثال: القديس آنسلم، توما الأكويني، جان لاك... وكذلك ابن سينا من الشرق، فيما يذهب جماعة إلى رفض الدين أمثال انطوني فلو، هيوم، راسل وغيرهم. ويتّفق هؤلاء على مقولة رفض كلِّ معتقدٍ لا يكون عقلانيّاً. وأمّا طبقاً للاتجاه الثاني أي النزعة العقليّة النقديّة فإنّ لكلٍّ من العقل والإيمان أهميّته بحدٍّ ما. ولعلّ العلّامة الطباطبائيّ يدخل ضمن هذا الاتّجاه. وأمّا الاتّجاه الثالث فإنّه يرى أنّ الحقائق الدينيّة تعتمد على الإيمان، ويلتزمون بعجز العقل وطريق الاستدلال عن الوصول إلى الحقائق الدينيّة. ومصطلح النزعة الإيمانيّة يُطلق اليوم في علم الكلام على كيركغور وفي فلسفة الدين على فيتجنشتاين. وفي داخل النزعة الإيمانيّة اتّجاهان أحدهما إفراطيّ والآخر معتدل.

والأوّل يعادي العقل، وأمّا الثاني فيتجنّب العقل ولا يعاديه. ففي الأوّل الإيمان والعقل أمران متضادّان، وفي الثاني العقل والإيمان أداتان منفصلتان تماماً. وضمن الاتّجاه الأوّل نجد أمثال كيركغور، داستايوفسكي، شستوف ومونتي، وضمن الاتجّاه الثاني نجد أمثال: باسكال، ويليم جيمس، تيليش، فيتجنشتاين وجان هيك.

ويرى العلّامة عند حديثه عن دور العقل

في مسألة الإيمان بأنّ ذلك مرتبط بنظام التربية العقلانيّ الخاصّ الذي يشكّل عنصراً أساساً في الإيمان. فالأسس التربويّة العقلانيّة تزيد من قدرات العقل على إدراك المعتقدات الدينيّة كما ترشده إلى موارد عجزه وقصوره. وما يدفع العلّامة للتأكيد على استخدام العقل في المسائل الإيمانيّة والدينيّة ومنزلته الرفيعة في ذلك هو خصوصيتان فطريّتان في الإنسان ترتبطان بالواقعيّة وبالشعور الإستدلاليّ في العنصر البشريّ. ويُطلق العلّامة الطباطبائيّ لفظ العقل على الإدراك ويرى أنّ إدراك العقد القلبيّ بالتصديق وإنّ إطلاق مفردة عاقل على الإنسان هو بهذا اللّحاظ حيث يبحث وبشكل فطريّ من خلال العقل عن واقع الأشياء. ويرى العلّامة أنّه لا يمكن قبول أيِّ أمرٍ نظريّ إلّا بعد التصديق بعلّته بنحوٍ من الأنحاء وأنّ الإنسان لا يمكن أن يُقدِم على أيِّ عمل إلّا أن يُدرِكَ علّته الموجبة له والمصلحة التي فيه. والدين المبنيّ على الفطرة الإنسانيّة غير مستثنىً من هذه القاعدة، وقد سلك في بيان تعاليمه لا سيّما ما يطلب الإيمان به ما يكون قابلاً لفهم العقل وإدراكه.

ويرى العلّامة أنّ الدين الحقيقيّ هو الذي لا يدعو الناس إلّا إلى الفلسفة الإلهيّة، بل هدف الدين هو أن يرشد الناس إلى الاستدلال والتمسّك بسلاح المنطق العقليّ والسير بخطى البرهان لمعرفة حقائق عالم ما وراء الطبيعة. ويرى العلّامة أنّ للعقل قيمته واعتباره في مجال معرفة المسائل الدينيّة والإيمانيّة، ويرافق العقل في ذلك الإلهامات الفطريّة المرتبطة بهذه المسائل. فالإدراك العقليّ للحقائق الدينيّة والتصديق بها هما أغنى ما يمكن أن تصل إليه الإنسانيّة، وهي أساس استحكام أسس دين الإسلام.

وأفضل شاهد للعلامة على مدّعاه منهج تفسير الآية بالآية. فإنّه بنى منهج التفسير الاجتهاديّ والنظريّ للقرآن على دلالة القرآن نفسه. ومهارة العلامة كانت في أنّه بعد فهمه لمفاد الآية القرآنيّة ومدلولها يتعرض بالبحث عن مؤيّداتها من العلم، الفلسفة العرفان وغيرها. ويرى وخلافاً لمن سبقه أنّ البرهان في خدمة القرآن وأنّ العقل في خدمة الإيمان وهو التفسير العقليّ المقبول للقرآن الكريم. ويرى الفلاسفة، لا سيما العلّامة أنّ جنس الوحي

هو من جنس العقل والشعور، ولكنّه شعور رمزيّ يختلف عن الشعور الإنسانيّ المتعارف.

يبقى أن نذكر أنّ العلّامة وفي جوابه عن سؤال هنري كوربان عمّا ينبغي أن يُعمل عند اختلاف العقل مع الإيمان يقول: «لمّا كان القرآن قد أمضى رأي العقل صراحة وصدّق به وجعله حجّةً، فإن أيَّ اختلافٍ نظريّ لا يمكن أن يقع بينهما، والبرهان العقليّ لو كان صائباً وواقعيّاً فإنّه سوف يصل إلى النتيجة نفسها؛ لاستحالة فرض أمرين واقعيّين متناقضين، ولو فرض وقوع تناقض بين الدليل العقليّ القطعيّ والدليل النقليّ، فحيث كانت دلالة الدليل النقليّ ظنيّة لأنّها عن طريق الظهور، فإنّها لا تتعارض مع الدليل القطعيّ، ولكن لا وجود لمثل هذا الاختلاف فعلا.

الإيمان والعمل

العمل طبقاً لتعريف العلّامة هو مجموعة من الحركات والسكنات التي تصدر عن الإنسان عن شعور وإرادة لأجل الوصول إلى غرض من المقاصد الدنيويّة أو الأخرويّة. وساحة العمل هي من الساحات ذات التأثير الشديد على الإيمان. فلا يمكن الإيمان بشيء والعمل بما يخالف ذلك الإيمان. ولمّا كان الإيمان فعلاً قلبيّاً، فمن لا يكون عمله مطابقاً لما في قلبه لا يكون من ذوي الإيمان الراسخ. ويستند الطباطبائيّ لإثبات ذلك إلى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تدلّ على أنّ الإيمان كلّه عمل. كما أنّ العقل يدلّ عليه وكذلك النقل والكتاب.

وبملاحظة تعريف العلامة للإيمان يظهر أنّ للإيمان لوازم عمليّة، وأنّ العمل الخارجيّ وإن لم يكن هو الإيمان نفسه ولكنّه مبرز للإيمان القلبيّ. وبعبارةٍ أُخرى، الإيمان بالشيء مستتبعٌ للعمل المناسب لهذا الإيمان لكي يتمكّن الإنسان من خلاله من الوصول إلى مراده. ولذا كان الإسلام عملاً صالحاً يوفّر الأرضيّة للسعادة البشريّة ولإدراك المعتقدات الحقّة. وميزان التزام العبد بالعمل الصالح مرتبط بشكل مباشر بمرتبة الإيمان الدينيّ لدى ذلك العبد، فكلّما زاد إيمانه زاد التزامه بالعمل الصالح.

وطبقاً لآيات كتاب الله فإنّ الاستقامة والسعادة الحقيقة رهينتان بشرطين أساسيّين هما الإيمان والعمل الصالح وانتفاء

أحدهما سبب لانتفاء السعادة. فقد قرن الله عزّ وجلّ بينهما في الكثير من آياته: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ (البقرة، ٢٧٧، المائدة، ٩؛ الكهف، ١١١؛ فاطر، ١٠؛ يونس، ٩). ويدلُّنا هذا على مدى الارتباط الوثيق بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان بلا عمل صالح لن يكون مفيداً.

وعند بيان العلّامة الطباطبائيّ للارتباط القائم بين الإيمان والعمل الصالح يذكر أنّ النتيجة الطبيعيّة للعمل الصالح هي الإيمان، فالإيمان والعمل الصالح وجهان لعملةٍ واحدة، وكلّ واحدٍ منهما يقوّي الآخر، فإذا كان الإيمان كاملاً فإنّه سوف يظهر من خلال العمل الصالح، كما أنّ الإيمان بالله عزّ وجلّ وبالمعاد هو السبب في الإتيان بصالح الأعمال، ولا يمكن الإتيان بعمل صالح مع انعدام الإيمان، ولو تحقّق ذلك فإنّه سوف يكون مجرّد مصادفة ولا أساس له ولا بنيان يقوم عليه. ولذا يذكر العلّامة الطباطبائيّ في ذيل الآية ١١٠ من سورة الكهف، الآتي: « إجمال الدعوة الدينيّة وهو العمل الصالح لوجه الله وحده لا شريك له وقد فرّعه على رجاء لقاء الربّ تعالى وهو الرجوع إليه إذ لولا الحساب والجزاء لم يكن للآخذ بالدين والتلبس بالاعتقاد والعمل موجب يدعو إليه ».

ويذكر العلّامة الطباطبائيّ أنّنا، ومن خلال تتبّع الآيات الكريمة، نصل إلى أنّ المظاهر العمليّة للإيمان تتجلّى في: الخشوع في الصلاة (المؤمنون، ٢)، الإعراض عن اللغو (المؤمنون، ٣)، الحافظين لفروجهم (المؤمنون، ٥)، الذين يراعون عهدهم وأمانتهم (المؤمنون، ٨)، المحافظين على صلاتهم (المؤمنون، ٩)، والذين يؤدّون الزكاة (المؤمنون، ٤) وغيرها.

الإيمان والاختيار

يرى العلامة أنّ الإنسان يتحرّك على أساس ما لديه من اختيار، وأنّ الله عزّ وجل أعطى للإنسان حريّة الاختيار ثمّ طلب منه العمل. هذا مع اعتقاده بأنّ الإرادة من الإنسان هي في طول إرادة الله. فإرادة الإنسان ليست سوى جزء من مئات الأسباب في نظام الخلقة. ويرى العلامة أنّ معنى كون الإنسان مختاراً أن ينتخب من بين الطرق المتعدّدة والأعمال المتنوّعة التي أمامه بعد البحث فيها أحدها ويصمّم

على العمل به، فالإنسان موجود ذو عقل وإرادة ويمكنه أن يختار ما يريد أو لا يختار. نعم الإنسان مجبور في اختياره، ولكنّه مختار في فعله، إي إنّه بحسب خلقته له حريّة اختيار الفعل أو عدم الفعل، وليس مقيّداً بواحدٍ من الطرفين.

ثمّ يتعرّض العلّامة للارتباط بين الإيمان والاختيار ويرى أنّ الإيمان يكون مقبولاً متى كان عن اختيار. ومن جملة خصائص الإيمان الدينيّ كونه أمراً اختيارياً لا يفرض على الإنسان. ولو كان الإيمان عن إكراه أو بغير اختيار فمثل هذا الإيمان لا يكون مقبولا. ولذا يقول في ذيل الآية ٢٥٧ من سورة البقرة: ﴿ **لاَ إِكْرَاه فِي الدِّين** ﴾: الإكراه هو الإجبار والحمل على الفعل من غير رضى، فالإيمان الذي يتحقّق عن إجبار وإكراه لا يكون إيماناً كاملا ولا نافعا.

ويذكر العلّامة الطباطبائيّ أنّ الثواب والعقاب لمّا كانا أساساً للأمر والنهي في الدين فلا بدّ من أن يكونا مبنيَّيْن على الحريّة والاختيار لدى الإنسان، فلا يمكن ثواب ولا عقاب الإنسان المضطر والمكرَه لا في دائرة الدين ولا في دائرة الأحكام الاجتماعيّة والحقوقيّة، فبناء الإيمان الدينيّ على الاختيار والإرادة أمر حتميّ وضروريّ. ويذكر في ذيل الآيتين ٩٩ و١٠٠ من سورة يونس، الآتي: « الإيمان بالله عن اختيار والاهتداء إليه أمر من الأمور يحتاج في تحقّقه إلى سبب يخصّه، ولا يؤثّر هذا السبب ولا يتصرّف في الكون بإيجاد مسبّبه إلّا عن إذن من الله سبحانه ».

الإيمان والتقوى

يذكر العلامة في تعريفه للتقوى، الآتي: التقوى بمعنى الورع عن محارم الله واجتناب الذنوب. والتقوى وصف جميل يشقّ على الإنسان أن ينفيه عن نفسه ويعترف بفقده، وحقيقة التقوى ـ وهي التحرّز والتجنّب عن سخطه تعالى والتورّع عن محارمه ـ أمر معنويّ يرجع إلى القلوب، وهي النفوس، وليست هي الأعمال التي هي حركات وسكنات فإنّها مشتركة بين الطاعة والمعصية كالمسّ في النكاح والزنا، وإزهاق الروح في القتل قصاصاً أو ظلماً والصلاة المأتيّ بها قربة أو رياء وغير ذلك، ولا هي العناوين المنتزعة من الأفعال كالإحسان والطاعة ونحوهما. وذلك أنّ التقوى الدينيّة إنّما تحصل بالتبصّر في المناهي الإلهيّة

والورع عن محارمه بالتعقّل والتذكّر، وبعبارةٍ أخرى بالتزام الفطرة الإنسانيّة التي بني عليها الدين، وقد قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا / فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ (الشمس، ٨) وقد وعد الله المتّقين إن اتقوا يُمدُّهم بما يتضح به سبيلهم ويفرّق به بين الحقّ والباطل عندهم فقال: ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً** ﴾ (الطلاق، ٢) وقال: ﴿ **إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً** ﴾ (الأنفال، ٢٩).

والهداية الإلهيّة، كما يرى العلّامة هي بين نوعين من التقوى: الأوّل التقوى التي هي شرط لتقبّل الوحي والتقوى التي هي ثمرة قبول الهدى من الآيات الإلهيّة. والتقوى الأولى أمر بسيط ويحصل ابتداءً نتيجة التأمّل العقليّ، أو بسبب الفطرة الإنسانيّة. وهذه التقوى هي نوع من الخضوع والتسليم أمام الحقّ والغيب، وقد يتبعها العمل الصالح أحياناً. ولكنّ هذه التقوى الأوّليّة تقع في مسير تلقّي الوحي والوصول إلى الكمال وإلى مقام الرضا والتسليم المحض، أي تؤدّي بالإنسان إلى سعادته الحقيقيّة، وهي الحياة الطيّبة الأبديّة في جوار ربّ العزّة. وهذان الشرف والكرامة هما بتقوى الله سبحانه وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة، وتتبعها سعادة الدنيا، قال تعالى: ﴿ **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ (الأنفال، ٦٧)، وقال: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾ (البقرة، ١٩٧)، وإذا كانت الكرامة بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى.

كما يذكر العلّامة أنّ من مزايا الارتباط بين الإيمان والتقوى إيجاد المحبّة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدّاً** ﴾ (مريم، ٩٦)

الإيمان والأخلاق

لا بدَّ لنا أوّلاً من أن نتعرّض بالحديث لمكانة الأخلاق في فكر العلّامة الطباطبائيّ لكي نقف على العلاقة القائمة بين الإيمان والأخلاق. فقد تعرّض العلّامة لمسألة الأخلاق من جهات متعدّدة. أمّا من جهة علم المعرفة الأخلاقيّ فيعتبر العلّامة أنّ الأخلاق هي مجموعة من المفاهيم الاعتباريّة العمليّة والقضايا المؤلّفة من هذه المفاهيم، وبعبارة أكثر دقّة، الأخلاق من الإدراكات الاعتباريّة بالمعنى الأخصّ أو

الاعتبارات العمليّة.

وأمّا من ناحية علم الوجود فالأخلاق هي: حفظ النظام الإنسانيّ عن طريق المعاني الوهميّة والأمور الاعتباريّة التي هي في الظاهر نظام اعتباريّ، وفي الباطن ما وراء هذا النظام الطبيعيّ. فالإنسان، بحسب الظاهر، يعيش في ظلِّ نظامٍ اعتباريّ، ولكنّه في الحقيقة وبحسب الباطن، يعيش في نظامٍ طبيعيّ.

فالنظام الأخلاقيّ لدى العلّامة الطباطبائيّ هو نوع عال من مراتب الوجود له عينيّة وتحقّق.

وأمّا الأخلاق، بلحاظ علم النفس، فلها ارتباط بفطريّة الأمور الأخلاقيّة أو الحسّ الأخلاقيّ، وكذلك ترتبط بالخلقيّات أو الملكات النفسانيّة. ويرى العلّامة الطباطبائيّ أن محور التقوى والأمور الأخلاقيّة (سواء أكانت إيجابيّة أو سلبيّة) قد أُلهمت للإنسان طبقاً للآية الثامنة من سورة الشمس، وهذا من خصائص الخلْقة الإنسانيّة. ففي الإنسان فطرة تدعوه إلى القيام بالأعمال التي تتناسب مع سعادته. وهذه الدعوة ترجع إلى ما ينبغي وما لا ينبغي المودَعة في داخل الإنسان. ويذكر العلّامة في ذلك أنّ الخُلق موجود داخل الإنسان بصورة إدراك، وهو يدعو الإنسان إلى الإرادة والعمل في المواطن اللّازمة.

وأمّا الأخلاق بلحاظ علم الاجتماع فيرى العلّامة أنّها تؤثّر في المجتمع ويقول: القوانين العمليّة في المجتمع تدور في فلك الأخلاق؛ لأنّ الأخلاق تقوم بدورها بشكل ظاهر وخفيّ، وهي أهمّ من الشرطي المراقب أو من أيّ قوّةٍ أخرى تسعى لحفظ النظام.

وأمّا فيما يرتبط بعلاقة الإيمان بالأخلاق وبعد أن استعرضنا رأي العلامة في مسألة الأخلاق بمختلف جوانبها، فلا بدّ لنا أوّلاً من أن نتعرّض لعلاقة الإيمان بالأخلاق من زواية نظريّة المعرفة. إنّ من المعروف أنّ الدين والأخلاق يشتملان على مجموعة من المفاهيم التي هي من قبيل ما ينبغي وما لا ينبغي، وهذه المفاهيم قد حدّدها الله عزّ وجل للمؤمنين كاعتبارات عمليّة. وهذه المفاهيم، سواء في مجال الأخلاق أو الدين، نظرها إلى الوجوب أو عدم الوجوب خارجاً. والحسن والقبح في كلا المجالين نظرهما إلى ما فيه كمال الفرد أو النوع الإنسانيّ وسعادته. وبعبارة أكثر دقّة، إنّ

المفاهيم الإيمانيّة والأخلاقيّة وما ينبغي، وما لا ينبغي نظرها إلى علاقة العليّة والمعلوليّة بين حقيقتين. وبعبارةٍ أخرى هي تتوسّط بين حقيقتين. إنّ المفاهيم والقضايا الإيمانيّة إذا نظرنا إليها من حيث المتعلّق وما تهدف إليه فسوف نجد أنّ هذين النوعين من القضايا بينهما اتّحاد بل وحدة.

وثمّة ارتباط آخر بين الأخلاق والإيمان وهو الارتباط المنطقيّ. ولكي نتعرّف على هذا الارتباط المنطقيّ بين القضايا الإيمانيّة والقضايا الأخلاقيّة لا بدَّ لنا من استعراض رأي العلّامة فيما يرتبط بموضوع الإدراكات الحقيقيّة والاعتباريّة. فالتعاليم الدينيّة هي مجموعة من القضايا الحقيقيّة، وأمّا القضايا الأخلاقيّة فهي مجموعة من القضايا الاعتباريّة. ويرى العلّامة الطباطبائيّ أنّ العلاقة بين القضايا الاعتبارية والحقيقيّة ليست علاقة توليديّة، إي إنّ القضايا الحقيقيّة لا تؤدّي إلى قضايا اعتباريّة. فلا نصل من قضية نحو: (إنّ الله عادل) إلى قضيّة مثل: (يجب أن نعبد الله). ولذا لا بدّ من القول بأنّ العلاقة بين الإيمان والأخلاق من الناحية المنطقيّة ليست علاقة توليديّة.

والمستفاد من مجموع كلمات العلّامة حول العلاقة بين الإيمان والأخلاق من زواية البُعد الوجودي أنّ للوجود مراتب طوليّة وعرضية، وأنّ بين مراتب الوجود الطوليّة علاقة العليّة والمعلوليّة.

وأمّا علاقة الإيمان والأخلاق من زواية علم النفس فبيانها يتوقّف على معرفة علاقة الإيمان بالخلقيّات والملكات النفسانيّة، وههنا لا بدّ وأن نبحث عن الارتباط بين الحسّ الفطريّ والحس الأخلاقيّ.

يرى العلّامة الطباطبائيّ أنّ الاخلاق هي، من جهة، تقف عند حدود المعتقدات، ومن جهة أخرى ترتبط بالعمل والسلوك. فالإيمان ظاهرة لها أخلاقها الخاصّة. فالإيمان بأيِّ شيء يستتبعُ نوعاً مناسباً من الأخلاق. فالإنسان إذا امتلك إيماناً بشيءٍ لأيِّ سببٍ من الأسباب فلا بدّ من أن يتبعه خُلقٌ مناسبٌ لهذا الإيمان.

وعلى أساس هذا نصل إلى أنّ بين الإيمان وبين الخُلُقيّات والملكات النفسانيّة للإنسان نوعاً من الارتباط العلّيّ المعلوليّ. فالإيمان له دوره في ظهور الخُلقيّات الإنسانيّ وهذا الدور هو بصورة العلّة الناقصة. وبكلمة أخرى؛ لا بدّ من القول بأنّ

الأخلاق هي ضمانة الإيمان وأنّ الإيمان هو دعامة للأخلاق. ويذكر العلّامة: أنّ الأخلاق الفاضلة إذا أريد لها أن تكون ثابتة ومستمرّة فلا بدّ لها من ضامن يحفظها، وليس هو سوى التوحيد. ومن الواضح أنّه لولا الاعتقاد بالمعاد لدى الناس فلن يوجد ما يمكنه أن يحول بين الناس وبين اتّباع الهوى واتّباع الملاذّ الطبيعيّة.

ومن جهةٍ أخرى، ما يحفظ الإيمان هو الأخلاق الكريمة، وبقاء الإيمان ورسوخه وثباته رهينة بالأخلاق. يقول العلّامة: «التوحيد لا يسعد القانون إلّا بإيمان تحفظه الأخلاق الكريمة، والأخلاق الكريمة لا تتمّ إلّا بالتوحيد، فالتوحيد هو الأصل الذي عليه تنمو شجرة السعادة الإنسانيّة، وتتفرّع بالأخلاق الكريمة، وهذه الفروع هي التي تثمر ثمراتها الطيّبة في المجتمع.

وأمّا فيما يرتبط بعلاقة الإيمان بالأخلاق من زاوية علم النفس، بلحاظ علاقة الحسّ الفطريّ بالحسّ الأخلاقيّ، فيرى العلّامة أنّ الحسّ الأخلاقيّ هو من لوزام الحسّ الفطريّ وآثاره وهو متشعِّبٌ منه. وحيث يرى العلامة أنّ التوحيد وآثاره ولوازمه العمليّة أمر فطريّ، فإنّه ينظر إلى الارتباط بين الميلين. فالفطرة التوحيديّة تنتقل من الإجمال إلى التفصيل متى أدّت إلى الأخلاق والأعمال الدينيّة الخاصّة. وفي ذلك يقول: روح الإيمان تجري في الأخلاق الكريمة التي دعا إليها الإسلام، وكذلك روح الأخلاق تنتشر بالإيمان. فكافّة التعاليم الدينيّة، إذا نظرنا إليها بعين التحليل بدقّة، نجد أنّها ترجع جميعاً إلى التوحيد والإيمان بالله عزّ وجلّ، والتوحيد يتجلى بالأخلاق والأعمال، ولو ارتقت الأعمال والأخلاق من الدرجة الدنيا إلى العُليا فلن تكون سوى التوحيد والإيمان.

ومن العلائق الأخرى المتصوّرة بين الإيمان والأخلاق ما يرتبط ببعد علم الاجتماع. فالإيمان والأخلاق مرتبطان بالمجتمع الإنسانيّ من حيث تأثيرهما فيه. ويذكر العلّامة في هذا المجال الآتي: طبقاً لتعالم الإسلام، لا بدّ من أن تكون الأخلاق هي الهدف الأساس، ولا بدّ من أن تُبنى القوانين الاجتماعيّة على أساسها؛ لأنّ تجاهل الأخلاق الحسنة لأجل المصالح الماديّة سوف يؤدّي بالمجتمع ليصبح ماديّاً، ويفقد المجتمع عنصر المعنويّة، وهو

العنصر المميّز له من الحيوانات.

الإيمان والعلم

يفسّر العلّامة العلم بأنّه حضور مجرّدٍ لدى مجرَّدٍ آخر، أو حضور شيء لدى شيء آخر.

وحقيقة العلم هي الكشف عن عالم الخارج.

ويرى العلّامة أنّ ما أوصى به القرآن والإسلام في العلم وما بيّنه من أهميّته وما حثّ عليه من التفكّر والمعرفة لا تجد له مثيلاً في أيٍّ من الكتب السماويّة وفي أيٍّ من التعاليم سواء أكانت سماويّة أو غير سماوية (٥٤). وبالتعبير القرآني: ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ (الزمر، ٩)

وما هو مهمّ هنا يرجع إلى استعداد الفرد الإنسانيّ لإدراك الحقائق العلميّة والمعارف الحقيقيّة الدينيّة. ويرى العلّامة في تحليله لحقيقة العلم أنّه حقيقة كاشفة واضحة ومنزّهة عن القوّة والاستعداد، ويُثبت أنّ العلم نحو من الوجود، وهو من نوع الوجود المجرّد الذي لا يكون عرضةً للتبدّل والتغيُّر. ومع ذلك فإنّ قدرة الإدراك الإنسانيّ محدودة، ولا يملك الإنسان القدرة على التعرّف على كلِّ ما يريد.

والمسألة المهمة هنا هي أنّ العلّامة لا يرى أنّ الإيمان بالله يتحقّق بمجرّد العلم بأنّ الله حق؛ لأنّ مجرد العلم أو الإدراك أو الاطّلاع لا يعني الإيمان، بل قد يؤدّي إلى الاستكبار والإنكار. وقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً** ﴾ (النمل، ١٤). ولكنّا حيث كان الإيمان يتنافى مع الإنكار أمكننا استنتاج أنّ الإيمان ليس مجرّد الإدراك، بل هو عبارة عن قبولٍ خاصٍ من قِبَل النفس بما علمت به وأحاطت، هذا القبول الذي يدعو النفس إلى التسليم بمقتضى ذلك العلم والإدراك وبالآثار المترتِّبة عليه. وعليه لا بدّ للإنسان من أن يلتزم بما يقتضيه علمه أي بأن يعقد قلبه على ذلك. بمعنى أن تظهر عليه الآثار والنتائج العلميّة لعلمه، ولو كان ذلك في الجملة. فالإنسان المؤمن هو الذي يعتقد

بوجود الله أوّلاً ، ثمّ بوحدانيّته ، ويعمل بعد ذلك بلوازم علمه ، فبهذا يكون قد حقّق شرط العبوديّة عملاً . ويعتقد العلّامة أنّ المؤمن الحقيقيّ يملك حياة أخرى . وهذا الكلام ليس مجازيّاً بل يرى الطباطبائيّ أنّ للمؤمن حقيقة خارجيّة لها آثار لا تجدها في سائر الناس . فقد أودع الله عزّ وجلّ في الفرد المؤمن نوراً نتيجة إيمانه .

الإيمان وارتباطه بالشكّ واليقين

يعرّف العلامة اليقين بالآتي : « اليقين هو اشتداد الإدراك الذهني بحيث لا يقبل الزوال والوهن » ، نعم هذا هو التعريف المنطقيّ لليقين والمراد منه اليقين القائم على أساس البرهان والاستدلال . ويمكننا أن نستنتج من كلام العلامة هذا أنّ اليقين هو من سنخ المعرفة وهو أعلى مرحلةً من العلم . العلم الذي هو أرقى من الاطمئنان ، العلم الذي لا يدخله شكّ ولا شبهة . واليقينُ إدراكٌ مطابقٌ للواقع وهو ثابت لا يزول . ولعلّ عدداً محدوداً من الأفراد في كلّ زمان يوفّق للوصول إلى مثل هذه المرحلة . وهذه المرتبة هي مرتبة علم اليقين ، وهي المرتبة التي يصدّق الإنسان فيها بأمرٍ من خلال البرهان ويشاهده بعين القلب والبصيرة . نعم ثمّة مرتبةٌ أعلى من هذه أيضا وهي مرتبة حقّ اليقين ، وهي المرتبة التي يصل إليها من وصل إلى مقام الفناء في الحقّ . وقد قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ **كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ / ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ** ﴾ (التكاثر ، ٥ — ٧) .

نعم لا يرى العلّامة الطباطبائيّ أنّ الإيمان هو العلم واليقين ، بل هو عقد القلب والتصديق والاعتماد الذي يتحقّق في المراتب العليا من الإيمان ؛ أي درجة التقوى والإحسان حيث يصبح المؤمن في هذه الدرجة محسناً ومتّقياً . ويعتقد العلّامة وبالاستفادة من الآيات الكريمة أنّه حيث تكون الغفلة واردة كما في هذه الدنيا الفانية فإنّ لليقين فضيلته الخاصّة ؛ لأنّه بالموت يتحقّق اليقين العامّ والحصوليّ . وبعبارة أخرى ، يرى العلامة أنّ اليقين يتحقّق تارةً بالعلم الحصوليّ وأخرى بالعلم الحضوريّ ؛ ولكنّ غاية مراتب اليقين هي تلك التي

تكـون حضـوريّة وشـهوديّة. فـالموت حالـة يمكن التعبير عنها بـاليقين: ﴿ **وَكُنَّـا نُكَـذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّـى أَتَانَـا الْيَقِـينُ** ﴾ (المـدثر، ٤٧)، ففي الآخرة حيث تزول الحجب فـإنّ الجميـع يصـل إلـى اليقـين ولكنـّ علينـا أن نـبحث عمّـن يصـل إلـى اليقـين فـي هـذه الدنيا، كما قـال تعـالى فـي قصّـة إبـراهيم/: ﴿ **وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْض وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُـوقِنِينَ** ﴾ (الأنعـام، ٧٥). فإبراهيم خليل الله وصـل إلـى اليقـين حيث رأى كيفيّة إحـياء المـوتى، فـهو بمعونة من الله وصل إلى مرتبة أمكنه فيها مشـاهدة باطن العالم، بل وصل إلـى أعلـى مـن ذلـك حيث ضحّى بولـده. ولا شـكّ فـي أنّ مثـل هذا المقام الذي نالـه إبـراهيم مـلازمٌ لأعلـى مراتب الإيمان.

وعليه يمكـن القـول: أوّلاً، إنـّه لا يقـع التنافي على الإطلاق بين الإيمان واليقـين، فإبراهيم كان مؤمناً ثمّ أصبح موقناً. أي بـين الإيمـان واليقـين تـناغم تـامّ. فـلا يـذهب الإيمان متى تحقّق اليقين، بل في مثل هذه الحالـة يكـون نـور الإيمـان ممـاثلاً لمرتبـة اليقـين، فـهو كنـور القمـر أمـام الشـمس. وثانيـاً، إنّ اليقـين مـع الإيمـان أعلـى مـن الإيمان بلا يقين. وعن الإمام الصـادق عليه السلام: « الايمان أفضـل مـن الإسـلام، وإنّ اليقـين أفضل من الإيمان، وما من شـيء أعـزّ مـن اليقـين ». ثالثـاً، لا تـلازم بـين الإيمـان واليقين، فهـذا إبـراهيم كـان مؤمنـاً قبـل أن يـرى ملكـوت السـموات والأرض وقبـل أن يضـحّي بابنـه ولكنـه لـم يكـن موقنـاً؛ لأنّ الاطمئنـان واليقـين ملازمـان للإيمـان فـي أعلـى مراتبـه لا لمطلـق الإيمـان. رابعـاً، إنّ اليقـين لا يتـقدّم علـى الإيمـان، فـلا يلـزم الوصـول إلـى اليقـين بقضـية مـا ليتحقّـق الإيمان بها؛ بل اليقين متأخّر عـن الإيمـان. خامساً، لليقـين أسـبابه وعلله الخاصّـة بـه، وهو أمر غير اختياري، خلافـاً للإيمـان فإنّـه أمـر اخـتياريّ. وهـذه الخصوصـيّة لليقـين وردت في الآية ٣٢ من سورة الجاثية: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّـاعَةُ لاَ رَيْـبَ فِيهَـا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّـاً وَمَـا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** ﴾.

يبقـى أن نشـير إلـى أنّ العـلّامة

الطباطبائيّ وفي معرض حديثه عن أمراض القلب يُثبت بوضوح أنّ الإيمان لا يجتمع مع الشكّ أبداً. فالقلوب المريضة لا تكون صحيحة أبداً. فالصحّة والمرض أمران متقابلان. ولا يجتمع أمران متقابلان في شيء واحد. فمرض القلب يوجب التلبّس بنوع من الشكّ والشبهة الذي يُعمي عين الإنسان عن الإيمان بالله والاطمئنان بالآيات الإلهيّة. ولذا كان اختلاط الشَرْك بالإيمان من آثار مرض القلب. فمرض القلب في القرآن الكريم هو الشكّ والشبهة نفسُهما، فإذا تعلّقا بإدراك الإنسان منعا من عقد القلب بالله وبسائر المعتقدات الدينيّة. فالذين في قلوبهم مرض بحسب طبع المعنى هم ضعفاء الإيمان الذين يُصغون إلى كلِّ ناعق، ويميلون مع كلِّ ريح، فمرض القلب على حد الأمراض الجسمانيّة ربّما أخذ في الزيادة حتّى أزمن وانجرّ الأمر إلى الهلاك. وفي آيات أخرى كما في الآية ٣١ من سورة المدّثّر والآية ٦٠ من سورة الأحزاب ورد أنّ هذا المرض يوجب اختلال ثبات القلب واستقامة النفس.

والشكّ والريب من جملة هذه الأمراض التي توجب اضطراب الباطن وتزلزله، وإنّ كان ذلك مع المرتبة الدنيا من الإيمان. وعموم الناس وإن كانت تقع في مثل هذا الشكّ والترديد ولكن لا شكَّ في أنّ المراتب العليا من الإيمان لا تجتمع مع هذا الشكّ بل هو في حكم الشّرْك. وقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾ (يوسف، ١٠٦). ويقول أيضا: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ (النساء، ٦٥).

ويعتقد العلامة أنّ اليقين الذي لا يكون أساساً راسخاً وسبباً للزهد هو من الشكّ، كما ورد: « لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكًّا إذا علمتم فاعملوا وإذا تيقنّتم فأقدموا ».

ويقسّم العلّامة الشكّ مستفيداً هذا التقسيم من آيات القرآن الكريم إلى قسمين: الشكّ العابر والابتدائيّ والشكّ المستقرّ. أمّا القسم الأوّل فهو نوع من وسوسة القلب والخطور القلبيّ، وعدم

الاطمئنان والتردّد والذي يجعل الحيرة في قلب المبتدئ، ولكنّ الشكّ المستقرّ هو التردّد الدائم والتزلزل الثابت. والشكّ المستقرّ نظريّة في علم المعرفة ترى الوصول إلى المعرفة أمراً غير ممكن. والشكّاك يعتقد أنّه لا يمكنه إقامة البرهان القاطع على أيِّ أمرٍ من الأمور النظريّة، بنحو يكون موجباً لإقناع كافّة العقلاء في كلّ زمان. فالمعرفة النظريّة لا يمكن إثباتها. فهل يمكن أن يكون الشكّاك مؤمناً؟ فهل يمكن أن تكون قضية ما تحت دائرة الشكّ المستقر ويتحقّق الإيمان بها؟ ويؤكّد العلّامة مراراً على التنافي بين الشكّ المستقرّ وبين الإيمان. فالشكّ نوع من الحالة الذهنيّة والنفسيّة الخاصّة يرى على أساسها الشكاك أنّ طرفَي القضيّة متساويان لا يرجح أحدهما على الآخر. فالشكّ يتنافى مع اليقين وهو من أقسام الجهل. فالشكّ والريب والتردّد أمور مترادفة. إنّ الإنسان عند شكّه في مقولةٍ ما يعيش حالة التردّد في صدقها أو كذبها. وهو بهذا لا يمكنه أنـ يصدّق بها أوّلاً. ولا يمكنه الاعتماد عليها ولا عقد القلب عليها ثانياً. ولذا لا يمكنه أنـ يدّعي أنّه على إيمان ويقين بها. وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنْ الْمُؤْمِنِينَ /وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ (سبأ، ٢٠ ـ ٢١). ويرى العلّامة أنّ هذه الآية جعلت الفريقين (من يؤمن بالآخرة)، و(من هو في شكّ منها) في مقابل بعضهما البعض. وبعبارةٍ أخرى الإيمان ينافي الشك. فلا يمكن الإيمان بشيء في عين شكّنا به. فالشكّ ينافي الإيمان ولا يتقدّم على الإيمان. وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿ **لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ /إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾ (التوبة، ٤٤ ـ ٤٥). فالآية وإن كانت تتعرّض للمتّقين (أصحاب الدرجة العليا من الإيمان) ولكنّها تبيّن لنا أموراً

ثلاثة إلى جانب بعضها البعض: ١ـ من لا يؤمن. ٢ـ القلوب المتردّدة. ٣ـ الترديد والريب. ولا شكّ في أنّ الآية ناظرة إلى الشكّ المستقرّ ولا يجتمع مع الإيمان. ويشير العلّامة لإثبات ذلك إلى آيات أخرى: ﴿ **وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ونس، ٣٧)، ﴿ **إِن السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (غافر، ٥٩).

علاقة الإيمان بالخشوع والسكينة

الخشوع من الصفات القلبيّة والتي تعني الخضوع. والإيمان الدينيّ يجعل القلب خاشعاً لله عزّ وجلّ، ويجعل النفس قابلة للهداية. فقلب المؤمن يعيش حالة الخشوع ببركة إيمانه، ويزيد سماعه لآيات الله من خشوعه وخضوعه.

ويرى العلّامة أنّ الإيمان لمّا كان ذا مراتب ودرجات فكذلك صفات القلب المترتّبة على هذا الإيمان ذات مراتب ودرجات. فالخشوع والخضوع التامّ هما من آثار المراتب العليا من الإيمان، ومن يعشْ المراتب الدنيا من الإيمان يعشْ القليل من الخشوع والخضوع. ولذا قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ** ﴾ (الحديد، ١٦).

والذي يظهر من هذه الآية أنّ خشوع قلب المؤمن عند سماعه لذكر الله ولآيات كتاب الله لا يتحقّق في المراتب الابتدائيّة من الإيمان؛ لأنّ هذه الآية تخاطب المؤمنين الذين لا يملكون مثل هذه الفضيلة وهي تحثّهم على الوصول إليها. وقد ورد في آية أخرى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ /الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ /وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ (المؤمنون، ٢ – ٣)

وأمّا السكينة فهي من السكون وهي خلاف الحركة، وهي أيضاً من الصفات القلبيّة وتعني استقرار القلب وطمأنينته، وعدم اضطراب الباطن. ومن أهمّ النتائج المترتّبة على الإيمان الدينيّ هو هذه السكينة في النفس. فالاستقرار الروحيّ والمعنويّ من خصائص المؤمن الحقيقيّ، وهو هبة إلهيّة تؤدّي إلى ازدياد الإيمان: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً**

حَكِيماً ﴾ (الفتح ، ٤)

ويرى العلّامة الطباطبائيّ واعتماداً منه على بعض الآيات الكريمة أنّ السكينة والطمأنينة العلميّة في النفس هي من نتائج الإيمان وآثاره ، والمقدّمة الموجبة لتحقّق ذلك هو الالتزام العمليّ بمقتضيات الإيمان . والإيمان به هو الأساس في طمأنينة القلب : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ (الرعد ، ٢٨)

ويعتقد العلّامة أوّلاً : أنّ السكينة والطمأنينة القلبيّة تتنزّل من عند الله : ﴿ **فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ** ﴾ (الفتح ١٨) . وثانياً : أنّها تتنزّل على قلوب المؤمنين ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ (الفتح ، ٤) ، وثالثاً ، أنّ لدى من تتنزّل عليهم السكينة من المؤمنين مرتبة من الإيمان قبل أن تتنزّل عليهم ، فالسكينة هي من نتائج المراتب العليا من الإيمان وليست بلازمةٍ لكافّة المراتب .

متعلّق الإيمان

ذكرنا سابقاً أنّ الإيمان ميل قلبي يقوم على أساس الطمأنينة وسكون النفس وهذا الإطمئنان يعتمد على اليقين . وأنّ اليقين قد يتحقّق بالعلم الحصوليّ أو الحضوريّ الشهوديّ . وعليه فمتعلّق الإيمان طبقاً لما يراه العلّامة أمر عينيّ حقيقيّ ولا بدّ أن يكون موصوفاً بالحقّانيّة .

ويعتقد العلّامة أنّ الفطرة السليمة الإنسانيّة تبحث عن حقيقةٍ واحدةٍ ومعبودٍ واحدٍ ، وإن وقع الاختلاف بين الناس في التعرّف على مصداق تلك الحقيقة . ويرى العلّامة أنّ مفردة اسم الجلالة (الله) هي من أرقى المفردات القرآنيّة وأنّ الاعتقاد بالله عزّ وجلّ متحقّق دائماً بين البشر . وهذا هو دليل كون معرفة الله وعبادته أمراً في الفطرة الإنسانيّة . كما أنّ الإنسان في فطرته يعيش الخضوع والخشوع أمام الحقّ والغيب . وهذه هي خصوصيّة المؤمنين التي تجعلهم يمتازون من غيرهم من البشر ، والتي تجعلهم يرتبطون بخالقهم برباط وثيق .

النتيجة

يتعرّض العلّامة لمسألة الإيمان في ضوء الآيات القرآنيّة ؛ لأنّ القرآن الكريم هو الأساس في بناء الفكر الإسلاميّ ، ولا

تماميّة لأيّ دراسة دينيّة وإيمانيّة إن لم تعتمد على القرآن.

يرى العلّامة الطباطبائيّ أنّ الإيمان من مقولة الأفعال. وهو فعل قلبيّ يعود في جذره للفطرة الإنسانيّة. ويرى أنّ الإيمان الدينيّ له خصائصه كالاختيار، قابليّة التعليم... والزيادة والنقيصة. وأنّ حقيقته ترجع إلى نوعٍ من الكشف والشهود. والإيمان ماهيّة تشكيكيّة ذات مراتب. بمعنى أنّ الإنسان في كلِّ مرحلةٍ من حياته يمكنه أن يصل إلى درجةٍ من الإيمان.

ويرى العلّامة أنّ بين الإيمان والعناصر الأخرى كالإسلام، العلم، العمل، التقوى، الأخلاق، الاختيار، اليقين، العقل، الخشوع والاطمئنان رابطة وثيقة ومتينة. وأنّ المؤمن الذي يجمع هذه العناصر هو على درجةٍ عاليةٍ من الإيمان، وبها يصل إلى درجة المخلصين. والتعاليم الدينيّة والإيمانيّة يمكن بحثها باعتماد منهج داخل الدين أي أنفسيّ. وأنّ الإنسان يمكنه بالاعتماد على عقله ومن خلال الاستفادة من عنصر الواقعيّة يمكنه أن يزيد من إيمانه الدينيّ.

آية الله السيد منير الخباز
أستاذ الدراسات العليا/ قم المقدّسة

إثبات ظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وغيبته

ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي، وقد أنبأني اللطيف الخبير بأنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفونني فيهما»[1]، صدق الرسول الكريم.

إن حديث الثقلين يدل على قضية الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه باعتبار أن حديث الثقلين يصرح بأنّ العترة والكتاب لا يتفارقان أبداً إلى يوم القيامة: «وقد أنبأني اللطيف الخبير بأنهما لن يفترقا»، يعني القرآن وأهل البيت، «حتّى يردا عليّ الحوض»، القرآن لا يفترق عن أهل البيت وأهل البيت لا يفترقون عن القرآن إلى يوم القيامة.

وهذا معناه أنه في كل زمان يوجد القرآن لابد من وجود رجل من أهل البيت في ذلك الزمان مع القرآن الكريم.

الحديث عن الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف من خلال حديث الثقلين يتمّ في ثلاث نقاط:

الأولى: ظهوره وغيبته:

ذكرنا في عدة ليالٍ سابقة أن مسألة ظهور الإمام أمر مسلَّم به بين جميع المسلمين، لا أحد ينكر أن هناك إماماً يظهر آخر الزمان يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، هذا لا ينكره أحد من المسلمين، فجميع المسلمين شيعةً وسنة يسلمون أن آخر الزمان يظهر إمام يملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

وهذا ليس فيه خلاف، وذلك لدلالة القرآن والحديث النبوي على ذلك:

القرآن الكريم يقول: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[٢].

يعني لابد أن يظهر الدين الإسلامي على جميع الأديان في يوم من الأيام ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ لابد في يوم من الأيام تمتد الدعوة الإسلامية ويمتد النداء الإسلامي إلى جميع أرجاء الأرض وتظهر راية الإسلام خفاقة على جميع الرايات.

﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ** ﴾[٣].

يعني يرثون الأرض، أي أنهم آخر من يحكم الأرض، هذا معنى الوارثين، والمستضعفون هم المسلمون طبعاً، المسلمون هم الوارثون.

إذن لابد من دولة إسلامية تعم أرجاء الأرض في آخر الزمان، حسب صريح القرآن الكريم، وهذا أمر مسلم به ليس فيه شك.

كذلك ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنه قال ـ في مستدرك الصحيحين ـ: « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً، فيخرج رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً »[٤].

وفي كنز العمال: « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من أهل بيتي من ولد فاطمة فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[٥].

كذلك أيضاً ينقل ابن حجر وذخائر العقبى عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه ضرب بيده على كتف الحسين عليه السلام وقال: « من ظهر هذا، أو من صلب هذا، أو من ولد هذا ـ حسب اختلاف الروايات ـ مهدي هذه الأمّة يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[٦].

مسألة ظهوره ليس فيها نقاش، إنّما

الكلام في غيبة الإمام فإنّ الشيعة الإمامية تعتقد أنّ الإمام ولد وهو غائب ويخرج يوماً من الأيّام إذا أذن الله له بالخروج، وغيرهم من المسلمين يقولون: الإمام إلى الآن لم يولد وأنّه يولد آخر الزمان ويخرج، فالخلاف في هذه النقطة، في الغيبة، هل أنه يولد آخر الزمان ويخرج، أيّ هل أنه ولد وهو غائب، أم لا؟ نحن الشيعة الأمامية نقول: نعم ولد وهو غائب، لماذا؟

أولاً: الدليل التأريخي ساعدنا، يعني أنت عندما تقرأ الآن كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان[٧]، أو تقرأ كتاب مطالب السؤول لمحمد بن طلحة الشافعي أو مثلاً تذكرة خواص الأمة لسبط ابن الجوزي، كلهم ينصون على أن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنجب ولداً اسمه محمد، ولد وغاب عن الأنظار، ويذكر صاحب وفيات الأعيان وغيره: وهو حي يرزق، وهذه كتب أهل السنّة تنص تأريخياً على اسمه محمّد ابن الإمام الحسن العسكري ولد وغاب، وهذه كتب تأريخيّة تنصّ على ذلك.

ثانياً: من جانب آخر الأحاديث تؤيّد وجود الإمام، فقد ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويقوم فيكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»[٨]، وقلنا: إنّ هذا الحديث يدلّ على أنّ الأئمّة متواصلين إلى يوم القيامة بمعنى أنّه لا تمر فترة على الأمّة الإسلامية بدون إمام، فإن هذا مستحيل: «لا يزال الدين قائماً ـ كما رواه البخاري ـ حتى تقوم الساعة ويكون فيكم اثنا عشر أميراً أو اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش»، فلا تأتي فترة على الأمّة أو زمان على الأمّة الإسلاميّة خالية من وجود الإمام.. مستحيل!!

وهذا ما أكّده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في حديث آخر، كما رواه صحيح مسلم: «من لم يعرف إمام زمانه ومات مات ميتة جاهلية».[٩]

لكلّ زمان إمام، كلّ زمان يمرّ على الأمّة الإسلاميّة يوجد فيه إمام، أنت تسأل أيّ أحد مسلم قل له: من إمامك الذي هو إمام هذا الزمان؟ هل يوجد أحد يجرؤ ويتجاسر ويدّعي أنّه إمام الزمان؟ لا يوجد أحد يقول: أنا إمام الزمان، شرقاً وغرباً لا يمكن أن تنسب هذه الدعوى إلا للإمام المهدي عجل الله فرجه.

الحديث يؤكّد وجود إمام للزمان كلّه، ولا يوجد مسلم معد ومهيأ لأن يدعي هذه الدعوى إلا الإمام المهدي عجل الله فرجه.

نأتي إلى حديث الثقلين الذي ذكرناه: «وقد أنبأني اللطيف الخبير بأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، إذن لابد لكلّ زمان من إمام والإمام باقٍ إلى يوم خروجه.

والدليل التأريخي ـ كما ذكرنا ـ ساعدنا أن هذا الإمام الغائب، هذا الإمام الموجود هو محمّد بن الحسن المهدي عجل الله فرجه.

ومسألة استبعاد غيبة الإمام بأنّه كيف يغيب هذه المئات من السنين، ويعيش هذه المئات من السنين؟ فهذه المسألة واضحة الدفع بعيسى بن مريم، فإنّ جميع المسلمين يقرون أن عيسى بن مريم لم يمت مازال حياً: ﴿**وما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ**﴾[10] وفي آية أخرى ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾[11] وما زال حياً ويظهر آخر الزمان، ونحن طبعاً بحسب روايات الشيعة نؤكّد أن عيسى بن مريم يأتم بالإمام المنتظر عجل الله فرجه ويصلي خلف الإمام في بيت المقدس.

إذا كان يمكن أن يبقى عيسى بن مريم متمتعاً بصحة وعافية هذه السنين، وهذه المئات من السنين، فأي مانع يمنع من بقاء الإمام المنتظر هذه المئات من السنين بصحة وعافية مهيأ لذلك اليوم العظيم، وهو يوم خروجه؟

إذا صح ذلك في عيسى بن مريم صح في الإمام المنتظر ولا يوجد مانع.

الثانية: دوافع الغيبة:

لماذا الإمام غائب؟ لماذا لا يظهر؟ نفترض أن الإمام ولد والآن غائب، البشريّة بلا شك تحتاج إلى وجود إمام معصوم يبلغ الأحكام الواقعيّة ويقيم العدل ويقيم القسط ويرشد الأمّة الإسلاميّة إلى خيرها.

الأمّة الإسلاميّة بحاجة ماسة إلى وجود الإمام، فلماذا لا يظهر الإمام؟ لماذا الإمام ما زال غائباً ولا يظهر؟ ما هو الدافع وما هو الداعي لغيبته وعدم ظهوره؟ الآن هذا سؤال يطرحه الكثير من الأُخوة السنّة وغيرهم.

نحن نذكر هنا جوابين أو وجهين:

الوجه الأول: ما طرحه علماؤنا من أن البشرية لابد أن تمر بتجربة مريرة تتهيأ فيها لدولة الإمام عليه السلام، كيف تتهيأ لدولة الإمام؟ خروج الإمام في هذه الظروف غير نافع، يعني لا توجد له الأرضية المهيأة للدولة الآن.

فمثلاً علماؤنا يقولون بأن الزمن والظروف

التي عاش فيها الإمام علي عليه السلام ما كانت تتحمل دولة الإمام علي، أي أنّ دولة الإمام علي كانت أكبر من الظروف التي عاشتها، فإنّ العقلية والتجربة البشرية آنذاك ما كانت في مستوى وعي حكم الإمام علي عليه السلام وما كانت في مستوى إدراك حكم الإمام علي عليه السلام وبالتالي لم يستقر حكم الإمام علي أكثر من خمس سنوات وكلها حروب ودماء واختلافات واضطرابات بين المسلمين، نتيجة أن التجربة البشرية ما كانت في مستوى حكم الإمام عليه السلام.

طبعاً، صحيح أن الإمام نصبه الرسول صلى الله عليه وآله خليفة على المسلمين لكن لما أُبعدت الخلافة عنه خمساً وعشرين سنة جعلت الظروف غير مهيأة، وجعلت الظروف ليست في مستوى حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

نقول الآن: إذا الإمام المنتظر يريد أن يقيم الدولة العادلة والدولة العامة الشاملة على أرجاء الأرض، ألا يحتاج إلى أرضية مهيأة؟ الجواب: نعم بلا إشكال.

إذا كان الإمام يريد أن يقيم الدولة الإسلامية العامة على جميع بقاع الأرض ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[١٢] إقامة الدولة الإسلامية العامة تحتاج إلى أن البشر يستقبلون الإسلام، تحتاج إلى أن البشر يكونون مهيئين نفسياً وذهنياً لقبول الإسلام ولاعتناق الإسلام ولتلقي الإسلام، ولأن يكونوا عوناً للإسلام.

فالإمام وإن كان يحارب المرتدين ويحارب الكافرين ويحارب الظالمين، لكن لا يفني البشر كلهم، بل لابد من وجود أرضية بشرية مهيأة نفسياً وثقافياً لدولة الإمام المنتظر عجل الله فرجه.

وهذا كيف يتم؟ طبعاً يتم بأن البشرية تعيش التجربة المرّة وتمر البشرية بتجربة مرّة، فتجرب سائر الأنظمة وسائر الحضارات وسائر القوى وسائر الأجهزة إلى أن تيأس البشرية من كثرة المشاكل الاقتصادية ومن كثرة الحروب ومن كثرة الفتن ومن كثرة الويلات التي تمر بها، إلى أن تتهيأ نفسياً بكل انتظار وبكل شوق وبكل إلحاح إلى أن الخلاص الوحيد والعلاج الوحيد لها كلها هو الإسلام، وتؤمن البشرية وقد جربت أنظمة مختلفة من رأسمالية وشيوعية واشتراكية وأنظمة أخرى وحضارات مختلفة وحضارات

متباينة، نعم وأجهزة مختلفة ومتعددة، وترى فشل الجميع وعدم كفائتها.

وطبعاً تزداد المشاكل البشرية يوماً بعد يوم، تزداد نسب المجاعة ونسب الفقر ونسب الحروب ونسب الفتن ونسب القلاقل ونسب الاضطرابات يوماً بعد يوم، إلى أن تصل البشرية إلى أن لا مخلص إلاّ الإسلام ولا علاج إلا الإسلام ولا حلّ إلا الإسلام ولا كافل لسائر المشاكل إلا الإسلام.

إذا تهيأت البشرية إلى الإسلام وإلى نظام الإسلام كحل وكعلاج كان ظرفاً مهيأً ومناسباً لخروج الإمام ﷺ فيخرج والبشرية تحت رايته لأنها راية الإسلام الذي هو الحل الوحيد لسائر المشاكل المادية والاقتصادية والأمنية.

وهذا ما تؤكد عليه النصوص التي تذكر أنه يخرج بعد ما ملئت الأرض ظلماً وجوراً، والرسول لا يكذب، وهذا ليس معناه أن كل بقعة بقعة ستمتلئ ولكن أغلب بقاع العالم هكذا «تملأ الأرض ظلماً وجوراً فيخرج رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً».

فلابد للبشرية أن تخوض هذه التجربة المريرة التي تهيئها لقبول دولة الإمام ولقبول صوت الإمام سلام الله عليه.

الوجه الثاني: السيد محمد باقر الصدر ﷺ يذكر أن غيبة الإمام نافعة حتى للإمام نفسه، فضلاً عن البشرية، والرأي يختص به لا يطرحه غيره من العلماء.

يقول: كل دور يحتاج إلى كفاءة مناسبة للدور، فمثلاً موسى بن عمران متى بُعث رسولاً؟ لما بلغ أربعين سنة والقرآن الكريم يقول: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى** ﴾[١٣] يعني أصبح عقله ناضجاً وخبرته ناضجة ورجولته كاملة.. ﴿ **آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً** ﴾ الدور كان يحتاج إلى هذا النوع من الكفاءة، يعني ما كان يمكن لموسى بن عمران أن يقوم بدوره كرسول إلا بعد هذا السن وبعد هذه التجربة.[١٤]

نأتي إلى النبي الأعظم ﷺ بعث وعمره أربعون سنة، هو نبي منذ ولادته، وقد ورد عنه ﷺ كما في كتاب تفسير الرازي: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين».[١٥]

الله تبارك وتعالى خلق النبي نوراً قبل أن يخلق آدم وأعطاه النبوة قبل أن يخلق آدم، نور يجتبى بالنبوة والعصمة والطهارة قبل

خلق آدم.

ولقد ورد عنه ﷺ: «إن الله خلق نوري ونور علي قبل أن يخلق آدم بألفي عام»[١٦]، كما ورد عنه ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[١٧].

إذن هو نبي منذ ولادته، فلماذا لم يبعث إلا وعمره أربعين سنة؟ لأنه ما بعث بالدعوة وإن كان نبياً إلا بعد أربعين سنة، والتجربة الإسلامية تقتضي تهيئته كقائد تنقاد له النفوس وتذعن له القلوب وتلتف حول رايته وتؤمن بخبرته وتؤمن بنضجه وتؤمن بفكره، ويحتاج إلى أن يمر بهذا السن، ويحتاج إلى أن يمر بهذه التجربة، ويحتاج إلى أن يمر بهذا الحد المعين فيتهيأ لقيادة الأمة آنذاك، فالدور يحتاج إلى هذا الاستعداد.

بالنسبة للإمام المنتظر، السيد الصدر ـ وهذا رأي يختص به ولعله غريب على الناس ـ يقول: إنّ الدور الذي يقوم به الإمام المنتظر ليس دوراً عادياً، لم يقم به نبي ولا رسول، إقامة دولة إسلامية على جميع بقاع الأرض، هذا الدور الذي هو إقامة دولة إسلامية على جميع بقاع الأرض، وكما في بعض الروايات تستمر هذه الدولة أربعين سنة[١٨]، إقامة دولة على جميع بقاع الأرض ولمدة أربعين سنة دور عملاق ما قام به أحد قبله لا من الأنبياء ولا من الرسل ولا من الأوصياء.

إذن يحتاج هذا الدور إلى كفاءة تتناسب مع الدور نفسه، فإنّ ضخامة الدور تقتضي ضخامة الكفاءة وضخامة الاستعداد، كلما كان الدور عظيماً احتاج إلى عظمة في الكفاءة أكثر، وكلما كان الدور أكبر احتاج إلى كفاءات أكبر واستعدادات أكبر، والإمام المنتظر يقوم بدور ما قام به أحد، وهو إقامة دولة إسلامية عامة على جميع بقاع الأرض، وهذا يحتاج إلى إعداد وخبرة تتناسب مع الدور تماماً.

وهذا يحتاج إلى شخص عاصر جميع الحضارات وعاصر جميع المجتمعات وعاصر جميع الأنظمة وعاصر جميع الدول، لأنه إذا عاصر جميع المجتمعات تعرف على جميع الأهواء وعلى جميع الشهوات وعلى جميع أنواع الميول وإذا عاصر جميع الأنظمة تعرف على نقاط الضعف ونقاط القوة في كل نظام، وإذا عاصر جميع الحضارات تعرف على عوامل البقاء وعوامل الفناء في كل حضارة معاصرة، فجميع الحضارات معاصرة وجميع الأنظمة معاصرة وجميع المجتمعات

معاصرة، وجميع الأزمنة التي تمر على البشرية تكسب هذا الشخص الذي يعاصرها قدراً كاملاً في الخبرة بما تحتاج إليه الدولة الإسلامية العامة على جميع وجه الأرض.

جميع نقاط الضعف والقوة في المجتمعات وفي الحضارات وفي الأنظمة وفي أجهزة الحكم حاصلة لديه، لأنه عاصر الجميع وجرّب الجميع فوصل إلى الإعداد الكافي للقيام بدوره كقائد عام وكقائد لدولة إسلامية عامة.

طبعاً يأتي الإنسان هنا يتساءل: هل الإمام قبلاً لا يعرف؟ وهل هو قابل للتعلم؟ أي أنه كلما عاش يتعلم أكثر، هل الإمام هكذا!! صحيح الإنسان البشر العادي كلما يعيش يزداد معرفة وخبرة وينضج ويتكامل، لكن كإمام معصوم هل الإمام كذلك؟! يعني يحتاج إلى أن يعيش فترة طويلة من الزمن يكتسب فيها خبرات ومعارف وثقافات؟ هل الإمام المعصوم كذلك؟

السيد الصدر يجيب عن هذا السؤال يقول: عندنا فرق بين العلم وبين الخبرة، العلم أمر نظري والخبرة أمر تطبيقي، والأمر التطبيقي يحتاج إليه الإمام كأي إنسان آخر، فمثلاً الطبيب عنده معلومات نظرية بحتة، فإنه عندما يبدأ يفتح عيادة ويعالج المرضى تلك المعلومات النظرية تظهر للوجود فيبدأ يطبقها أثناء عيادته وأثناء علاجه، هذا الطبيب بعد تطبيقه للمعلومات الطبية النظرية ماذا يحصل؟ يحصل على أنه كان عنده علم نظري والآن تحول إلى خبرة، وفرق بين الخبرة والعلم النظري، هذا كان منذ دراسته إلى أن انتهى إلى مستوى معين يحمل معلومات نظرية، الآن عندما بدأ بتطبيقها تحول إلى خبرة فالخبرة غير المعلومات النظرية.

مثال أوضح: النبي الأعظم ﷺ، انظر هذه الآية من القرآن الكريم ـ وهذه الآية كثير من اخواننا أهل السنة يركزون عليها ـ القرآن الكريم يقول في حق النبي ﷺ: ﴿ **وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلاَ الإِيمانُ** ﴾[١٩] فأهل السنة يقولون: انظروا النبي قبل البعثة ما كان يعلم شيئاً، لأن الآية تقول: ﴿ **ما كُنْتَ تَدْرِي** ... ﴾.

يعني قبل الوحي أنت لا تعلم شيئاً حتى الإيمان ما كنت تدري ما هو، فكان النبي مثل الناس، ﴿ **مَا الْكِتابُ** ﴾ يعني من قبل نزول القرآن، ولكنه سبحانه وتعالى يقول في

مورد أخر: ﴿ **وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾[٢٠] إذا كانت تلك الآية تقول: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ما هو معنى هذه الآية؟

فهذا هو الذي نركز عليه، وهو الفرق بين الدراية النظرية والدراية التطبيقية، الدراية التطبيقية، الدراية التفصيلية، والنبي الأعظم ﷺ قبل البعثة يدري بتمام الأمور ولكن دراية نظرية ودراية علمية، وبعد البعثة ما درى به مجال التطبيق، خاض حروباً وخاض غزوات وطبق دولة إسلامية وعاصر منافقين وعاصر اليهود وعاصر المسيحيين، جادلهم وناقشهم، وهذا النوع من التجربة التي مر بها النبي ﷺ ثلاث وعشرين سنة ويطبق ما درى، يطبق المعلومات النظرية خلال ثلاث وعشرين سنة.

يقول صاحب الميزان هذه الثلاث والعشرين دراية تفصيلية، يقول له: أنت قبل نزول الوحي وقبل نزول الكتاب لم تكن عندك دراية تفصيلية، دراية تطبيقية ثم أعطيناك هذه الدراية التفصيلية ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان.[٢١]

نحن نؤمن بأن الإمام المعصوم منذ ولادته يعلم ويدري سائر الأمور التي تحتاجها الدولة الإسلامية العامة وما تحتاج إليه المجتمعات وما تحتاج إليه الحضارات والأجهزة المختلفة، كان يعلم بذلك لكنه علم نظري.

لكن معاصرة الإمام بالفعل، فعلاً الإمام يعيش ١٤٠٠ سنة تقريباً يعاصر الحضارات بنفسه ويكتشف الأنظمة بنفسه ويعاصر المجتمعات بنفسه، هذا النوع من التجربة التي يمر بها أثناء غيبته، تحوّل ذلك العلم النظري إلى خبرة تطبيقية، وهذه الخبرة التطبيقية تساعد على إقامة النظام الإسلامي العام على وجه الأرض.

وتوجد عندنا روايات تؤيد هذا، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في الكافي: «لولا أننا نزداد كل جمعة لنفذ ما عندنا»[٢٢] الإمام يتكامل ويمر بمراحل تكاملية، تزداد علومه ومعارفه.

إذن السيد رحمه الله يقرر أن الغيبة ضرورية حتى للإمام وليست ضرورية فقط لنا وللعالم، حتى يتم الإعداد الكافي المناسب للدور الذي يقوم به، وهو دور إقامة لحكم الإسلامي العام على جميع وجه الأرض.

وطبعاً إنّا ندرك أن هذا الرأي أوّلاً خاص

بالسيد الصدر، وبعض العلماء يختلف معه ويرى أن الإمام المعصوم لا يحتاج إلى هذه الخبرة ولا يحتاج إلى هذه التجربة لأنه قادر على تطبيق النظام في أي ظرف وفي أي وقت وهو في غير حاجة إلى الخبرة وغير حاجة إلى أن يمر بهذه التجربة. هذا اختلاف في الآراء.

هذا بالنسبة إلى النقطة الثانية، مسألة غيبة الإمام المنتظر ودوافع الغيبة.

الثالثة: التفاعل بين المسلمين وبين إمامهم الغائب: كيف نتفاعل مع الإمام وهو غائب؟ إذا كان غائباً عن أنظارنا كيف نتفاعل معه ونستفيد من أنواره ونستفيد من وجوده ﷺ وهو غائب؟

التفاعل مع الإمام بعدة أمور: الأولى: الإحساس برقابته نحن عندنا روايات تدل على أن الأعمال تعرض على الإمام، فالإمام الصادق عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾[٢٣] قال الإمام: المؤمنون هم الأئمة من آل محمد ﷺ، وإن أعمالكم كانت تعرض على رسول الله ﷺ وعلى الإمام من بعده.[٢٤]

وفي رواية أخرى عن سماعة بن مهران يقول الإمام عليه السلام: ما لكم تسوؤون رسول الله ﷺ؟ قلت: كيف سيدي؟ قال: إن أعمالكم لتعرض عليه فإذا رأى سيئة ساءه ذلك.[٢٥]

المؤمن طبعاً يشعر برقابة الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾[٢٦] ﴿ **يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾، لكن إذا زاد إحساسي برقابة الله يزداد إحساسي برقابة الإمام أيضاً، طبعاً يزداد خوفي ويزداد خشوعي ويزداد بُعدي ونفوري عن الذنب والرذيلة، إذا شعرنا بأن الإمام يرانا ويراقبنا وتعرض عليه أعمالنا وتعرض عليه سيئاتنا ورذائلنا زاد إحساسنا بالرقابة، وزاد بعدنا عن الذنب وبعدنا واجتنابنا للرذيلة.

فإذن التفاعل مع الإمام ﷺ وهو غائب بالشعور بغيبته والإحساس برقابته ﷺ.

الثاني: التسديد والتأييد

كلنا نعتقد أن الإمام يسدد الشيعة وإن كان غائباً، ولولا تسديده وتأييده لانقرض التشيع من زمن طويل، فالتشيع منذ زمن السلطة الأموية وزمن السلطة العباسية تيار مبغوض محارب معارض من جميع ألوان

المعارضة والمحاربة، وبقى التشيع مستمراً وامتد وكثر ونمى، يحمل علماء ومفكرين ومثقفين على مدى التأريخ وعلى مدى الأيام، نتيجة تسديد الإمام وتأييد الإمام عليه السلام.

وإذا الإمام يكتب إلى الشيخ المفيد: «إنا لنحضر أفراحكم وأتراحكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم ولولانا لاصطلمتكم اللأواء وألمت بكم الأعداء».[٢٧]

دعاء الإمام، بركات الإمام، تسديد الإمام، هو الذي يحفظ التشيع على وجه الأرض.

فنحن هذه البركات التي نراها والامتداد الشيعي المستمر على وجه الأرض نعزوه لوجود الإمام وخير الإمام وبركة الإمام عجل الله فرجه.

الثالث: رؤية الإمام: كيف يرى الإنسان الإمام؟ طبعاً نحن عندنا رواية تنفي رؤية الإمام عليه السلام.

الإمام كتب إلى علي بن محمد السمري ـ آخر السفراء ـ يا علي بن محمد السمري عظم الله أجور اخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام، ولا تعهد لأحد من بعدك فقد وقع البلاء والغيبة التامة، ولا ظهور إلا بإذن الله، وذلك بعد قسوة القلوب وطول الأمد، وسيأتي قوم من شيعتنا يدعون مشاهدتنا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني وقبل الصيحة فهو كاذب مفتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.[٢٨]

كيف نوفق بين هذه الرواية وبين ما علم من رؤية كثير من العلماء ورؤية كثير من الصلحاء ورؤية كثير من الأبرار للإمام المنتظر عجل الله فرجه؟

العلامة الحلي أحد أقطاب الشيعة الإمامية كان يدرس عند عالم من علماء السنة، هذا العالم كتب كتاباً للرد على الشيعة والتشيع، العلامة الحلي طلب هذا الكتاب من أستاذه ولم يوافق لأنه يعرف أن العلامة ذكي وقادر على الرد، فلم يعطه الكتاب، حاول معه العلامة أن يعطيه، قال: إذا كان كذلك أعطيك إياه ليلة واحدة فقط، أخذ العلامة الكتاب من أستاذه وصمم على أن يسهر تلك الليلة على الكتاب ويستنسخه بالكامل. ونام وهو يستنسخ الكتاب من شدة التعب لما نام رأى كأن رجلاً ماثلاً أمامه أخذ منه الكتاب قال له: أساعدك على نسخه، ولم يستيقظ العلامة إلا قريب الفجر، إلاّ

والكتاب منسوخ، فعلم العلامة أنه الإمام الحجة عجل الله فرجه.[٢٩]

أيضاً السيد بحر العلوم عندما سئل قيل له: الإمام يقول: من ادعى المشاهدة فهو كاذب مفتر، وأنت كما يقولون عنك رأيت الإمام، كيف نوفق بين رؤيتك وكلام الإمام؟ قال: ماذا أقول وقد ضمني إلى صدره؟! وكثير من القصص التي تذكر للإمام عجل الله فرجه.[٣٠]

نحن نقول: المقصود بهذا الحديث «من ادعى المشاهدة فهو كاذب مفتر» يعني من ادعى السفارة والنيابة، الإمام يقول: بعد علي بن محمد السمري لا توجد سفارة، أما رؤية الإمام والتشرف بمحضره الشريف والاستفادة من أنواره الشريفة ومن تأييده ومن تسديده فهو أمر شائع مشهور لكثير من العلماء والصلحاء والأبرار، حتى الشخص العادي، فالإمام ورد عنه أنه قال: «لولا ذنوب شيعتنا لرأونا رأي العين»[٣١] ولا يحجبنا عنه إلا ذنوبنا ومعاصينا وتجاوزنا ورذائلنا.

وفي بعض الروايات من قرأ دعاء العهد أربعين صباحاً وفق لرؤية الإمام، إما يقظة وإما في المنام[٣٢]، ودعاء العهد فيه تشويق لرؤية الإمام؛ «اللهم إن حال بيني وبينه الموت الذي جعلته على عبادك حتماً فأخرجني من قبري مؤتزراً كفني شاهراً سيفي مجرداً قناتي ملبياً دعوة الداعي في الحاضر والبادي، اللهم أرني الطلعة الرشيدة والغرة الحميدة واكحل ناظري بنظرة مني إليه وعجل فرجه وأوسع منهجه».

دعاء الندبة.. دعاء الفرج، أدعية وردت عن أهل البيت لتقوية علاقتنا بالإمام المنتظر، لنظل على علاقة نفسية بالإمام، لنظل على شوق وعلى انتظار وعلى لهفة وعلى توجه نفسي للإمام عليه السلام هذه الأدعية إذا مارسناها تزداد اللهفة والشوق والانتظار له عجل الله فرجه، وهذا الشوق النفسي له آثار طيبة على السلوك وله آثار طيبة على الرزق وله آثار طيبة على العمر وله آثار طيبة على التوفيق وعلى التعلق النفسي بالإمام المنتظر عجل الله فرجه.

وكثير من الصلحاء يذكرون عنه الرؤيا الجميلة والرؤيا المفيدة، فأحد العلماء في النجف كان يكرر أبيات السيد حيدر الحلي «الله يا حامي الشريعة... الخ» فهذا العالم يقرأ أبيات العتاب للسيد الحلي في الليل ويبكي:

ماذا يهيـــــجك إن صبـرت
أترى تجـــــيء فجـيعة
حيث الحســـين على الثرى
ذبحـــته آل أمـــية ظامٍ
ورضيـــــعه بـدم الوريد
لوقــعة الـطف الفظـيعة
بأمضّ من تلك الفجيعة
خيل العدى طحنت ضلوعه
إلى جنـــب الشــريعة
مخضب فاطلب رضيعه[٣٣]

ونام هذا العـالم ورأى فـي المنـام الإمـام المنتظر جالساً حزينـاً مطـأطئ الـرأس بـاكي العين وقف عنده هذا العالم قبّـل يديـه قـال: سيدي مالي أراك حزيناً؟ قـال: يـا هـذا أبلـغ سيد حيدر السلام وقل له: لا يعاتبني فلـيس الأمر بيدي كلما عاتبني مزق قلبي أنا لا أقدر على ذكر مصيبة جدي الحسين.

اللهم بحق الإمـام تقبـل أعمالنـا وشـافي مرضـانا ومرضـى المـؤمنين وعجـل لوليـك الفرج واقض حوائج المؤمنين وأيّد مـن نصـر الدين وانصر الإسلام والمسلمين.

وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين

الهوامش

(١) راجع سنن الترمذي، ج٥: ٣٢٨، السنن الكبرى للنسائي، ج ٥: ٤٥، المعجم الكبير للطبراني، ج ٥: ١٥٤ ـ ١٨٦، ....

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥.

(٤) المستدرك للحاكم، ج ٤: ٤٦٤، ٥٥٧.

(٥) كنز العمال للمتقي الهندي، ج ١٤: ٢٦١، ح ٣٨٦٥٣، ج ١٤: ٢٦٤، ح ٣٨٦٦٢.

(٦) راجع ذخائر العقبى للطبري: ١٣٦، لسان الميزان لابن حجر، ج ٣: ٢٣٨.

(٧) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٤: ١٧٦.

(٨) راجع صحيح البخاري، ج ٨: ١٢٧، صحيح مسلم، ج ٦: ٣، مسند أحمد، ج ٥: ٨٦ ـ ١٠٧، سنن

أبي داود ، ج ٢ : ٣٠٩ ، المستدرك للحاكم ، ج ٣ : ٦١٨ .

(٩) صحيح مسلم ، ج ٦ : ٢٢ ، ولفظ الحديث : « . . . ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » .

(١٠) سورة النساء ، الآية : ١٥٧ .

(١١) سورة النساء ، الآية : ١٥٨ .

(١٢) سورة التوبة : الآية : ٣٣ .

(١٣) القصص (٢٨) : الآية ١٤ .

(١٤) راجع بحث حول المهدي للسيد الشهيد الصدر (قدس سره) .

(١٥) تفسير الرازي ، ج ٣ : ٢١٣ .

(١٦) راجع معاني الاخبار للصدوق : ٥٦ ، ح ٤ ، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ، ج ١ : ٢٧ .

(١٧) المناقب لابن شهر آشوب ، ج ١ : ٢١٤ ، مسند أحمد ، ج ٤ : ٦٦ وفيه (آدم بين الروح والجسد) ، كنز العمال للمتقى الهندي ، ج ١١ : ٤٥٠ ، ح ٣٢١١٥ ، وفيه : (بين الروح والطين) .

(١٨) راجع عقد الدرر للشافعي السلمي : ٢٤١ ، باب ١١ ، الفتن لابن طاووس : ٨٠ ، باب ١٨٢ .

(١٩) سورة الشورى ، الآية : ٥٢ .

(٢٠) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨ .

(٢١) راجع تفسير الميزان للطباطبائي ، ج ١٨ : ٧٧ .

(٢٢) الكافي للكليني ، ج ١ : ٥٤ ، باب لولا ان الأئمة يزدادون لنفد ما عندهم ، ولفظ الحديث في الكافي : « لولا أنا نزداد لانفدنا » .

(٢٣) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥ .

(٢٤) راجع مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج ٣ : ٥٠٤ ، تفسير القمي ، ج ١ : ٣٠٤ .

(٢٥) راجع بصائر الدرجات للصفار : ٤٤٦ ، الأمالي للشيخ المفيد : ١٩٦ .

(٢٦) ق (٥٠) : الآية ١٦ .

(٢٧) راجع الاحتجاج للطبرسي ، ج ٢ : ٣٢٣ .

(٢٨) الاحتجاج للطبرسي ، ج ٢ : ٢٩٧ ، كمال الدين للصدوق : ٥١٦ ، ح٤٤ .

(٢٩) راجع البحار للمجلسي، ج ٥٣ : ٢٥٢.

(٣٠) راجع البحار للمجلسي، ج٥٣ : ٣٠٢، ج ١٠٢ : ٤.

(٣١) راجع توقيع الناحية المقدسة إلى الشيخ المفيد في كتاب الاحتجاج للطبرسي، ج ٢ : ٣٢٥، ولفظه : ولو أن اشياعناً وفقهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا . . .

(٣٢) راجع مهج الدعوات لابن طاووس : ٣٣٤، البحار للمجلسي، ج ٥٣ : ٣٢٨.

(٣٣) راجع البحار للمجلسي، ج ٥٣ : ٣٣١.

محمد عبد المنعم الشامى
كاتب وباحث/ سوريا

ملامح عصر الإمام الهادي عليه السلام

مارس الإمام الهادي عليه السلام مهامّه القيادية في حكم المعتصم سنة (٢٢٠ ه) واستشهد في حكم المعتزّ سنة (٢٥٤ ه) وخلال هذه السنوات الأربعة والثلاثين قد عاصر ستة من ملوك بني العباس الذين لم يتمتّعوا بلذة الحكم والخلافة كما تمتّع آباؤهم حيث تراوحت فترة خلافة كل منهم بين ستة أشهر وخمسة الى ثمان سنوات سوى المتوكل الذي دام حكمه خمسة عشر عاماً.

ويعتبر عهد المتوكل العباسي بدء العصر العباسي الثاني وهو عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ ـ ٣٣٤ ه) واعتبره البعض بدء عصر انحلال الدولة العباسية، الذي انتهى بسقوطها على أيدي التتار سنة (٦٥٦ ه).

وكان لسياسة المتوكل وأسلافه الاثر البالغ في انفصال بعض أمصار الدولة واستقلالها عن السلطة المركزية بالتدريج، حيث نشأت دويلات صغيرة وكيانات متنافسة فيما بينها، كالسامانية والبويهية والحمدانية والغزنوية والسلجوقية بعد هذا العصر[١].

وكما كان لهذه الدويلات تأثير في تقدم الحضارة الإسلامية باعتبار انفتاح بعض الأُمراء على العلم والعلماء لكنّها أضعفت كيان الدولة العباسية سياسيّاً لأنها قد ساهمت في ايجاد شرخ في وحدة الدولة الإسلامية الكبرى.

وقد يعزى هذا الانفصال وتشكيل هذه الدويلات ـ اضافة إلى الاضطهاد وتعسف سلاطين الدولة العباسية ـ إلى استخدام الأتراك في مناصب الدولة الحساسة، واعتمادهم كقوة رادعة ضد معارضي الدولة العبّاسية إذ أصبح الجيش يتكون منهم قيادة وأفراداً، بينما أُبعد العرب وسواهم عن تلك المناصب مما أثار حفيظة العرب ضد السلوك السياسي للدولة العبّاسية وبالتالي أدى إلى الانفصال عنها.

وكان المعتصم أوّل الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالاتراك وأسندوا إليهم مناصب الدولة وأقطعوهم الولايات الإسلامية[٢].

وقد انتهج المتوكل سياسة العنف تجاه العلويين وشيعة أهل البيت عليهم السلام فضلاً عن أهل البيت عليهم السلام أنفسهم وتجلّى ذلك بوضوح في أمره بهدم قبر الإمام الحسين بن علي عليه السلام وما حوله من الدور بل أمر بحرثه وبذره وسقي موضع القبر ومنع الناس من زيارته وتوعّد بالسجن على من زاره[٣].

وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة المسلمين بشكل عام، وأهل بغداد بشكل خاصّ وقد ردوا على الإهانات التي ألحقها بالعلويين فسبّوه في المساجد والطرقات[٤].

وفي زمن المتوكل أصابت مدن العراق مجاعة شديدة وهلك كثير من الناس، وانتهز الروم فرصة ضعف الدولة فاستأنفوا غاراتهم على أراضيها فأغاروا على دمياط وفتكوا بأهلها وأحرقوا دورهم، ثم غزوا فيليفيا جنوبي آسيا الصغرى وهزموا أهلها هزيمة منكرة[٥].

وفي عام (٢٣٥ ه) عهد المتوكل إلى أولاده الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد، بيد أنه رأى أن يقدّم المعتز على اخويه لمحبته أم

المعتز (قبيحة) ولكن المنتصر غضب لذلك فدبّر مع أخواله الأتراك مؤامرة لاغتيال أبيه، وحاول بعض الأتراك في دمشق اغتيال المتوكل غير أنّ محاولتهم تلك باءت بالفشل بفضل ما عمله بغا الكبير والفتح بن خاقان[٦].

ولم ينج المتوكل من الاغتيال فقد قتل فيما بعد، بعد اتفاق بغا الصغير وباغر التركي للتخلص منه وتنصيب ابنه المنتصر عام (٢٤٧ هـ).

وكان المنتصر يحسن للعلويين مخالفاً بذلك سياسة أبيه، وتجلّت سياسته في إزالة الخوف عنهم والسماح لهم بزيارة قبر الحسين عليه السلام.

ولم يدم حكم المنتصر طويلاً فقد تآمر عليه الأتراك وقتلوه عن طريق طبيبه طيفور في سنة (٢٤٨ ه)[٧].

وبعد مقتل المنتصر تولى كرسيّ الخلافة المستعين بالله سنة (٢٤٨ ه) وأرجع عاصمته الى بغداد غير أن الأتراك لم يأمنوا جانبه، فاتفق باغر التركي مع جماعته على خلع المستعين ونصب المعتز مكانه[٨].

ووقعت بينهما حرب دامت عدة اشهر انتهت بابعاد المستعين إلى واسط ثم قتله غيلة[٩].

كما أن المعتز لم ينج من أعمال العنف والتعسف التي قام بها قوّاد الدولة العباسية من الأتراك فقتل شرّ قتلة على أيديهم وذلك سنة (٢٥٥ هـ).

وكان اغتيال الإمام الهادي عليه السلام في حكم المعتزّ في سنة (٢٥٤ ه).[١٠]

إنّ ضعف شخصيّة الحكّام هو أحد عوامل التفكك والانهيار الذي أصاب الدولة الإسلامية، وقد رافقه نفوذ زوجاتهم وأُمّهاتهم الى جانب سيطرة الأتراك الذين اعتمدوا عليهم للتخلّص من نفوذ الإيرانيين والعرب، كما كان لظلم الأُمراء والوزراء دوره البالغ في زعزعة ثقة الناس بالحكّام وإثارة الفتن والشغب داخل بلاد المسلمين[١١]. تمرّداً على ظلم الظالمين ونهب ثروات المسلمين والاستهتار بالقيم الإسلامية والتبذير في بيت مال المسلمين.

إنّ ضعف شخصيّة الحكّام أدّى الى سقوط هيبتهم عند الولاة ممّا دعاهم الى الاتّجاه نحو الاستقلال بشكل تدريجي لعلمهم بضعف مركز الخلافة وانهماك

الحكام بالملاهي والملذّات.

وقد شجّع الحكّام الأُمراء وعمّالهم على الاهتمام بجمع الأموال وارسالها الى الخليفة ونيل رضاه واتّقاء تساؤلاته عن تصرّفات الأُمراء.

وأدّت هذه الظاهرة الى طغيان المقاييس المادّية واستقرارها في مختلف الشرائح الاجتماعية.

وقد ساعدت الفتوحات ـ التي كانت أشبه بالغزو لإحكام السيطرة على الأراضي بدل فتح القلوب والعقول ـ على استحكام المقاييس المادية لأنها كانت تدرّ الأموال والغنائم على الجيش الفاتح فكانت مصدراً من مصادر الثروة التي يفكّر بها الحكّام والأُمراء.

الحالة الثقافية

كان لترجمة الكتب اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية أثر كبير في ثقافة هذا العصر، وكانت ظاهرة الترجمة قد ابتدأت منذ أيام المأمون، وقد أسهمت في رفد الثقافة الإسلامية من جهة والانفتاح على الثقافات الأُخرى التي قد تتقاطع مع ما أفرزته الحضارة الإسلامية من اتجاهات فكرية وثقافية من جهة أُخرى.

كما كان لارتحال المسلمين في مشارق الارض ومغاربها أثر كبير في التبادل والتعاطي الثقافي بين شرق البلاد الإسلامية وغربها وأنتج ذلك نشاطاً ثقافياً متميّزاً وحركة فكرية، أعطت للعلماء والفقهاء دوراً كبيراً وموقعاً مرموقاً عند الخلفاء والحكام حتى عُدّ القرن الرابع الهجري فيما بعد العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

وقد حظي الشعراء والأُدباء بمكانة رفيعة عند الأُمراء ممّا أدى الى ازدهار الأدب في هذا العصر.

ولا ينبغي أن نغفل عن محنة خلق القرآن وما رافقها من توتّر في المجتمع الإسلامي طيلة عقود ثلاثة[١٢].

الحالة الاقتصادية

إن الاضطرابات السياسية والصراع على السلطة وبدء انفصال أجزاء عن الدولة العباسية واستقلالها قد أثّر في تدهور الوضع الاقتصادي.

وكان لظهور الطبقية في المجتمع

الإسلامي آثار سلبية أدّت الى سرعة الانهيار الاقتصادي فضلاً عن المجاعة وارتفاع الأسعار، مما كان له أثر كبير في اضطراب الأمن وفقدان السيطرة من قبل الدولة، وقد تجلّى ذلك في قصر فترة حكم الخلفاء الى جانب انتقال ادارة الدولة إلى القواد الأتراك بدل الخلفاء وهو دليل واضح على ضعف شوكتهم وفقدان هيبتهم أمام قوّاد الجيش ووزرائهم وكتّابهم[١٣].

الموقع الاجتماعي والسياسي للإمام الهادي عليه السلام

إن حادثة إشخاص الإمام عليه السلام من قبل المتوكل من المدينة إلى سامراء وإيكال ذلك الامر إلى يحيى بن هرثمة، وما نقله يحيى هذا عن حالة اهل المدينة المنورة، وما انتابهم وما أحدثوا من ضجيج واضطراب لإبعاد الإمام عليه السلام عنهم يصوّر لنا مدى تأثر أهل المدينة بأخلاقية الإمام عليه السلام المثلى وحسن سلوكه وتعامله معهم وشدة اندماجه في حياتهم، ولا غرو فهو سليل دوحة النبوة وثمرة شجرة الإمامة التي هي فرع النبوة، فالإمام هو حجة الله سبحانه على خلقه وهو المثل والقدوة التي يقتدى بها وهو القيم والحافظ لرسالة الاسلام.

وهذا عبيد الله بن خاقان المعاصر للإمام الحسن العسكري عليه السلام كان يصف الإمام الهادي لرجل قائلاً له:

لو رأيت أباه ـ اي الإمام الهادي عليه السلام ـ لرأيت رجلاً جليلاً نبيلاً خيّراً فاضلاً[١٤].

وكان للإمام عليه السلام نفوذ في عمق البلاط بحيث نجد أُمّ المتوكل تبعث بصرّة للإمام عليه السلام بعد التوسّل به لتوصيف دواء لداء المتوكل وهو كاشف عن إيمانها بمكانة هذا الإمام عند الله تعالى.

وقد شاع خبره وذاع صيته عند أصحاب البلاط فضلاً عن عامّة الناس، في الوقت الذي كان المتوكل قد أحكم الرقابة الدقيقة على تصرّفات الإمام عليه السلام وارتباطاته لئلا يتّسع نفوذه وتمتدّ زعامته، بل كان يخطط لسجنه واغتياله.

وتكفي نظرة سريعة على ما صدر من معاصريه من تصريحات حول مكانته وسمو منزلته لتقف عند الموقع الاجتماعي المتميز للإمام عليه السلام بالرغم من كل محاولات التسقيط[١٥].

العباسيون والإمام الهادي عليه السلام

تدرّجت سياسة الحكّام العباسيين في مناهضة أهل البيت عليهم السلام بعد أن عرفوا موقعهم الديني والاجتماعي المتميّز وأنهم لا يداهنون من أجل الحكم والملك بل إنهم أصحاب مبدأ وعقيدة وقيم، فكانت سياسة السفّاح والمنصور والرشيد تتلخص في الرقابة المشدّدة والتضييق مع فسح المجال للتحرك المحدود ورافقها خلق البدائل العلمية لئلا ينفرد أهل البيت عليهم السلام بالمرجعية العلمية والدينية في الساحة الاجتماعية فكان الدعم المباشر من الحكّام لأئمة المذاهب وتبنّي بعضها والدعوة إليها في هذا الطريق.

ولكن كل هذه الأساليب لم تفلح في التعتيم الاعلامي وتوجيه الأنظار عن أهل البيت عليهم السلام الى غيرهم فكانت سياسة المأمون هي سياسة الاحتواء التي نفّذها مع الإمام الرضا عليه السلام.

غير أن المأمون حين أدرك عدم امكان احتواء الإمام عليه السلام قضى عليه، لكنه بتزويجه لابنته أُم الفضل من الإمام الجواد عليه السلام قد أحكم الرقابة على ولده الإمام الجواد عليه السلام بشكل ذكي جداً، ولم يسمح المعتصم للإمام الجواد عليه السلام ـ وهو في ريعان شبابه ـ ليبقى في مدينة جدّه بل استدعاه وقضى عليه بالسم لأنه قد أدرك أيضاً عدم امكان احتوائه بل عدم امكان احكام الرقابة عليه من داخل بيته وخارجه.

وهنا جاء دور المتوكل ومن تبعه لسجن الإمام والتضييق عليه بأنحاء شتّى، فتمّ استدعاء الإمام الهادي عليه السلام وعُرِّض لأنواع الاحتقار والتسقيط والتضييق ـ كما لاحظنا ـ وأُحكمت الرقابة على كل تصرفاته داخل البيت وخارجه، بنحو قد تجنّبوا فيه إثارة الرأي العام حيث تظاهروا بإكرام الإمام واحترامه واعزازه عليه السلام، بينما وصلت الرقابة الى أبعد حدّ. وكانت قضية الإمام المهدي المنتظر عليه السلام من الأسباب المهمة التي دعت السلطة لإحكام الرقابة عليه لئلاّ يولد الإمام المهدي عليه السلام إن أمكن أو للاطلاع على وجوده إن كان قد وُلد، ومن ثم القضاء عليه.

وقد بقي الإمام الهادي عليه السلام تحت رقابة الحكّام العباسيين مدة طويلة تزيد على العشرين عاماً[١٦]، وهي فترة طويلة جداً إذا ما قسناها مع فترة ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام أو فترة بقاء الإمام الجواد عليه السلام في بغداد في

زمن المعتصم.

وفي هذا مؤشر واضح لتغيير العباسيين سياستهم العامة تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام.

اضطهاد أتباع أهل البيت عليهم السلام

إذا استثنينا سياسة المنتصر التي لم تدم سوى ستة أشهر والتي تمثّلت في اللين مع العلويين وشيعة أهل البيت عليهم السلام فإنا نجد السياسة العباسية العامة هي مناهضة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، وممارسة سياسة العنف معهم بالرغم من اتّساع رقعة التشيّع بعد تظاهر المأمون باحترامه الخاص للإمام الرضا عليه السلام.

إن حرمان أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم من الوضع المعيشي اللائق بهم إنّما كان باعتبار قلقهم من توظيف المال للإطاحة بملكهم. ومن هنا كانت سياسة التقشف بالنسبة لهم سياسة عامة قد سار عليها عامة ملوك بني العباس، وهم أعرف بالمكانة الاجتماعية لأهل البيت عليهم السلام في قلوب المؤمنين.

وكان الحرمان يمتدّ الى إخراجهم من الوظائف الحكومية إن عثروا على موال لأهل البيت عليهم السلام كان قد حظي بوظيفة حكومية، بل تعدّى ذلك الى تحديد أملاكهم وغلمانهم حتى بان الفقر والحرمان على كثير من العلويين في هذ العصر.

انتفاضات العلويين:

لقد تمادى المتوكل في ايذاء العلويين ومنعهم حقوقهم التي منحهم الله إيّاها حتى أشرفوا على الهلاك من شدّة الفقر بل تمادى في الجور عليهم حتى قدّم دعوى غير العلوي على دعوى العلوي إذا تحاكما عند القضاة.

ولم نجد من العباسيين عامة إلاّ العداء والبغض لأهل البيت عليهم السلام لأسباب شتى، منها: تفرّد أهل البيت عليهم السلام بالنصّ عليهم من قبل جدّهم الرسول صلى الله عليه وآله وتفرّدهم بالزعامة الروحية والعلمية، وتأثيرهم على قلوب المسلمين ووجدانهم، والاهتمام بشؤونهم، وايثارهم للدين على الدنيا، والموت في سبيل الله على الحياة مع الذل والهوان في غير طاعة الله.

إن عواطف المسلمين وقلوبهم قد اتّجهت نحو أبناء الرسول عليهم السلام وشيعتهم الذين يحذون حذوهم، وأخذت هذه الظاهرة تنمو وتظهر على الساحة الإسلامية وهذا مما

لا يرتاح له الحكّام العباسيون وعملاؤهم الذين جلسوا على موائدهم التي جسّدت أفضع انواع التبذير في بيت مال المسلمين. وأهل البيت عليهم السلام بعد ثورة الحسين عليه السلام وإن لم يتصدّوا للثورة المسلحة ضد الطغاة لأسباب تعود الى سياستهم المبدئية لمعالجة أنواع الانحراف في المجتمع الإسلامي، لكنّهم قد فتحوا الطريق أمام الثوّار العلويين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالسيف والسلاح حين لا يثمر الكلام والحجاج.

ومن هنا لم تخل الساحة الإسلامية من الثورات التي قام بها قادة علويون على طول الخط بعد ثورة الحسين عليه السلام.

وقد استمرت هذه الثورات حتى عصر الغيبة وانتهت فيما بعد الى تأسيس دويلات وإمارات يحكمها قادة علويون أو علماء يحملون ثقافة أهل البيت عليهم السلام ويحاولون تجسيد قيمهم وسيرتهم في الحياة الإسلامية.

ولم تكن اغتيالات الخلفاء للأئمة من أهل البيت عليهم السلام إلاّ باعتبار دعمهم لهذه الثورات المسلّحة وتأييدهم لها من قريب أو من بعيد.

وهذا الخط الثوري في هذه الظروف الحرجة يعد أحد الأسباب التي حتّمت على الإمام الثاني ـ عشر باعتباره آخر القادة المعصومين ـ أن يتستّر بستار الغيبة لئلاّ تخلو الأرض من حجج الله وبيّناته.

وقد خرج على حكّام هذا العصر من العلويين مجموعة تمثّل استمرار الخط الثوري ضد الظلم والظالمين وإليك قائمة بأسمائهم مع ذكر تاريخ ومنطقة تحرّكهم وخروجهم:

١ ـ محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، خرج في حكومة المعتصم واعتقل في سنة (٢١٩ ه) وروي أنه قتل بالسمّ.

٢ ـ محمد بن صالح بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن حسن بن حسن ابن علي بن أبي طالب عليهم السلام خرج على المتوكل في المدينة وأُسر وسجن في سامراء.

٣ ـ يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام. خرج على المستعين في الكوفة سنة (٢٥٠ ه)، ارتضاه أهل بغداد وليّاً للأمر

كما بايعه جملة من أهل الحل والعقد في الكوفة. وضجّ الناس لقتله وحزنوا عليه حزناً لم ير مثله.

٤ ـ الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن حسن بن زيد بن حسن ابن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، خرج في طبرستان سنة (٢٥٠ ه) واستولى على الري وآمل وامتد نفوذه الى جرجان في سنة (٢٥٧ ه) واستمر في الحكم حتى سنة (٢٧٠ ه) ثم خلفه أخوه محمّد بن زيد وكان فقيهاً أديباً وجواداً.

٥ ـ محمد بن جعفر بن حسن، خرج في الري سنة (٢٥٠ ه) ودعا أهل الري الى حكم الحسن بن زيد الذي كان قد سيطر على طبرستان.

٦ ـ الحسن بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله بن علي بن حسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام ثار في قزوين سنة (٢٥٠ هـ).

٧ ـ الحسين بن محمد بن حمزة بن عبدالله بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ثار في الكوفة سنة (٢٥١ هـ).

٨ ـ اسماعيل بن يونس بن إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ثار في مكة سنة (٢٥١ هـ).

٩ ـ أحمد بن محمد بن عبدالله بن إبراهيم بن طباطبا ثار في سنة (٢٥٥ ه) بين برقة والاسكندرية.

١٠ و١١ ـ عيسى بن جعفر العلوي، ثار مع علي بن زيد في الكوفة سنة (٢٥٥ هـ).

١٢ ـ علي بن زيد بن حسين بن عيسى بن زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ثار في الكوفة سنة (٢٥٦ ه) للمرة الثانية.

١٣ ـ إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام المعروف بابن الصوفي ثار في مصر سنة (٢٥٦ ه)[١٧]

هذه صورة موجزة عن الحركات المناهضة للحكّام الذين تربّعوا على كرسيّ الخلافة وحكموا باسم الرسول صلى الله عليه وآله وهم بعيدون كل البعد عن هديه وسننه.

الهوامش

(١) تاريخ الاسلام السياسي: ٣ / ١ بتصرف.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي : ٣ / ٢ ويراجع تاريخ الطبري : ٧ حول ازدياد نفوذ الاتراك في عصر المعتصم .

(٣) تاريخ الطبري : ١١ / ٤٤ .

(٤) تاريخ الإسلام السياسي : ٣ / ٥ .

(٥) تاريخ الإسلام السياسي : ٣ / ٥ .

(٦) مروج الذهب : ٢ / ٣٩٠ .

(٧) تاريخ الطبري : ٧ أحداث عام ٢٤٨ هـ .

(٨) مروج الذهب : ٢ / ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

(٩) الكامل في التاريخ : ٧ / ٥٠ وما بعدها .

(١٠) تاريخ اليعقوبي : ٢ / ٥٠٣ .

(١١) لقد توالت حوادث الشغب في بغداد من سنة (٢٤٩ ه) وتجدّدت أربع مرات حتى سنة (٢٥٢ ه) وبدأت مشاغبات الخوارج من سنة (٢٥٢ ه) واستمرت الى سنة (٢٦٢ ه) . ورافقها ظهور صاحب الزنج سنة (٢٥٥ ه) ، وهذه سوى ما سيأتي من انتفاضات العلويين خلال النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري .

(١٢) تاريخ الاسلام السياسي : ٣ / ٣٣٢ وما بعدها .

(١٣) يُراجع تاريخ الطبري : ج ٧ ، أحداث السنوات ٢٤٧ ـ ٢٥٤ هـ .

(١٤) كمال الدين للشيخ الصدوق : ١ / ٤٢ .

(١٥) راجع الفصل الثاني من الباب الأوّل من هذا الكتاب .

(١٦) وقد عرفت أن بعض المصادر صرّحت بأن مدة إقامته × في سامراء عشر سنوات وأشهر .

(١٧) راجع مقاتل الطالبيين : ٤٧٨ ـ ٥٣٦ ومروج الذهب : ٤ / ٥٠ ـ ١٨٠ ، والكامل في التاريخ ، الجزء السابع .

هيئة التحرير

من أعلام الشيعة
السيد ابن زهرة حياته وفكره وآثاره

السيد عزّ الدين أبو المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي (٥١١ ـ ٥٨٥ هـ) المشهور بابن زهرة عالم شيعي ونقيب السادة في حلب، وفقيه إمامي، وأصولي، ومتكلم، ونحوي، وهو أشهر أفراد أسرته.

ألّف كتباً كثيرة أشهرها كتاب الغُنية وعلى ذلك عرف بصاحب الغنية. أبرز تلامذته هم شاذان بن جبرائيل القمي، ومحمد بن جعفر المشهدي وابن إدريس الحلّي.

ولادته

ولد ابن زهرة في رمضان ٥١١ هـ في مدينة حلب. وكان من السادات الأشراف ويرجع نسبه إلى إسحاق بن جعفر الصادق عليه السلام ولذلك اشتهرت أسرته بالإسحاقيين.

نسبه

إنّ نسب ابن زهرة ينتهي إلى الإمام الصادق عليه السلام.[1][2]

وينقل الميرزا عبد الله الأفندي الأصفهاني نسب ابن زهرة هكذا، هو السيد عزّ الدين أبو المكارم حمزه بن علي بن أبي المحاسن زهرة بن أبى على الحسن بن أبى المحاسن زهرة بن أبي المواهب علي بن أبي سالم محمد بن إبراهيم محمد النقيب بن علي، بن أبى علي أحمد بن أبي جعفر محمد بن أبي عبد الله الحسين بن أبي إبراهيم إسحاق المؤتمن بن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الحسيني الحلبي.[3]

أسرته

ينحدر أبو المكارم بن زهرة من سلالة السادة الأشراف من الشيعة الإمامية من حلب الذي سكن جدّه فيها بعد أن رحل عن المدينة في الحجاز وسكن في قرية حرّان من ضواحي حلب. هذه الأسرة عُرفت بالعلم والتدين واستفاد علماء الشيعة كثيراً منها.[4]

وكان فقيهاً، وأصولياً، ومتكلماً، ونحوياً ومن الثقاة بحسب علماء الرجال، ونقيب السادة في حلب، وهو أشهر أفراد أسرة "ابن زهرة" إلى درجة أنّه كان المعني عند ذكر "ابن زهرة" دون أن ترد قرينة أخرى.[5]

سيرته العلمية

بدأ تعلّمه للعلوم عند والده وحصل إجازة الرواية منه، وتلمّذ على أبي المحاسن زهرة الحلبي (جدّه) ومحمد بن حسن بن منصور، والشيخ أبي عبد الله حسين بن طاهر الصوري، وأبي منصور محمد بن الحسن النقّاش الموصلي،[6] ومن أبي علي بن الشيخ الطوسي، بواسطة واحدة. قرأ كتاب النهاية للشيخ الطوسي على حاجب الحلبي.

إجازته في نقل الروايات

أعطى ابن زهرة إجازة نقل الرواية لكل من أخيه عبد الله بن علي بن زهرة، وابن أخيه محيي الدين محمد بن عبد الله، وكذلك محمد بن جعفر المشهدي مؤلّف المزار، وشاذان بن جبرائيل القميّ، ومعين الدين سالم بن بدران المصري المازني، وعزّ الدين أبو الحرث محمد بن الحسن البغدادي.

وكان في زمانه نقيب الطالبيين والإمام الموثّق لدى شيعة حلب. في ٥٧٠ هـ وعندما توجّه صلاح الدين الأيوبي لفتح حلب ونزل خارجها، خشي الملك الصالح زنكيصاحب حلب أن يسلّم الحلبيون المدينة إلى صلاح الدين، فجمعهم في ميدان المدينة وخاطبهم بما استمال قلوبهم وبكى، فبذلت له الشيعة الطاعة واشترطوا عليه أن يجهر بـ حي على خير العمل في الأذان وأن يعاد إليهم شرقية الجامع، وينادي بأسماء أئمتهم الاثني عشر عليهم السلام أمام جنائزهم، وأن يكبّر على الجنائز خمس تكبيرات، وأن يفوّض أمر العقود والأنكحة إلى أبي المكارم حمزة. وكان الشيعة في حلب قبل ذلك، قد استطاعوا مرة أخرى منذ عهد سعد الدولة الحمداني (٣٦٧ ـ ٣٦٩ هـ) وحتى أيام نور الدين محمود زنكي (٥٤٤ هـ) أن يظهروا شعارهم في الأذان.[٧]

انتقاد بعض العلماء له

وكان محمد بن إدريس الحلي (٥٩٨ هـ) مؤلّف كتاب السرائر معاصراً لأبي المكارم وحصل منه على إجازة في الرواية، فكتب يقول: "ورأيته وكاتبته وكاتبني وعرفته ماذكره في تصنيفه من الخطأ وعرضت ذلك عليه إلا أنه اعتذر بأعذار غير واضحة وأبان بها أنه ثقل عليه الرد".[٨]

وهذا القول لابن إدريس الذي يعدّه البعض من النوابغ، لا يقلل من مكانة أبي المكارم العلمية، ذلك لأنّ ابن ادريس قد تحدّث مثل هذا الحديث عن كبار الشيعة الآخرين.[٩]

وكان أبو المكارم يدّعي الإجماع في غالبية المسائل الخلافية وكان هذا هو السبب في وجود الوهن والوهم وعدم حصول الظن بها.[١٠]

آثاره ومؤلفاته

ـ غُنية النزوع في علمي الأصول والفروع المعروف بالغنية من أشهر مؤلفاته كونه دورة كاملة في علمي الأصول والفقه الاستدلالي اضافة إلى أصول الدين وأهم المسائل الكلامية.

ـ مسألة في كونه تعالى جبّاراً حياً.

ـ مسألة في نفي الرؤية واعتقاد الإمامية ومخالفيهم ممن ينسب إلى السنة والجماعة

ـ مسألة في الرد على من زعم أن الوجوب

والقبح لا يعلمان إلاّ سمعاً.

ـ نقض شبهة الفلاسفة

ـ النكت في النحو

ـ قبس الأنوار في نصرة العترة الأخيار

ـ مسألة في الرّد على المنجمين

مسألة تحريم الفقاع

ـ مسالة في أن نظر الكامل العقل على إنفراده كاف في تحصيل المعارف العقلية

ـ المسألة الشافية في رد من زعم أن النظر على انفراد غير كاف في تحصيل المعرفة به تعالى

ـ مسألة في أن نية الوضوء عند المضمضة والاستنشاق

ـ مسألة في الرّد على من قال في الدّين بالقياس

ـ مسألة في إباحة نكاح المتعة

ـ الجواب عما ذكره مطران نصيبين

وعدد من الرسائل الأخرى وأجوبة الرسائل التي كانت قد وصلته من الجبل وحمص وبغداد.[١١]

وفاته

توفي ابن زهرة في ٥٨٥ هـ ودفن في سفح جبل جوشن الواقع غرب حلب،[١٢] بالقرب من مشهد السقط.[١٣] وقد وجدت بأطراف قبره الذي اكتشف في ١٢٩٧ هـ كتابة حسنة الخط هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذه تربة الشريف الأوحد ركن الدين أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة بن علي بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق عليه السلام صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأئمة الطاهرين. وكانت وفاته في رجب سنة ٥٨٥ للهجرة رضي الله عنه.[١٤]

المصادر والمراجع

* آقا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، اسماعيليان، د. ت.

* ابن العديم، عمر بن أحمد، زبدة الحلب، تحقيق: سامي الدّهان، دمشق، ١٣٧٠ هـ ش.

* الأمين، محسن، أعيان الشيعة، بيروت، دار التعارف، ١٤١٤ هـ.

* التنكابني، محمد، قصص العلماء، طهران، د. ت.

* الحلبى، ابن زهرة، غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع، قم، دار الإمام الصادق، ١٤١٧ هـ.

* الخوانساري، محمد باقر، روضات الجنات، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.

* الزبيدى، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤ هـ.

* العاملى، محمد بن حسن، أمل الآمل في علماء جبل، بغداد، أندلس، د. ت.

* القمى، عباس، الكنى والألقاب، طهران، مكتبة الصدر، د. ت.

* المجلسى، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣ هـ.

* النوري، حسين، خاتمة المستدرك، قم، آل البيت، ١٤١٥ هـ.

* دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، بإشراف: كاظم الموسوي البجنوردي، طهران، ط ١، ١٩٩١ م

* راغب، محمد، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، ١٣٤٢ هـ.

الهوامش

(١) دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، ج ١، ص ٥١٨.

(٢) الخوانساري، روضات الجنات، ج ٢، ص ٣٧٤.

(٣) آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ج ٢، ص ٨٧.

(٤) الزبيدي، تاج العروس، ج ٦، ص ٤٨٤.

(٥) الزبيدي، تاج العروس، ج ١١، ص ٤٧٥.

(٦) الحلبي، الغنية، ص ٢٦.

(٧) ابن العديم، ج ١، ص ١٧٢ و ج ٢، ص ٢٩٤.

(٨) محمد راغب، أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٢٦٥.

(٩) الخوانساري، ج ٢، ص ٣٧٦.

(١٠) التنكابني، قصص العلماء، ص ٤٢٦.

(١١) أمين، أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٢٥٠.

(١٢) الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص١٨٦.

(١٣) القمي، الكنى والألقاب، ج ١، ص ٢٩٩.

(١٤) الأمين، أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٢٤٩.